كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

ان القارىء للتاريخ سوف يدهشه الدور البارز الذي قام به بعض الصهاينة في التمهيد والاعداد لحركة الاستعمار التى انهالت على منطقة الشرق عامة والشرق العربي خاصة. لقد كانت عصور الاستعمار هي المأساة الحقيقية التى عانت منها شعوب الشرق في العصر الحديث. فقد حولت هذه المناطق الى مزارع تمد أوربا بكل ما تحتاجه من مواد أولية، وتوفر لها الأسواق الضخمة لما تنتجه من سلع. وكانت النتيجة فقر هنا ورخاء هناك اضافة الى مسخ شخصية الكثير من الشعوب المستعمرة وتمييع هويتها واضعاف شخصيتها واسلامها لحالة من التخلف جعلتها في نهاية الركب الانساني بعد أن كانت حضاراتها هى المشاعل التى أضاءت للبشرية طريقها والتى أشعت على الكون طوال العصور القديمة والوسيطة.

لقد افتتح البرتغاليون عصر الظلام الذي خيم على شعوب الشرق ابتداء من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. اذ سقطت الشعوب بعدها في براثن القوى الاستعمارية الغازية التى تتابعت جيوشها بالنار والدمار وانقضت أساطيلها من وراء البحار حاملة معها الموت والخراب الى كل مكان حلت به وكل أرض وطئتها أقدام الغزاة. واختلفت الصور بين جنسيات المستعمرين ولكن بقى الهدف واحدا وبقيت الغاية واحدة. وهي ابتزاز الشرق واخضاعه لكل ألوان العسف والقهر والظلم والهوان. والغريب في الأمر ان الصهاينة كانوا وراء هذا المد المشئوم.

فقبل ان يفكر البرتغاليون في ارسال أساطيلهم الى الشرق بوقت طويل كانوا قد جمعوا من المعلومات عن شعوب المنطقة وعاداتها وقوتها وامكانياتها ونقاط الضعف فيها وسبل السيطرة عليها ولغتها ودينها ومصادرها وثرواتها كانوا قد جمعوا عن كل ذلك من المعلومات ما جعل المنطقة كلها عارية أمامهم وساعدهم على ان يرسلوا أساطيلهم وجيوشهم وهم يعرفون جيدا أين يضعون اقدامهم وكيف يحكمون سيطرتهم. هذه المعلومات الوافية ذودهم بها أفراد من الصهاينة وضعوا أنفسهم وامكانياتهم في خدمة هذه الموجة الاستعمارية.

قبل عصر الاستعمار عرف ما أطلق عليه عصر الكشوف الجغرافية وبالنسبة للشرق. عهد اكتشاف الطريق الى الهند أو كشف طريق التوابل ونشط من أطلق عليهم اسم الرحالة الذين لم يكونوا في واقع الأمر سوى مجموعة من المغامرين أو الجواسيس الذين اتقنوا لغات المنطقة وألموا بطرف من طرق الحياة فيها واتقنوا اكثر وسائل التخفي والتلون في ثياب تجار أو أطباء أو علماء وامتازوا بامكانيات رصد كل ما تقع عليه أعينهم مع الاستعانة بكل سبيل للوصول الى معرفة كل ما في المنطقة وأفضل السبل للسيطرة عليها. ومعظم هؤلاء كانوا من الصهاينة.

ونستعرض الآن بعض من أشار اليهم في بحث ممتاز الدكتور طارق نافع الحمداني من كلية التربية بجامعة بغداد عن «الرحالة البرتغاليين في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر» ففي عام ١٤٨١م وعندما تولى الملك جوان الثاني حكم البرتغال اتجه هذا الرجل بانظاره الى الشرق وأخذت جهوده سبيلين : الأول الرحلات البحرية التي تصدى لها بعض المغامرين من البحارة وفي مقدمتهم بارثلوميو دياز ثم فاسكو دي جاما وهي الرحلات التي قادت البرتغاليين الى الهند. والثاني البعثات السرية لجمع المعلومات وكان في مقدمتها بدرو دي كوفلهام وافونسو دي بايفا. وقد أقلع الرجلان أو الجاسوسان عام ١٤٨٧م عن طريق برشلونه نابولي ورودس ثم القاهرة ولبسا زى التجار واندسا بين جماعة من التجار مسافرة الى الطور ثم الى سواكن وعدن. وفي عدن انفصلا فاتجه بايفا الى الحبشة حيث مات بعد قليل وواصل كوفلهام سيره نحو الهند حيث وصل الى كنانور وكلكتا وجوا ثم اندس هناك بين مجموعة من التجار العرب متجها الى هرمز ثم الى عدن وزيلع

فسفالا ثم الى القاهرة و في القاهرة كان في انتظاره صهيونيان هما ابراهام بيا و يوسف لاميجو. سلم أحدهما تقريرا طويلا عن رحلته يشتمل على كل التفاصيل حمله الى البرتغال واصطحب معه الثاني عائدا الى هرمز. و في هذه المرة قاده الصهيوني الى جده ومكة و المدينة وسيناء التى أبحر منها الى عدن ثم الحبشة حيث حبسه فيها ملك الحبشة ومنعه من مغادرتها ولكن تقاريره كانت قد عرفت طريقها الى البرتغال على يد الصهيوني المرافق.

ثم يأتى انطونيو تنريرو وهو صهيوني برتغالي جاء الى الشرق عام ١٥٢٠م وقد بقى تنريرو في هرمز خمس سنوات ارسل فيها الى ملك البرتغال مجموعة من الرسائل الهامة وهو أول أوروبي يستعمل الطريق الصحراوي البري (طريق البصرة ـ حلب).. وقد ركب في طريق عودته من طرابلس سفينة حملته الى ايطاليا ومنها الى البرتغال بعد أن حمل معه طوال هذه السنوات التى عاشها في المنطقة مجموعة من التقارير غاية في الأهمية.

وبعد تنريرو جاء بيدرو تكسيرا وهو ينتمي لاحدى الأسر اليهودية البرتغالية وكان من اكثر المبعوثين أو الرحالة البرتغاليين خبثا فقد ادعى أنه مسيحي وتنكر مرة في زى طبيب وأخرى في زى مضارب وثالثة في زى تاجر جواهر، وقد تنقل تكسيرا في كل أرجاء المنطقة. في الهند وهرمز ومسقط والبصرة وسواحل بلاد الشام وكان من اكثر البرتغاليين دقة في كتابه التقارير عن المناطق التى مر بها وعاش فيها. ولم يكن يمر بالمدن مرورا عابرا، وانما كان يعيش في كل مكان يحل فيه المدة التى تلزمه ليعرف كل شيء عنه ويسجله بدقة وافاضة. ثم هو يمارس عملا ما سواء في التجارة أو الطب وقد تمكن من أن يجمع ثروة كبيرة ضاعت منه في أواخر أيامه وعندما وافته منيته في منتصف القرن السابع عشر أعلن انه يهودي وانه يموت على اليهودية.

هذه نماذج من هؤلاء الصهاينة الذين كانوا عيون الاستعمار ولا يستطيع أحد أن ينكر أن ما قدموه للقوى المعادية للشرق كان أخطر بعشرات المرات من كل الاسلحة التى استخدمتها القوات الغازية. وهو دور يتقنه الصهاينة جيدا ويحسنون القيام به ببراعة فذة..

عبدالله بن خالد آل خليفة

مشروع خطّة عثمانية
في التصدّي للأطماع الاستعمارية
أواخر القرن



يعتمد هذا البحث رئيسيا على الوثائق الموجودة بأرشيف رئاسة الوزراء باسطنبول [١] وخاصة على وثيقة تبدو ذات أهمية بالغة اذ هي عبارة عن تقرير مطول (١٢ صفحة من الحجم الكبير) كتبه أحد ممثلي الدبلوماسية التركية بلندن الى السلطان العثماني [٢] يعرض فيه المطامع الاستعمارية وخاصة الانجليزية والروسية بالخليج العربي ، ويقترح خطة عمل للتصدي لهذه الأطماع . وقد كتبت الوثيقة فيما بين ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ ، أي في فترة حرجة بالنسبة للامبراطورية اذ بدأت أركانها تتداعى ، بل ان أواخر القرن مثل مسرحا لتنامي الشعور القومي وتطور الوعي بالذات ، وعرفت الامبراطورية داخليا وخارجيا هزات عنيفة كان التدخل الأجنبي وتكالب القوى الاستعمارية على تفكيك تركة «الرجل المريض» أهم معالمه . ولئن لم تقدر الامبراطورية العثمانية على ايقاف الزحف الاستعماري على بعض الأقطار العربية التي كانت تحت نفوذها (احتلال الجزائر ، وتونس ، ومصر ...) فانها رغم ذلك ، لم تعدم الخطط التي تمكنها نظريا على الأقل من المحافظة على بقايا المناطق العربية المرتبطة بها ولو اسميا . فالى أي مدى استطاع الباب العالي التصدى لهذا الزحف ؟ وبأي الوسائل ؟ وما مدى فعالية أساليبه المعتمدة ؟.

أ ـ الخليج والصراع الدولي

تعتبر منطقة الخليج العربي من أشد المناطق حساسية من حيث موقعها كحلقة تربط ثلاث قارات فيما



بالخليج العربي
التاسع عشر

بقلم الدكتور :

الكرّاي القسنطيني

(تونس)

بينها وهي تبعا لذلك محل اهتمام كل الأطماع الاستعمارية وقد تضاعفت هذه الأهمية منذ اكتشفت حقول النفط بالمنطقة فتزايد بذلك تكالب القوى المهيمنة للسيطرة عليها .

١ ـ الانجليز : الخليج «بحيرة» بريطانية

لقد نجحت انجلترا الاستعمارية في أن تجعل من الخليج العربي «بحيرة»

تابعة للتاج البريطاني ، منذ أن أبعد البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون من المنافسة ، ومنذ أن دخلت شركة الهند سنة ١٦١٦ الى السواحل لتقيم بها مراكز تجارية ... وفي الواقع فان انجلترا ومنذ أن فتحت لها قنصلية بالبصرة (١٧٦٤) ، كانت تسعى لربط هـذه المنطقة نهـائيا بمصـالحها الاقتصادية والسياسية . فهي لم تعد تمثل ذيلا ملحقا ، أو زائدة هامشية في دورة المصالح البريطانية . فتطور المعاملات مع سكانها ونمو تجارتها وأهمية موقعها الاستراتيجي كحلقة اتصـال ضرورية بـين انجلتـرا ومستعمراتها الشرقيـة (الهند ...) وكمعبر ضروري وسريع لها نحو المنـاطـق الأوروبيـة (اختصـار المسافات) كل هذا صير لها أهمية بالغة . فضلا عن ذلك فإن الأرباح التي ضمنتها البرجوازية التجارية والصناعية الانجليزية ـ الهندية من مصالحها بالمنطقة قد ضاعفت هذه الأهمية اذ أصبحت ٩٠٪ من التجارة الخليجية لصالح حكومة الهند منذ مطلع القرن التاسع عشر [٣] كما ان جلب كميات اللؤلؤ المستخرج من مياه البحرين وغيره من الموانىء المطلة على الخليج يعرف طريقه الى الانجليز عبر الهند . ان هذه الأهمية هي التي تفسر الاهتمام الخاص الذى أولاه الانجليز للمنطقة وشراسة دفاعهم المطلق عن امتيازات يعتبرون أنفسهم أحق بها . ألم يخوّن كرزون (Curzon) ـ أشد الدبلوماسيين الانجليز دفاعـا عن الافضلية البريطانية بالخليج ، كل متسـامح مـع أية قـوة أجنبيـة بالمنطقة ؟. [٤] أفلم يبين أن وجود أي منافس للأنجليز بالمنطقة سيحطم تجـارة «بمـلايـين الجنيـهـات الاسترلينية» [٥] ؟.

ولئن تركز نشاط شركة الهند الشرقية بصفة رئيسية على الساحل الايراني [٦] الا أن أهمية المنطقة تتجاوز بكثير بعض المراكز التجارية الحساسة لتتعلق «بأمن» التجارة في الخليج بصورة عامة ، وتبعا لذلك صارت بريطانيا تربط الدفاع عن الجزء بالكلّ ، وأصبح دفاعها عن هذه المراكز ونشاطها فيها يمرّ حتمـا وبالضرورة عبر «سلامة» سفنهـا ومراكبها ، ومن هذا المنطلق صار للخليج موقع خاص يتجـاوز دور «الجزء الفرع» لكي يصبح مع مطلع القرن التاسع عشر كوحدة تقوم بذاتها ، ونعتقد تبعا لذلك أنه من «التجني» القول بأن الخليج لم يحظ بالأهمية لدى الدبلوماسية البريطانية الاّ منذ فتح قناة السويس (١٨٦٧) أو منذ احتلال (مصر) (١٨٨٢) والحال أن العديد من المحطات في تاريخ

الخليج أثبتت عكس ذلك ... ان عقد سلسلة من الاتفاقات الجائرة مع شيوخ وسلاطين الساحل العربي للخليج منذ أواخر القرن الثامن عشر [٧] ومع مطلع القرن التاسع عشر [٨] وفتح حكومة الهند وكالات لها بهذا الساحل في فترة مبكرة [٩] لم تمثل في الحقيقة سوى البوابة الكبيرة التي دخل منها الانجليز لتدعيم المسار التجاري الذي انطلق قبل هذا التاريخ . أضف الى ذلك أن إنجلترا كانت ترفض السماح لأية قوة أجنبية بمنافستها الأفضلية في المنطقة ، بل ان سعي السياسة البريطانية كان يتجه نحو رفض أحقية وجود بعض القوى الأخرى ، فلقد قوبل بالرفض طلب الباب العالي (١٨٤٨) مشاركة بريطانيا في مكافحة تجارة الرقيق في الخليج[١٠] وتشبث الانجليز بأحقيتهم وحدهم في مراقبة السفن ومعاقبة «الجناة» .

وفي واقع الأمر فان القوى المهتمة بشأن الخليج كانت تعلم أن ما تقدمه انجلترا من تعلات للتدخل وفرض هيمنتها على سكان المنطقة والحدّ من تجارتهم البحرية وتخويفهم لا تستقيم . ان ادعاءات بريطانيا بحماية المنطقة من القراصنة تارة ومنع الاتجار بالرقيق طورا وايقاف نزيف الاسلحة الى بلدان الخليج تارة أخرى ... لم تثن طموح البعض الآخر من الدول في التواجد بالمنطقة ، ولذلك فان النصف الثاني من القرن التاسع عشر مثّل فترة دقيقة بالنسبة للوجود البريطاني في الخليج ، ومن المفارقة أن نقر أيضا بأن هذه الفترة مثّلت أهم فترة تحققت فيها سيادة بريطانيا بالمنطقة[١١] اذ أجبرت بريطانيا في اطار المنافسة العالمية ، على تدعيم مواقعها أكثر فأكثر : فركزت مقر الوكالة السياسية البريطانية ببغداد منذ ١٨٦٩[١٢] وقد كانت مقامة من قبل على سفينة قديمة من سفن أسطول ما بين النهرين ، ورفعت سنة ١٨٧٩ في درجة التمثيل البريطاني في البصرة من نائب قنصل الى قنصل[١٣] وصارت مسائل الخليج تحظى بأهمية كبرى لا سيما منذ أصبح التاج البريطاني يشرف بصورة مباشرة على المناطق الهندية . وازداد هذا النفوذ الانجليزي منذ أن نجحت الدبلوماسية البريطانية في فتح نهر قارون للملاحة (١٨٨٨) وبدىء فورا في تشييد طريق بري يربط العاصمة الايرانية بنهاية الخط الملاحي[١٤] ان هذه «النجاحات» الانجليزية على الضفة الشرقية رغم منافسة «الدب الروسي» ستزداد رسوخا بفعل انهيار السلطة المركزية في ايران لا سيما منذ وصول مظفر الدين شاه الى الحكم

سنة ١٨٩٦ .

أما على الواجهة الغربية من الساحل الخليجي ، فان بريطانيا ولئن كانت تراهن كذلك على ادخال بعض العادات الاستهلاكية الجديدة الى المناطق العربية حتى تصبح سوقا رابحة لبضاعتها ، فانها كانت تهتم أكثر في هذه المواقع بالجوانب الاستراتيجية والسياسية اذ لم يكن السوق العربي من حيث العدد بحجم السوق الفارسية ، ورغم ذلك فان بريطانيا كانت حريصة على ربط هذه الدويلات والمشيخات بعقود ومواثيق تضمن لها الولاء السياسي من جهة وتضمن امتيازاتها الاقتصادية الآنية والمستقبلية من جهة أخرى .

فكانت سلسلة تلك المعاهدات الجائرة[١٥] التي تقيم صلحا لا نهاية له . بل ان بريطانيا امعانا في مزيد احكام قبضتها على الساحل فرضت على شيوخ وأمراء المنطقة خلال سنوات ١٨٩١ و١٨٩٢[١٦] معاهدات تصبح بمقتضاها هذه الامارات تحت الامرة الفعلية للانجليز وان حافظت اسميا على استقلالها[١٧] . فضلا عن ذلك فان بريطانيا بفعل هذه المعاهدات قد أعطت لنفسها أحقية التصرف في مصير هذه الدويلات وتاريخها ، بل انها منعتها من الاتصال والتعامل مع قوات أجنبية عداها أو بدون مشورتها . زيادة عن ذلك فان إنجلترا قد منعت أية امكانية لتسيطر سياسة موحدة بين هذه الامارات المتفرقة وذلك بتأييد حالة الانقسام فيما بينها وحرمانها من أية امكانية لتأسيس كيان موحد يسطر سياسة داخلية وخارجية مستقلة ومنسجمة مع ذاتها .

وفي واقع الامر فان بريطانيا استطاعت باعتماد تكتيكين مزدوجين مختلفين (الترغيب والترهيب) أن تفرض نفسها كأعظم قوة في الخليج فتصير الدويلات العربية القائمة على سواحله خاضعة لنفوذها . أفلم يقدم البريطانيون اعانات مالية ومبالغ هامة الى سلطان مسقط منذ ١٨٧٣ لقاء ولائه ، وأنذروه بقطع الراتب عنه سنة ١٨٩٥ ان هو تخلى عن تعهداته[١٨] ؟ أفلم يضعوا على عرش مسقط السلطان «تركي» وكان مخلصا للانجليز (٧١ - ١٨٨٨) على حين غضوا الطرف عن تقديم العون للسلطان فيصل حينما هزت عرشه انتفاضة ١٨٩٥ ؟.

على أن سيطرة الوجود البريطاني على الخليج لا سيما خلال العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر لم تمنع تزايد المنافسة الدولية على المنطقة

بحثا عن مواقع وملء لفراغات خلقتها بعض القوى التي بدأت تهترىء وتتآكل .

٢ . روسيا : البحث عن منفذ نحو البحار الدافئة

لا بد أن نبرز في البداية ، أن هذه القوى المهيمنة كانت ترنو الى الخليج وثرواته رافضة أن يكون للأنجليز الاحتكار الكلي والوحيد في المنطقة فالتنافس من أجل اقتسام العالم كان على أشدّه بين الدول الرأسمالية ، كما أن البلدان التي وصلت متأخرة في مسارها التدريجي نحو مرحلة الامبريالية ، دعت الى ضرورة اعادة اقتسام العالم حتى تتحصل على نصيبها من القسمة . وصارت هذه القوى الاستعمارية ـ التقليدية منها أو الحديثة العهد ـ تبعا لذلك تتنافس على منطقة الخليج العربي وتنكر أن يكون لأنجلترا أي «ظل حق» لتنصيب نفسها حارسا وحكما في المنطقة[١٩] .

وفي الواقع ، فان هذه القوى شأنها شأن انجلترا لم تكن لتتقدم في مواقع نفوذها الجديدة الا بالقدر الذي يسمح به «اعتلال» الامبراطورية العثمانية وتقهقر النظام الفارسي وضعف الامارات العربية . بل ربما اعتمدت دول المنطقة تكتيكا خاطئا يقضي باستثارة الدول العظمى بعضها ضد بعض معتقدة أن في ذلك من الحنكة ما يجعل في صراع القوى المهيمنة مناعة لذاتها ، والحقيقة أن هذه القوى ، ولئن بدت تناقضاتها المصلحية كبيرة ، الا أنها تبقى دوما ثانوية اذ مهما اشتد الخلاف بينها فانها تنتهي الى الاتفاق حول تقسيم التركة «وترتيب البيت» فيما بينها . وتبعا لما تقدم فإن هـذه القوى الاستعمارية كانت تتخذ لها مجالا للنفوذ بقدر الفراغ الذي تتركه دول المنطقة .

ولقد حاول قياصرة روسيا في هذا المجال البحث عن مجال حيوي يمكن الرأسمال المحلي الروسي من التغلغل في أسواق جديدة ، بفعل التطور الاقتصادي الحاصل بروسيا مع أواخر القرن التاسع عشر وخاصة بتنامي دور البرجوازية الرأسمالية الروسية المتحالفة مع الرأسمال العالمي . وقد تدعمت سياسة القياصرة خاصة منذ وصول (Witte) الى وزارة المالية وفتحه المجال واسعا للتعاون مع الرساميل الأجنبية .

ولئن فشلت روسيا في الوصول الى البحار عبر الامبراطورية العثمانية (عبر المضايق ـ عبر العراق) بسبب معارضة الدول الاوربية ، فانها كانت قد فشلت أيضا من قبل في هذا المسعى عندما حاولت اختراق آسيا

الوسطى حيث دخلت في مواجهات عدة مع انجلترا (أفغانستان) وهو ما دفع بالروس الى التركيز أكثر على التوسع عبر بلاد فارس عملا بوصية أمبراطورهم بطرس الأكبر «توغلوا حتى تبلغوا سواحل الخليج (العربي) فتعيدوا الحياة الى الطرق التجارية القديمة مع الشرق الأدنى»(٢٠)

وليس من باب الصدفة أن يتزامن التوجه الروسي نحو الخليج والصدام الروسي العثماني في حروب القرم (٥٣ ـ ١٨٥٦) من جهة والمواجهة الروسية البريطانية في وسط آسيا من جهة أخرى وهو ما يجعلنا نعدّل بعض الآراء التي تقرن بين اهتمام روسيا بالمنطقة وفتح قناة السويس فحسب(٢١) ذلك إن بداية الاهتمام بالحصول على بعض الامتيازات لاقامة خطوط سكك الحديد شمال بلاد فارس(٢٢) لم يمثل في واقع الأمر سوى تمهيد لهذا التسرب الى منطقة الخليج .

وقد تكثف الاهتمام الروسي بصورة مباشرة بالخليج منذ انشاء وكالة روسيا ببغداد سنة ١٨٨١(٢٣) وتتالى زيارات البحرية الروسية لموانىء المنطقة ، ذلك أن زيارة الضابط فنبلومر (Vonblumer) في ربيع ١٨٨٧ لاصفهان وشيراز وبوشهر لم تكن سوى مدخلات لزيارات البعثات الروسية والقطع البحرية للخليج ، بل لقد اقترحت على الفرس اتفاقية منذ ١٨٨٨ ومفادها اتخاذ موقف موحد ضد بريطانيا(٢٤) وفي واقع الأمر فان النظام الايراني عجز عن المحافظة على لعبة الموازنة الخطيرة التي أراد تطبيقها ، فالتفويت في امتياز فتح نهر قارون للملاحة لصالح بريطانيا (١٨٨٨) حتم أيضا التنازل للروس عن اقامة شبكة من خطوط السكة الحديد شمال بلاد فارس بل أن الروس قد تجاوز طموحهم هذه الحدود الى البحث عن قاعدة بحرية لهم لتموين سفنهم بالفحم بل ، ولم لا ، تركيز مركز تجاري للبيع والشراء ونقل البضائع والمعدات .

ومن البين أيضا أن مثل هذا المطمح صار ممكن التحقيق منذ أن تدعم التعاون الاقتصادي الروسي ـ الفرنسي في مستوى الاستثمارات وبرزت هذه الكتلة المعادية للأفضلية الانجليزية بالخليج ، وفي الحقيقة فان التعاون الفرنسي ـ الروسي في الخليج يتجاوز هذه الحدود الجغرافية والظرفية ليصل الى «تناغم» في المصالح أكثر اتساعا وشمولية(٢٥) .

وقد تزايد قلق الانجليز بسبب الوجود الروسي في الخليج مع مطلع العشرين الاخيرة من القرن التاسع

عشر حيث بدأت البواخر العسكرية تجوب بعض السواحل الخليجية اذ زار الطراد الروسي (Nizhny novgocod) عمان سنة ١٨٩٣ وقابل ضباطه الامام فيصل سلطان عمان ، بل ان السفن الروسية كررت الزيارات الى المنطقة مرات عدة[٢٦] . وتوجت هذه «الفتحة» الروسية بزيارة الروس الى جزيرة هرمز عبر بندر عباس وقيام ضابط مهندس بعمليات مسح للجزيرة في ربيع ١٨٩٥[٢٧] وتلميحهم بامكانية اقامة مخزن للفحم بالمنطقة ، وهو ما يمثل تهديدا للمصالح البريطانية نظرا الى أهمية موقع الجزيرة في مدخل الخليج ، بل ان بعض منظرى الدبلوماسية البريطانية اعتبروا أن منح أي امتياز للروس في أي موقع من منطقة الخليج يعني «اهانة عظمى» لبريطانيا لا يمكن السكوت عنها[٢٨] .

٣ . مطامح أوربية أخرى

تزامنت هذه «الفتحة» الروسية وتعهدها فيما بعد[٢٩] وعودة بعض القوى الى الخليج واطلالتها مجددا عليه . فقد عاد الفرنسيون الى الاهتمام بالمنطقة[٣٠] مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر لا سيما منذ منتصف الستينات ، حيث تقدمت شركة فرنسية بطلب للحصول على امتياز حرية الملاحة بأنهار العراق على غرار ما انتفعت به إنجلترا[٣١] كما كان لقناصل فرنسا ببغداد والبصرة دور هام في تثبيت النفوذ الفرنسي ودعمه بالمنطقة لا سيما عبر تشجيع الارساليات العلمية والأثرية بشكل خاص[٣٢] ، كما قدمت مشاريع عدة لتنشيط الميدانين الزراعي والصناعي في اقليم عربستان «وبدأ الوكلاء والتجار الفرنسيون بالاستقرار بالمحمرة»[٣٣] على أن أهم النشاطات بالمنطقة ، كانت تلك التي تقوم بها فرنسا على ساحل مسقط وعمان حيث استغلت الاتفاق الحاصل بينها وبين إنجلترا (٨٦٢) لكي تنشط تجارة الرقيق والاسلحة النارية والذخيرة سامحة لأصحاب السفن من العرب برفع راية العلم الفرنسي فوق بواخرهم للافلات من الرقابة البريطانية .

وما من شك في أن معارضة بريطانيا للوجود الفرنسي ورفضها لأي توسع مستقبلي من أية دولة ، قد دفع البرجوازية الفرنسية الى العمل على تنسيق نشاطاتها بالمنطقة مع حليفتها الروسية من أجل فك الحصار البريطاني المضروب على المنطقة ، فضلا عن ذلك ، فان الدبلوماسية الفرنسية لا سيما منذ وصول هانوتو (Hanotaux) الى الخارجية الفرنسية (مايو ١٨٩٤ ـ يونيو ١٨٩٨) صارت تعادي بوضوح الهيمنة البريطانية المطلقة وتلوح في اطار تناقضاتها معها الى ما أطلق عليه «بالبرنامج الكبير» وهو القاضي بمنازعة إنجلترا امتيازاتها في المناطق العربية

وأفضليتها فيها لا سيما احتلالها مصر[٣٤] وأصبحت التحركات الفرنسية خلال هذه الفترة مطبوعة بهذا التوجه باحثة لها عن موطىء قدم بالمناطق العربية وبداهة بالخليج العربي ، فمنذ ١٨٩٣ وقع التفكير في انشاء مخازن للفحم غير بعيد عن مسقط العاصمة[٣٥] وتدعم هذا المسعى بوصول العديد من السفن الحربية الفرنسية الى مرفأ مسقط واقامة وكالة قنصلية بها مجددا في نوفمبر ١٨٩٤[٣٦] واعطاء الجنسية الفرنسية لسكان منطقة صور ورفع العلم الفرنسي على سفنهم [٣٧] ولم تمنع الخلافات بينها وبين إنجلترا حول هذه المسألة [٣٨] وغيرها من ان تثني عزمها عن ان تبحث لها عن مكان تحت شمس الخليج .

وخلال نفس الفترة تزايد الاهتمام بأمر الخليج وأوضاعه فكثرت زيارات البواخر الأمريكية والايطالية والنمساوية له[٣٩] منذ أواخر الثمانينات وهو مازاد في قلق بريطانيا على امتيازاتها . بيد أن هذا القلق صار الى خشية منذ دخول القوة الألمانية ميدان المنافسة في الخليج وان كان ذلك بصورة متأخرة .

وقد ساهم التقارب الألماني العثماني وتطور العلاقات بين البلدين لا سيما في ميدان الاستثمار (مدّ سكك الحديد)... والجيش ، في فتح باب الخليج أمام البرجوازية الألمانية الناشئة ، فمنذ ١٨٩٤ افتتحت قنصلية ألمانية ببغداد وهي التي ستمثل رأس جسر نحو التسرب الألماني الى الخليج العربي ، لا سيما بانجاز مشاريع تربط آسيا الصغرى بالمنطقة وذلك بمد خطوط سكة تمر عبر الأناضول ، وتمثل سكة اسكدار - بغداد عمودها الفقري ، كما قدمت مشاريع ألمانية أخرى يربط فيها خط حديدي المنطقة بالبحر الابيض المتوسط ، وقد تزامن هذا التسرب من الاجزاء الشمالية الى الخليج وتحركات الأسطول البحري الألماني بالأجزاء الجنوبية ، حيث بدأت زيارات البواخر الى مسقط وأنشئت وكالة بحرية ألمانية بها ، والحال أن عدد الرعايا الألمان لا يتجاوز ستة أنفار[٤٠] . كما عرفت سنة ١٨٩٥

انطلاقة قوية للمصالح التجارية الألمانية ببوشهر إذ قام أحد تجار همبورغ ببعث مركز تجاري له ، على حين فتحت احدى شركات برام (Breme) مصلحة لها لبيع الفحم والأسلحة والسكر والحديد.. واقتناء القمح والشعير والجلود ... [٤١] وقد تدعم هذا الوجود التجاري الألماني بتكثّف زيارات البواخر الألمانية لموانىء بوشهر والبصرة وذلك في اطار اثبات الوجود من جهة وتبيان أحقية التواجد من جهة ثانية .

وتبعا لكل ما تقدم فقد بدت لنا منطقة الخليج مع أواخر القرن التاسع عشر بؤرة للصراع بين القوى المهيمنة ، وهو ما يفرض علينا الوقوف عند الملاحظات الهامة التالية :

* ان القوى الاستعمارية التقليدية منها (إنجلترا ، روسيا ، فرنسا) أو الحديثة العهد (ألمانيا) ... قد وجدت في منطقة الخليج مجالا أخر للتنافس من أجل اقتسام أسواقه أو اعادة اقتسامها . وقد ازداد هذا التنافس حدة بفعل حصول بعض الدول على امتيازات داخل حدود الامبراطوريتين «المريضتين» وقد دعمت هذا المنحى التنافسي رغبة الدول الرأسمالية المتزايدة في الاستثمار بالدول المهيمنة عليها وذلك نتيجة لتطور الرأسمالية العالمية النوعي .

* مثّل أواخر القرن التاسع عشر فترة حاسمة في تاريخ المنطقة واخر التنافس الشديد بين الدول الاستعمارية من أجل مناطق النفوذ والتمركز بها ، عمليات التقسيم وذلك بصورة نسبية ، فما كان يمكن بأي حال أن يعيقها .

* سيزداد نفوذ القوى الأوروبية المهيمنة داخل منطقة الخليج بفعل الامتيازات التي ستحصل عليها من القيادات السياسية المحلية بطريقة أو بأخرى (الترغيب ، الترهيب) وهي امتيازات يتزايد حجمها حسب العجز عن التصدي لهذه القوى .

* لم تكن دول المنطقة بفعل عوامل تاريخية واقتصادية وسياسية ... مالكة لزمام أمورها الداخلية والخارجية ، وهذا ما لم ييسر عملية التصدى والمواجهة ولا يعني ذلك سوى الاقرار بتفاوت موازين القوى واختلالها في صالح الدول الغازية دونما تبرير أو تورية لذلك ، اذ أن الغاية المثلى تكمن في فهم الأحداث وتفسيرها وليس في الاكتفاء بكشفها .

* عمدت هذه القوى الاوربية كذلك الى سدّ فراغات ـ والفراغات كثيرة! ـ خلفتها القوى التقليدية بالمنطقة (الأمبراطورية العثمانية ـ ايران) وهذه الفراغات كانت نتيجة حتمية نظرا للضعف الذي طبع الدولتين لا سيما انهيار أوضاع الباب العالي السياسية والاقتصادية وذلك اثر فشل محاولات الاصلاح .

ب . العثمانيون والقوى المهيمنة في الخليج أواخر القرن التاسع عشر

ان اعتبارات متعددة تجعل الامبراطورية العثمانية تهتم أواخر القرن التاسع عشر بالخليج العربي اهتماما متزايدا . وهو اهتمام يتجاوز الروابط التقليدية المتعارف عليها بين بلد مهيمن وبلد مهيمن عليه ، ولذلك فان لنا في ابراز خصائصها جوانب عميقة :

١ . موقع العثمانيين في الخليج

ترى الدبلوماسية العثمانية أن ما بين الخليج والامبراطورية العثمانية من تجاوب يتعدى العلاقات الظرفية المؤقتة ويتعدى الانبهار بالجو اللطيف الذى يميز المنطقة[٤٢] ليقترن بأهمية المنطقة ديمغرافيا وتجاريا واستراتيجيا ، فضلا عما بين سكان المنطقة والامبراطورية من علاقات خاصة[٤٣] .

فمن الناحية الديمغرافية تعتبر منطقة الخليج خالية أو تكاد من السكان مقارنة ببقية مناطق الامبراطورية التي كانت تعرف مع أواخر القرن التاسع عشر ضغطا ديمغرافيا سيما في الأجزاء الاوربية[٤٤] واهتمام الدبلوماسية العثمانية بمنطقة الخليج من هذه الزاوية له أكثر من دافع : فهل وقع التفكير في عمليات تهجير جماعية الى هذه المنطقة أم في توطين السكان بهذه البقاع؟ . مهما كان الامر فان المنطقة كانت تغري ، لا سيما وأن نسبة الكثافة السكانية بها لا تتجاوز في أحسن الأحوال ١٣ ساكنا بالميل المربع[٤٥] ويبدو أن الدبلوماسية العثمانية كانت تسعى الى استغلال هذا الفراغ السكاني[٤٦] لا سيما أن برامج قسرية كانت أقيمت في عهد بعض ولاة البصرة أواخر القرن التاسع عشر غايتها توطين القبائل عنوة وهو ما يسمح بحصر السكان واخلاء بعض الفضاءات الفلاحية وتعمير بعضها لجلب أعداد جديدة من القبائل القابلة للاستقرار وفلح الأرض .

فضلا عن ذلك ، فان اهتمام العثمانيين بالمنطقة ، يرتبط بأهميتها الاقتصادية ولا سيما بأهميتها التجارية[٤٧] فهي القلب النابض في التجارة بين آسيا وافريقيا وذلك لأنها من أهم مراكز المبادلات لكونها موطن التقاء القوافل والتقاء البواخر القادمة من القارتين والذاهبة اليهما . ويوليها الباب العالي أهمية خاصة لأنها تمكنه من الاشراف على هذه التجارة والاستفادة منها . ويتعاظم هذا الدور لدى الدبلوماسية العثمانية بالنظر الى الموقع الاستراتيجي للخليج كخط رابط بين العراق من جهة ومصر من جهة

أخرى[٤٨] فهل هو الحنين الى خط تقليدي كان يربط منطقتي نفوذ عثمانيتين قبل احتلال مصر ؟ . لا نعتقد ذلك . ان فتح قناة السويس قد جعل من الخليج العربي محطة ضرورية بل ورئيسية في المبادلات العالمية وهو ما استفاد منه جزئيا العثمانيون بعيد ١٨٦٩[٤٩] .

وبداهة يهتم الباب العالي بالخليج وقضاياه لوجود جزء منه تحت الهيمنة العثمانية اذ يسيطر من خلال ولاية البصرة التي بعثت مجددا سنة ١٨٨٤[٥٠] على قرابة ١٣٠ ألف كلم مربع[٥١] بل ربما أكثر من ذلك[٥٢] مقسمة الى ٤ سناجق وهي سنجق البصرة (٢٠,٠٠٠) كلم مربع وسنجق المنتفك (٢٠,٠٠٠) كلم مربع والعمارة (٤٠,٠٠٠) كلم مربع وسنجق الاحساء أو نجد (٥٠,٠٠٠) كلم مربع ، وهذا السنجق يمتد جنوبا على الساحل الغربي من الخليج لكي يضم مناطق نجد وقطر والقطيف حيث يتاخم في الجنوب ما اصطلح على تسميته في الأدبيات والمراسلات الرسمية البريطانية ساحل القراصنة أو فيما بعد بداية القرن التاسع عشر بالساحل المهادن[٥٣] . ويتم تسيير المنطقة اداريا من قبل وال مقرّه البصرة ، وهو في نفس الوقت المسئول على سنجقها ويستعين بثلاثة متصرفين يرأس كل واحد منهم سنجقا . وأحد عشر (قائمقاما) يشرفون على الأقضية (ج . قضاء) ومديرين يشرفون على النواحي (ج . ناحية[٥٤]) ويعود كل هذا الاطار الاداري بالنظر ـ اسميا على الأقل ـ الى الوالي باستثناء منطقة الكويت التي يتمتع المشرفون عليها (آل صباح) بشبه استقلالية نسبية ... وفي اطار مزيد من الضغط على المتساكنين استحدثت منذ ١٨٩٣ وظيفة جديدة وهي وظيفة «التحصلداريون» أو «المحصلون» ومهمة المكلف بها الاشراف على «المختارين» ومراقبة صحة وورود الاتاوات واتخاذ الاجراءات القانونية لجباية الضرائب المتأخرة ... الخ[٥٥] .

ويعتقد العثمانيون أن دورهم في المنطقة وتأثيرهم فيها يتجاوز الـ ٩٣٥,٠٠٠ ساكن عربي[٥٦] المنظومين تحت نفوذها لكي يشمل بقية متساكني المنطقة من المسلمين[٥٧] وهو خلط مقصود بين الاسلام من جهة والمسلمين من جهة أخرى عمدت اليه الدبلوماسية العثمانية لتبرير هيمنتها على مناطق عربية باسم الدين ، كما أنها محاولة لتوسيع جبهة التصدى للاستعمار الاوربي المتكالب أنذاك على المنطقة الخليجية ومحاولة حشد أقصى ما يمكن حشده من متساكني المنطقة ضد المشاريع التوسعية لا سيما منها الانجليزية .

وفي واقع الأمر ، فان الباب العالي وخصوصا في عهد عبدالحميد خان الثاني ، صار يلوح بهذا الشعار ليس فحسب تصديا للقوى الاجنبية ، وانما للقضاء على أي نفس قومي يطالب بالانفصال عن الامبراطورية من أجل ضمان استقلاله الذاتي ، لقد استعمل هذا الشعار في أتعس فترات القمع الحميدي ضد أي نفس اصلاحي أو مشروع ليبرالي متنور داخل الامبراطورية فصارت «الجامعة الاسلامية» «قميص عثمان» لتبرير عمليات القمع والهيمنة الحميدية .

ان القول بأن الدول الاوربية ـ وخاصة إنجلترا ـ تخشى تزايد نفوذ الخلافة الاسلامية وتأثيرها في المسلمين مستقبلا[٥٨] بدليل «ما أثارته الانتصارات العثمانية ضد اليونان[٥٩] من هيجان لدى المسلمين في بلوشستان وهندستان»[٦٠] ... ان مثل هذا القول فيه الكثير من المغالاة ، بل ربما يحمل الكثير من المغالطة كذلك ، ذلك أن الاحداث الواقعة في الهند وبلوشستان لها أسبابها الخاصة بها [٦١] ولا يمكن بأي حال أن تعزى الى انتصارات الباب العالي الظرفية المحدودة في معاركه مع اليونان بجزيرة كريت . كما أن الدعوة الى الجامعة الاسلامية أو الى عصبة المسلمين ، لم تمنع ـ ولن تمنع البتة ـ الدول الاوربية من تقسيم «تركة الرجل المريض» . فضلا عن ذلك فان هذه الدعوة لم تمثل لا في المستقبل القريب ولا المستقبل البعيد خطرا على الدول الامبريالية التي كانت في نفس الوقت الذي تعمل فيه على تدعيم مصالحها بالمنطقة ، تنفخ في تنور الدعوة الى القوميات واذكاء النفس القومي الساعي الى الانسلاخ عن الباب العالي .

وفي الحقيقة فان الايديولوجية العثمانية الرسمية قد وظفت لأغراض خاصة بعض تعاليم جمال الدين الأفغاني ومناداته بوحدة الشعوب الاسلامية ، فدعت لاقامة دولة اسلامية يحكمها عبدالحميد الثاني نفسه بوصفه أميرا للمؤمنين ، وفي هذا المجال فان الدول الاستعمارية لم تقلقها مثل هذه الدعوات بل ان إنجلترا كانت تعتقد أنه من الطبيعي جدا أن يحاول السلطان العثماني أن يجعل من نفسه خليفة للمسلمين وأن ينظر اليه المسلمون كخليفة لهم[٦٢] . وتبعا لما تقدم الا يمكن أن نبرر سلوك الأرمن في تلك الفترة ـ وسلوك غيرهم من القوميات ـ التي لا تدين بالاسلام ؟ وهل يمكن أن نتفهم المذابح التي أقيمت ضدهم خلال ١٨٩٤ ـ ١٨٩٦ ؟ بل كيف لنا أن نمنطق سلوك الباب العالي المزدوج تجاه جمال الدين الأفغاني نفسه ، فبعد الحاح عبدالحميد عليه للقدوم الى اسطنبول وذلك تكريما له (!!) منع حتى من حريته الشخصية ورفضت

طلباته المتعددة لمغادرة الاستانة حتى وفاته .

٢ . القوى المهيمنة في ميزان الدبلوماسية العثمانية

تركزت تقييمات الدبلوماسية العثمانية عند الحديث عن الأوضاع بالخليج على حقيقة تبدو لها بديهية ، ومفادها أن سكان المنطقة - كل السكان - يحبون الباد شاه (السلطان العثماني) ويلهجون له بالدعاء»[٦٣] اذ كانت سياسته» حكيمة تجاه كل المسلمين الا أن وجود دولتين متنافستين تنازعان الامبراطورية سلطتها على المنطقة هو السبب في تأزم الأوضاع .

أ . الأطماع الأنجليزية :

حسب المصدر الدبلوماسي الذي نعتمده ، اتضحت مطامع انجلترا الاستعمارية منذ أواخر ستينات القرن التاسع عشر أي منذ ١٨٦٩ يوم أحدث مقر للوكالة السياسية ببغداد يدار من الهند وقد بدا تأثيرها يمتد الى منطقتي عربستان والبصرة وما حواليهما[٦٤] وقد ازدادت هذه المطامع رسوخا منذ «سقوط» مصر بأيدي بريطانيا[٦٥] اذ كان المطمح الاستيلاء على البحر الأحمر من جهة وخليج البصرة من جهة ثانية .

وتعتقد الدبلوماسية العثمانية - عن صواب - أن هذه المطامع الانجليزية تتجاوز هاتين المنطقتين لكي تشمل مناطق أخرى أكثر أهمية واتساعا ، فلا تصبح منطقة الخليج سوى معبر هام ضمن مشروع ضخم لمد سكة حديد تربط مصر بالحجاز في اتجاه البصرة ومنها الى ايران وبلوشستان فبلاد الهند[٦٦] .

وفي الحقيقة ، فقد راود مثل هذا المشروع الأوساط المالية والسياسية البريطانية حيث عبر عنه الكولونيل ميد (Meade) المقيم السياسي البريطاني بالخليج حينما دافع عن موقع الكويت متخوفا من سقوطها بين أيدي قوى أجنبية أخرى غير الأيدي البريطانية وقد اقترح أنذاك أن تكون الكويت نهاية مرحلة أولى لسكة تبدأ من بورسعيد[٦٧] ، فهل كان المقترح مجرد مناورة إنجليزية لمقاومة المشروع الألماني - الروسي ؟ ترى الدبلوماسية العثمانية عكس ذلك مؤكدة أن الموضوع كان محل بحث مرات عدة بلندن ، كما أن الأمر يبدو لأنجلترا من السهولة بحيث يكون أقرب للتحقيق[٦٨] .

ويتدعم ذلك التوجه تجاه إنجلترا بالنظر الى الحملات التي كانت تقام بلندن ضد الحضور العثماني بالخليج لا سيما من قبل مستشار الخارجية البريطانية كرزون الذي كان يوصي بلاده بأن تقف حاجزا أمام التوسعات العثمانية في اتجاه دولة الامارات

وخاصة في اتجاه سلطنة مسقط وعمان(٦٩) .

وفي واقع الأمر ، فان الدبلوماسية العثمانية كانت غير مطمئنة الى تعاظم دور بريطانيا في الخليج بل وفي شتى البقاع التابعة للامبراطورية وتدخلاتها المسترابة لا سيما منذ احتلال قبرص (١٨٧٨) ، بل ان الباب العالي كان محقا في تقديراته القاضية بأن الاستراتيجية الانجليزية كانت تذهب أواخر القرن التاسع عشر في اتجاه الاطاحة بالامبراطورية العثمانية(٧٠) وتفكيكها وذلك للإعتبارات التالية :

* ان الدولة العثمانية أصبحت من الضعف بحيث لا تقدر على الدفاع عن حدودها وهي بالذات لا تستطيع أن تمنع توسعا روسيا مرتقبا(٧١) .

* ان الباب العالي أصبح فاقدا لجيش قوي وأسطول بحري قادر على التصدي للتقدم الروسي في البحر الأسود في اتجاه المضائق(٧٢) ولعلنا لا نجانب الصواب حين نبين أن عدم احتلال الروس لاسطنبول يعود في بعض المرات الى تدخل القوى الاوربية الحاسم .

* المساندة المطلقة التي تجدها بريطانيا من الرأي العام الاوربي في محاربة القرصنة!! وتجارة الرقيق(٧٣) لا سيما بمنطقة الخليج وهي دعوى باطلة عملت الدعاية البريطانية على ترويجها . فضلا عن قلة المؤسسات القرنصية منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وتقلص نشاطاتها بالمنطقة فان بريطانيا قد نصبت نفسها وصية وحدها على محاربة الظاهرتين والحال أن الباب العالي ذاته قد طالب مرارا بالمشاركة في ذلك دون أن يسمح له به .

* المساندة البريطانية المطلقة للقوميات الموجودة تحت النفوذ العثماني ودعمها المستمر لانتفاضاتها ، واثارة النعرات ضد الباب العالي لأنه حسب زعم الدبلوماسية الانجليزية «يمحو حرية الشعوب والأقوام»(٧٤) ، والحال أن إنجلترا كانت في نفس الوقت تقتحم أسواقا وتحتل دولا وشعوبا وتسعى لمزيد من السيطرة والنفوذ في شتى بقاع العالم .

* قيام بريطانيا بحملة دعائية واسعة في أوساط المثقفين والرأي العام عموما ، «لكسر ناموس الدولة العثمانية»(٧٥) بدعوى «توحش الممالك

العثمانية» وضرورة «نشر المدنية بها[٧٦] فعاصمتهم اسطنبول في خراب وفي غير نظام»[٧٧] والأتراك ليس لهم أي نصيب من التمدن[٧٨] .

وما من شك في أن المد الاستعماري كان يحتاج الى وسيلة دعائية لتبرير تسلطه على الشعوب واحتلاله أجزاء كبيرة من العالم . ولئن كانت اسطنبول تعاني فعلا أواخر القرن التاسع عشر حالة اضطراب وفوضى نتيجة للارهاب السياسي الحميدي وايقاف العمل بالدستور وقمع الخصوم السياسيين وتدخل الدول الاوربية المباشر في مالية الباب العالي وهمينتها المطلقة على جلب الدواليب الاقتصادية العثمانية (ادارة الدين العثماني ، وكالة التبغ) ... لئن كان هذا هو حال الامبراطورية فان ذلك لا يعطي أي تبرير لأي تدخل أجنبي لاحتلال بعض المناطق والتوسع في مناطق أخرى كما أنه لا يمثل بأي حال تعلة لاضفاء شرعية للتسلط على شعوب بدعوى «تحضيرها» و«تمدينها» .

وعلى ضوء هذه المواقف والاعتبارات يتبين لنا أن الدبلوماسية العثمانية لم تكن غافلة عن النوايا البريطانية الحقيقية ، بل انها كانت تعتقد - عن صواب - أن تدخلات إنجلترا في شتى أطراف الامبراطورية ، ومن ضمنها منطقة الخليج ، لا يعني في واقع الأمر سوى السعي للاجهاز على «الرجل المريض» حين تواتي الفرصة . ومثل هذه النتيجة تحتم تبعا لذلك اتخاذ تدابير حازمة للتصدى لهذه الاطماع والحيلولة دون تحقيقها خصوصا أن الدفاع عن الامبراطورية يمر بداهة عبر الدفاع عن أطرافها .

ب ـ الأطماع الروسية

ان عداء الباب العالي لإنجلترا لا يعادله سوى عدائه لروسيا القيصرية التي كانت هي الأخرى تسعى للهيمنة على أجزاء هامة من الامبراطورية . ولئن بدت مساعي إنجلترا غير شفافة ومقنعة ، فان مطامح روسيا ومطامعها لم تكن خافية عن الرأي العام العثماني والعالمي ، وحروب روسيا مع الباب العالي وتدخلاتها في المناطق التابعة للأمبراطورية معروفة وغير خفية وهدفها لم يتمثل الا في الحصول على أكبر حصة من «التركة» في اطار منافسة دولية حادة من أجل هذه القسمة : وتعتمد الدبلوماسية العثمانية للاقرار بهذه الحقيقة على المعطيات التالية :

* ان احتلال اسطنبول ومراقبة المضائق كان مطمح الروس منذ زمن بعيد[٧٩] وتاريخ الصراع بين الامبراطوريتين في هذا المجال طويل .

* ان روسيا لعليمة بضعف الجيوش العثمانية وتحطم أسطولها البحري فلن يستطيع الباب العالي تبعا لذلك الدفاع عن سواحله لا سيما سواحل البحر الأسود[٨٠] أو عن أية منطقة حدودية أخرى .

* ان العداء الذي طبع العلاقات بين روسيا وإنجلترا قد انتهى منذ إستيلاء إنجلترا على مصر[٨١] ومنذ وقع السعي فعليا الى اتحاد الكنائس بغاية استعادة أيا صوفيا (القسطنطينية) معبدا للنصارى[٨٢] .

ويبدو لنا أن في مثل هذا القول مغالاة ، ذلك أن تنافسا حادا كان يوجد بين القوتين الإنجليزية والروسية ويطبع العلاقات بينهما . بل أن الصدام كان قائما بينهما في مناطق شتى من العالم ، لا سيما بأجزاء من أوربا الوسطى (مشكلة الأقليات القومية ، صربيا) وخاصة بالمناطق الوسطى من روسيا حيث كانت الحروب بينهما سجالا حتى اتفاقية بلمير (١٨٩٥) بل ان تنافرا في المصالح كان يطبع علاقتهما بمنطقة الخليج خاصة . بيد أن محاولة كل من القوتين التوسع على حساب الامبراطورية وسعيهما الى الهيمنة على أطرافها قد جعل الدبلوماسية العثمانية تعتقد أن اتفاقا مسبقا حصل ويحصل بينهما من أجل الاجهاز على السلطنة .

* ان روسيا تسعى لاثارة مسألة القوميات الموجودة تحت نفوذ الباب العالي ، وتراهن على اثارة النزعات القومية لدى الأقليات العرقية ، وآخر ما قامت به حثها الأرمن على الانتفاضة[٨٣] ، اذ هي المتسببة في تأليبهم ضد السلطنة العثمانية[٨٤] وهو ما يساهم في نظر الدبلوماسية العثمانية، بطريقة أو بأخرى في التعجيل بتفكيك قوام الامبراطورية . وقد مثلت هذه المسألة (مسألة القوميات) رأس حربة اعتمدتها روسيا اذ جعلت من نفسها «حامية» هذه الأقليات داعية منذ مطلع القرن التاسع عشر الى «تحرير الأرمن» من عبودية الأتراك والفرس[٨٥] حاثة اياهم طيلة ١٨٩٤ ـ ١٨٩٦ ، رغم القمع الحميدى على مواصلة الانتفاضة ومنبهة الضمير العالمي الى الاوضاع السيئة التي يعيشونها والحال أن القوميات التي كانت ترزح تحت نظام القياصرة لم تكن بأحسن حال .

وتخصيصا على منطقة الخليج ، فان الدبلوماسية العثمانية كانت متنبهة الى النوازع التي تشد روسيا الى هذه المنطقة اذ هي «تريد عبر عجمستان (ايران) أو العراق أن تنفذ الى المحيط الهندي»[٨٦] ، أي اعتماد ما اصطلح على تسميته عالميا بتكتيك الوصول الى المياه الدافئة ، وهو ما كان يمثل في نفس الوقت خطرا على المصالح الحيوية للقوى المهيمنة في العالم وبالخصوص على إنجلترا ، وتبعا لذلك فان الباب العالي يعوّل على معارضة هذه الدول لهذا المشروع ، اذ أن خروج «الدب الروسي» الى البحار الدافئة واستيلائه على مناطق شرق آسيا العثمانية سيقلق أساسا إنجلترا ومصالحها بحوض الخليج العربي[٨٧] ويضع أفضليتها في المنطقة موضع الشك .

ومن البيّن أن الباب العالي ولئن كان عارفا بطموحات قيصر روسيا ، الا أنه كان يعتمد على التنافس الدولي الحاد لابعاده عن المنطقة وافشال مشاريعه بها . بل انه تكشف حتى على مستقبل الأوراق السياسية في فسيفساء الرقعة الدولية وتنبأ بأن إنجلترا في سعيها لابعاد الروس عن الخليج وازالة تأثيرهم ، ستستعد مجددا لاثارة القلاقل داخل روسيا الوسطى عبر الهند وأفغانستان حتى تجبر روسيا على تقسيم قواتها على كامل حدودها الجنوبية وهذا ما يساهم في تشتتها وهو ما يسمح بالتالي بسد الطرق والمنافذ أمام خروج روسيا الى الخليج[٨٨] فهل يعد هذا من قبيل التقييم الصائب والدهاء المحنك ؟! أم هو حيلة من لا قوة له ؟!.

مهما كان الأمر فان الدبلوماسية العثمانية تقر بأن الأمر خطير في منطقة الخليج ، وأن من واجب الباب العالي اثبات وجوده بالمنطقة وحاكميّته عليها ، ولا يتم له ذلك الا بضبط خطة مواجهة للأطماع الأجنبية بالمنطقة . وتبعا لما تقدم ، وعملا بمبدأ الاقصاء ، يتبين لنا أن الدبلوماسية العثمانية قد أقرت جملة من الثوابت ، فاذا بالخطر الأكبر الداهم على الخليج العربي أواخر القرن التاسع عشر لا يتأتى من روسيا القيصرية (معارضة إنجلترا لخروجها عبر الخليج للمياه الدافئة) ولا يتأتى من فرنسا (تطور برامج استثمار فرنسية بالأمبراطورية[٨٩] ، خط هانوتو) كما لا يتأتى حتما من ألمانيا (فترة صداقة وتعاون !!) وانما الخطر ، كل الخطر يتأتى من إنجلترا التي بدأت تزحف تدريجيا نحو المواقع التي سلبت سكانها حريّة التحرك في الخليج ، فكيف ستكون المواجهة ؟ وكيف سيتم التصدي ؟.

٣ ـ خطة المواجهة العثمانية

يرد البعض اهتمام الدولة العثمانية المجدد بمنطقة الخليج الى

فترة انسحاب القوات المصرية من شبه الجزيرة العربية ـ ١٨٤٠ ـ [٩٠] اذ تبين للعثمانيين خطر اهمال هذه المنطقة البعيدة عن مركز الخلافة والحال أنها منطقة ذات موقع استراتيجي هام . فصارت عرضة لطموحات البعض (محمد علي) وضغوطات البعض الآخر (إنجلترا) ويبدو أن هذا الاهتمام قد كان محدودا في الزمان والمكان ولم يتجاوز الطور الانفعالي الا بقليل ، ذلك أن بريطانيا قد تقدمت أكثر في اتجاه ربط علاقات وطيدة جدا مع شيوخ المنطقة وسكانها واحكام قبضتها على الساحل الغربي للخليج بتوقيع اتفاقيات تضمن لها حرية التجارة ومقاومة القرصنة البحرية «المعيقة» لنمو تجارتها .

ويرى البعض الآخر أن اهتمام الامبراطورية بالخليج لم يتخذ شكلا أكثر جدية سوى سنة ١٨٧٠[٩١] اثر فتح قناة السويس اذ أصبحت المنطقة بفعل ذلك محطة هامة في التجارة العالمية ، فضلا عن نمو التجارة بها ، كما كان للتطورات السياسية الحاصلة داخل الامبراطورية (الاصلاحات ، نمو الشعور القومي لدى الأقليات بأوربا) وخارجها (تطور المنافسة العالمية ، موت فيصل بن تركي سلطان مسقط ومشكلة الاستخلاف) . المرحلة الثانية اعادة سلطتهم على بعض المناطق من الخليج . وكان منطلق ذلك تعيين مدحت باشا واليا على العراق (٦٩ ـ ١٨٧٢) ثم انشاء ولاية جديدة هي ولاية البصرة لأول مرة (١٨٧٥) وذلك باقتطاع أقاليم من ولاية بغداد وضم اقليم الحسا اليها وتعيين حاكم عربي المولد والقبيلة عليها (الناصر باشا) [٩٢] ، الا أن تمرد القبائل ضد السلطة المركزية في صائفة ١٨٧٧ ، وانتفاضات بغداد شتاء ٧٧ ـ ١٨٧٨ ، والصراعات القبلية ٧٨ ـ ١٨٧٩ وحذف ولاية البصرة ـ ١٨٧٩ ـ والصراع السياسي المفتوح بين الموظفين الأتراك على مراكز النفوذ[٩٣] ورفض التبعية العثمانية من قبل بعض المناطق كل هذه العوامل وغيرها جعلت العلاقات بين الباب العالي والخليج تعود الى الفتور مجددا بل تعرف شللا وهو ما مثّل مدخلا لبريطانيا لتدعيم مواقعها أكثر فأكثر .

ويقر جانب كبير من المؤرخين بأن مرحلة ثالثة في علاقة الباب العالي بالخليج انطلقت اثر احتلال مصر (١٨٨٢) اذ تبيّن للباب العالي طمع الانجليز في السيطرة على أجزاء من الخليج العربي فكانت هذه المرحلة الدفاعية تحسبا لتوسع مرتقب . وقد انطلقت هذه المرحلة داخليا ببداية اقامة بعض التحصينات الدفاعية وبناء بعض الاستحكامات العسكرية (انطلاق أشغال بناء قلعة الفاو ١٨٨٣) والسيطرة على بعض الجزر في

شط العرب ، مرورا باعادة بعث ولاية البصرة ، وتتويجا بعودة المبادرات العثمانية الى التنسيق مع شيوخ المناطق والامارات . أما من الناحية الخارجية فقد عمدت الدبلوماسية العثمانية في هذه الفترة الى ربط الصلة مجددا بالمناطق التي فترت علاقاتها بها وفي هذا الاطار جاء مثلا دعمها لآل الرشيد ، وتشجيعها اياهم منذ ثمانينات القرن التاسع عشر على الاطاحة بأسرة آل سعود الحاكمة بالحجاز اذ يعتبر العثمانيون أن لها ارتباطات ببريطانيا . فصار الباب العالي تبعا لذلك يعمل على تحصين نفسه باقامة بعض الأسر الأكثر ولاء له ، أو بالأحرى الأكثر وضوحا في عدائها للإنجليز .

ويمكن أن نعتبر فترة تسعينات القرن التاسع عشر تواصلا لهذه المرحلة الدفاعية السابقة الا أن الاحداث قد تسارعت فيها بدرجة لم يعد الباب العالي قادرا على مواكبتها ومجاراتها . فرغم التلويح بأحقية السلطان العثماني في ضم دولة البحرين ، انكفأت في الواقع الامبراطورية الى مواقعها الترابية للدفاع عنها واتمام بعض الاستحكامات بها (اتمام حصن الفاو ١٨٩٤) أو للمطالبة بها (كثرت خلال هذه الفترة المشاكل الحدودية مع ايران : المحمّرة ، شط العرب... وهي المشاكل المرتبطة حقيقة بفتح نهر قارون للملاحة البريطانية) أو لمزيد من ابتزاز شعوبها وخيراتها (منذ ١٨٩٣ ايجاد وظيفة جديدة «تحصلداريون» - لاحكام جمع الاتاوات والضرائب) على حين تنامي الشعور القومي لدى العرب برفض الهيمنة العثمانية اذ تكاثرت الانتفاضات المناوئة للأتراك (قبيلة أبو محمد[٩٤] والرافضة لسيطرتهم (انتفاضة قطر ١٨٩٣) والمتبرمة من وجودهم (حلب ١٨٩٥) وهذا ما شجع أكثر الانجليز على التمادى في نهجهم ومواصلة سياستهم التوسعية فكبلوا الجماهير العربية بمزيد من الاتفاقيات (اتفاقية مع مسقط ١٨٩١ ، اتفاقيات مع شيوخ الساحل المهادن ١٨٩٢) بل سعوا الى مزيد من التوسع في المناطق التابعة اسميا الى الباب العالى (سعى الى ضم قطر ، بداية اتصالات مع شيخ الكويت ١٨٩٥) .

ومن الأكيد ، أن الباب العالي الذي كان يعيش مشاكل مالية واقتصادية واجتماعية وسياسية لم يكن يعير أطراف الامبراطورية اهتماما خاصا الا عند حدوث اهتزازات كبرى ولذلك انعدمت الخطط المبرمجة المنظمة كما لم تقدر السلطنة على ضبط توجه حقيقي فعال وناجز للتصدى للأطماع الاستعمارية وهو ما شجع القوى الاوربية خاصة منها إنجلترا على مواصلة سعيها الى اكتساح مواقع جديدة على حساب الباب العالي وعلى

حساب متساكني المنطقة العربية. فكان هذا التوسع الاقتصادي والسياسي البريطاني بالأساس مدخلاً لربط تاريخ المنطقة، ولأمد طويل، بتاج المملكة.

فضلا عن ذلك فان العثمانيين لم يستطيعوا اشراك سكان المناطق الخاضعة لنفوذهم في عملية المواجهة وربما هم لم يرغبوا في ذلك، فسهل على القوى الاستعمارية الانفراد بالأتراك فكالوا لهم الهزائم السياسية والعسكرية. ومما زاد الأمر سوءا أن بعض المشاريع الاصلاحية التي بدأ السعي الى تطبيقها بالخليج لم تكن في واقع الامر سوى خطط فردية المبادرة والانجاز يرتبط وجودها باسم بعض الولاة أو الاشخاص، فما أن يغيبوا أو يغيبوا حتى ينهار الصرح المنشود.

زيادة عن كل ما تقدم، فان هذه البرامج الاصلاحية والخطط التي أريد لها أن تكون عنوانا للمواجهة كانت بالضرورة محدودة الفعالية اذ هي لم تندرج في اطار مواجهة عامة للقوى الاستعمارية، فقد كان من العبث العمل على فتح السوق العثمانية للرساميل من جهة، وترك أمور خزانة الامبراطورية وماليتها وديونها في أيدي القوى الأجنبية من جهة، والدعوة الى التصدي للأطماع البريطانية في الخليج، والمطامح الروسية في أرمينيا ووسط أوربا، ورغبات فرنسا في احتلال بلاد الشام ونزوع ايطاليا الى التوسع في ليبيا... من جهة أخرى.

ان القول بأن أخطارا كانت تحدق بالامبراطورية ومتساكنيها يعني بالضرورة ضبط خطة شاملة كاملة، وهذا ما لم يتوفر، وبقيت الخطط - ان وجدت - محلية التوجه، فردية المبادرة، آنية النتائج، محدودة المفعول. ومن البين أيضا أن بعض الخطط التي اقترحت(٩٥) لم تكن كافية بالمرة. بل ان الدبلوماسية العثمانية بلندن ذاتها تقر بمحدوديتها فهي لا تتماشى وعظمة الامبراطورية رغم حسن النية والحماسة(٩٦) ويعني ذلك بداهة الاقرار بفشل التجارب السابقة والشك في فعالية المشاريع المستقبلية ما لم تتزامن مع الأخذ بأساليب التقدم واكتساب القوة الكافية والضرورية. ولا تتأتى هذه القوة الا بتعلّم فنون الدفاع الجديدة وحذقها وامتلاك التجهيزات العسكرية الحديثة على غرار ما يوجد في أوربا(٩٧) واعتماد التطور التقني والعلمي المعمول به بهذه البلدان(٩٨). ومثل هذا القول يؤكد أن بعض المتنورين كانوا موجودين داخل الهياكل المسيرة للإمبراطورية وأنهم مافتئوا يدعون الى ضرورة تجاوز العقم الذي طبع أوضاع الباب العالي وتحركاته.

ولا غرو في أن نقرّ بأن منصب

الدبلوماسية العثمانية بلندن كان يفسح مجالا واسعا للاطلاع على واقع الدول الاوربية المتقدمة وخلق مجال للمقارنة والتشوّف . وتبعا لذلك يعتبر منصب لندن من أدق المناصب وأخطرها لا لاشرافه على المسائل الدولية فحسب ، وانما لأنه يمكن من القيام بدور فعال في توجيه السياسة الخارجية والداخلية للأمبراطورية(٩٩) ومن الطبيعي أن يكون المشرف على هذا المنصب ملما الماما كبيرا بالاوضاع الدولية وتطورها من جهة وعارفا بخبايا الأوضاع الداخلية من جهة أخرى وهذا ما يعطي لمواقفه ، ومقترحاته مصداقية تتفاعل فيها المعطيات الداخلية مع الأحداث العالمية ومتغيراتها ، وتتدرج هذه الخطة حسب رأينا في هذا الاطار . ولئن بدت الخطة متكاملة ، ترتبط عناصرها بعضها بالبعض الآخر ، الآ اننا لأسباب منهجية قسمناها الى محاور متعددة يستقيم كل واحد منها عنصرا تاما .

١ ـ العمل على تطوير التجارة

يعتبر الخليج العربي محورا هاما للتجارة العالمية بالشرق الأسيوي ، وقد تعاظمت هذه الأهمية منذ فتح قناة السويس ، حيث صارت البواخر المحملة بالبضائع تقدم على الموانىء لتفرغ حمولتها من البضائع وتبتاع ما ترغب في اقتنائه ، ويكفي الاطلاع على مختلف كتب الرحّالة والتجار ومراسلات القناصل ، حتى نكتشف أهمية التجارة بهذه المنطقة ودورها في تنشيط بقية القطاعات الاقتصادية . ولسنا نجازف ان صرحنا بأن القطاع التجاري أصبح يتحكّم في بعض القطاعات في أواخر القرن التاسع عشر(١٠٠) .

على إننا لا بد ان نثبت منذ البداية ، أن التجارة الانجليزية كانت تحتكر كليا أو تكاد نشاط الخليج العربي ، وأبعد التجّار العرب والأتراك عن هذا القطاع تدريجيا ، ففي الأقطار العربية غير الخاضعة للعثمانيين ، سيطر الأنجليز تقريبا على النشاط التجاري تاركين للتجار والملاحين العرب بعض الفتات ، وقد مثلت هذه السيطرة البريطانية تتويجا لمسار كان البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون وغيرهم ضحيته . فلم ترس بميناء مسقط من السفن العربية سنة ١٨٩٣ سوى ٢٦٨ سفينة والحال أن عددها كان قبل خمس عشرة سنة (١٨٧٧) يربو على ٧٩٠ سفينة (١٠١) ويعني ذلك أن التجار العرب بدأوا يفقدون تدريجيا ما حذقوه وتفننوا فيه على مدى قرون عدّة . واستعاضت الشركات والمؤسسات التجارية في نقل بضائعها عن السفن العربية بالبواخر

البريطانية التي كانت أكثر صلابة (صارت حديدية) وأكبر حمولة . ففقدت الدول العربية بذلك قدرتها على المنافسة والوقوف أمام كفاءة أساطيل الدول الاوربية ، فاذا بالأسطول البحري العماني يفقد ٣/٤ قطعه فيما بين ٧٥ ـ ١٨٩٥ (١٠٢) ويعود ذلك أساسا الى بداية اعتماد الانجليز على السفن البخارية منذ مطلع ستينات القرن التاسع عشر واتخاذ بعض المراكز العربية (البحرين) محطة بريطانية لتجميع البضاعة واعادة تصديرها من جديد بكامل مناطق الخليج(١٠٣) .

أما بالمناطق التي كانت تحت النفوذ العثماني ، فان الأوضاع التجاية لم تكن بأحسن حال : فقد هيمنت بميناء البصرة مثلا ثلاث شركات بريطانية(١٠٤) على الجانب الأكبر من التجارة حتى مطلع تسعينات القرن واستحوذت أربع مؤسسات أجنبية أخرى(١٠٥) على قسط أخر من هذه التجارة على حين لم ينتفع ٤ تجار عرب الا بالفتات اذ كانت تجارتهم تقوم حسب العادة لا غير .

بالاضافة الى ذلك فان الحركة التجارية ذاتها أصبحت تضمنها بالميناء السفن والبواخر الأجنبية :

حركة السفن الشراعية بميناء البصرة ـ ١٨٩١ ـ (١٠٦)

	عددها	نسبتها	وزن حمولتها (طن)	نسبته
السفن الانجليزية	١٢١	٪١٣,٩	١١٨٨٥	٪٢٥,٩٠
سفن فارسية	٣٨٥	٪٤٤,٣	١٩٤٥٠	٪٤٢,٣٩
سفن عثمانية	٣٦٣	٪٤١,٧٧	١٤٥٤١	٪٣١,٦٩
الجملــة	٨٦٩		٤٥٨٧٦	

ان السفن الشراعية الأجنبية مثلت قرابة ٣/٥ السفن النشيطة بالميناء (٥٨,٢٢٪) فضلا عن أنها تكفلت بحمل أكثر من ٢/٣ حجم المبادلات مع العالم الخارجي (٦٨,٣٠٪) .

ويزداد البون اتساعا حين نتبين الحركة التي تقام بالبواخر اذ لم ترتد ميناء البصرة خلال نفس السنة سوى باخرة عثمانية واحدة حملت ١٣٢٦ طنا على حين ارتادت الميناء نفسه خلال السنة عينها ١٣٦ باخرة انجليزية حملت ١٢٢,٥٤٠ طنا وهو ما مثل ٩٨,٩٢٪ من مجمل حمولة

البواخر النشيطة بالميناء ، وان في ذلك اكبر دليل على التباين الواضح في مستوى المعاملات التجارية : ففضلا عن تأخر العدد الاجمالي للسفن والبواخر العثمانية (٣٦,١٨٪) ولا سيما البخارية منها (٠,٠٩٪) فان طاقة حمولتها (٩,٣٤٪) لا تنبىء الا بالاختلال في موازين القوى التجارية ، وهو اختلال انتفعت منه القوى الأجنبية والانجليزية خاصة (٧٩,١٩٪ من مجمل الحمولة) .

جملة حركة السفن والبواخر بميناء البصرة ـ ١٨٩١ ـ (١٠٧)

	عددها	نسبتها	وزن حمولتها (طن)	نسبته
السفن والبواخر الانجليزية	٢٥٧	٢٥,٤٥٪	١٣٤٤٢٥	٧٩,١٩٪
السفن والبواخر الفارسية	٣٨٥	٣٨,٢٧٪	١٩٤٥٠	١١,٤٥٪
السفن والبواخر التركية	٣٦٤	٣٦,١٨٪	١٥٨٧٦	٩,٣٤٪
الجملة	١٠٠٦		١٦٩٧٤٢	

والى جانب الأسباب التي سبق ذكرها ، يعود هذا الاختلال أيضا الى اعتبارات متعددة (تخلف تقني ، نقص تشجيع ..) لعل أهمها وأخطرها ما يتعلق بالرسوم الجمركية حيث كانت تعفى الصادرات العثمانية التي يشتريها التجار الانجليز من الرسوم اعفاء كاملا على حين لا يدفع التجار أنفسهم على البضائع التي يبيعونها سوى ٣٪ وهي نسبة «أقل من الـ ٧٪ التي يدفعها التجار العثمانيون على بضائعهم التي سيبيعونها»(١٠٨) .

ان هذه الأوضاع التجارية السيئة بالخليج لا سيما هيمنة الانجليز وغيرهم من التجار الأجانب على هذه التجارة هي التي حفزت الباب العالي والدبلوماسية العثمانية على النظر في الأمر بحزم . وتعتمد الخطة أول ما تعتمد على الدعوة الى تطوير التجارة بمنطقة الخليج ، والاهتمام بهذا القطاع الحيوي لكسر الهيمنة البريطانية وتنشيط الحياة الاقتصادية بالمنطقة وتقوم مبادىء الخطة على تشجيع كل من يرغب في ارتياد الميدان التجاري وتسهيل الامكانيات له ، وحماية التجار واعانة المتاجرين وازاحة كل ما من شأنه أن يعرقل هذا النشاط(١٠٩) كما نادت الخطة بالتخلي عن «البغضاء والحسد» اللذين يعتبران المانعين من تكوين الثروات الشرعية المشروعة(١١٠) .

وفي الحقيقة ، ففضلا عن طابع الخطة الاخلاقي ، فانها لم تقدم عمليا

الأدوات الفعلية التي يمكن أن تنمي التجارة بالخليج وتطورها . فأية وسائل وطرق يتم اعتمادها ؟ وما من شك في أن انصباب اهتمام الدبلوماسة العثمانية بالنتائج قد أنساها الانكباب في البحث عن الوسائل . ان ما كان يلفت نظرها أكثر هو ثراء السكان و«اذا ما أصبح السكان أغنياء تصبح الدولة أكثر ثراء»(١١١) بفضل ما توفره لها شتى أشكال الضرائب والاتاوات .

٢. من أجل إدارة عادلة ومنظمة

تكاثرت الانتفاضات في المنطقة العربية ضد الحكم العثماني مع أواخر القرن التاسع عشر تبعا للعداء الذي طبع الصلات بين العرب والأتراك ونتيجة لاعتماد سياسة قمعية تجاه كل نفس قومي ولتصفية الخصوم السياسيين ، ولا نغالي اذا قلنا ان الولايات العربية كانت تعيش زمن السلطان عبدالحميد في حالة غليان وفوضى زادها عنفا سلوك بعض الولاة العثمانيين وتعنتهم وسوء تصرف الموظفين وأخلاقيتهم المشينة . ولعلنا لا نخفي سرا حين نعلن أن هزّات عنيفة قد بينت سوء العلاقة بين الأتراك والعرب في الفترة الحميدية ولا سيما في العشرين الاخيرة من القرن التاسع عشر . فمع مطلع التسعينات (١٨٩١) نشبت في اليمن انتفاضة شعبية كبيرة ضد السيطرة التركية وقد قادها الامام محمد بن يحيى وهو أحد ممثلي الاسرة الزيدية (آل حميد الدين) وقد تمكن المنتفضون من محاصرة العاصمة صنعاء وخاصة الحامية التركية بها . وقد أجبرت النجدات التركية على الانتقال الى اليمن لفك الحصار(١١٢) .

وقد عرفت قطر ما عرفته اليمن أثناء انتفاضتها ضد الحكم العثماني سنة ١٨٩٣ تحت قيادة قاسم بن محمد بن ثاني . وقد أجبرت القوات العثمانية على الانتقال الى شبه الجزيرة بقيادة والي البصرة نفسه في محاولة لاخماد الانتفاضة . الا أن انهزام الجيوش التركية جعل الباب العالي يعدل من مواقفه فيبعث بممثلين عنه لتقصي الأوضاع وتقديم تقرير في هذا الشأن(١١٣) .

وفي واقع الأمر فان العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر مثلت منعرجا حاسما في الشعور القومي العربي ، اذ تعاظمت انتفاضتهم المحلية (قبيلة أبو محمد ١٨٩٢ .. وغيرها) والجهوية (حلب ١٨٩٥) والقطرية (اليمن ، قطر..) في محاولة لاثبات الذات أمام القمع الحميدي ، ومنفذي الخطط الحميدية في الأقطار العربية .

ويعتقد واضع مشروع الخطة التي نحن بصدد دراستها ، أن هذه الأوضاع السيئة لا بد لها من الزوال

اذ لا يمكن أن تدار الولايات العثمانية «بالامنيات» لا سيما الولايات البعيدة نسبيا عن مركز السلطنة مثل ولايات اليمن وطرابلس الغرب والعراق وضواحيها[١١٤] وترى الدبلوماسية العثمانية في هذا الشأن أنه لا بد من وقف العنف نهائيا حتى يؤخذ السكان «باللين والطواعية والعدالة والمساواة[١١٥] ويتخذ صاحب الخطة إنجلترا نموذجا له اذ هي «تسير أمور الطوائف والعشائر والبدو في مناطق متعددة بلين ولطف تاركة لهم الحرية التامة دون عراقيل ولا تدخلات»[١١٦] فهل اتعظ الباب العالي بدروس الماضي وحصيلة الحاضر ؟ أم هو يرغب في تجنب المشاكل التي يخلفها القمع المتتالي للمناطق التي هي تحت نفوذه ؟ أم هو تكتيك لجلب أكبر قدر من المتعاطفين للتصدي للأطماع الاستعمارية الاوربية ؟.

وبداهة ، لا بد من أن نتبين في هذا المجال التجديد في الخطاب السياسي العثماني وهو تجديد فرضته أوضاع الامبراطورية الداخلية وعدم قدرتها على صدّ النفس القومي الذي بدأ يتبلور أواخر القرن التاسع عشر ، وهو نفس وان كان يرفض تسلط الأتراك وهيمنتهم فانه يرفض في نفس الوقت الاحتماء بالمظلة الإنجليزية (موقف قاسم بن محمد بن ثاني سنة ١٨٩٣ مع الانجليز ، موقف محمد الصباح مع مقترحات الانجليز سنة ١٨٩٥) .

كما فرضت هذا الموقف الأوضاع الدولية العالمية ، اذ كانت الدول الاوربية ولا سيما إنجلترا تتحين الفرص للانقضاض على الأقطار الخليجية مستغلة أخطاء الدولة العثمانية من جهة وأخطاء ممثليها في هذه الأقطار من جهة ثانية . وتبعاد لما تقدم كانت دعوة الدبلوماسية العثمانية تقضي أيضا باعتماد الموظفين سلوكا مثاليا ومحترما .

ويبدو أن الادارة التركية كانت تشكو هي الاخرى ، أوضاعا سيئة ، تمثل السرقات[١١٧] والرشوة[١١٨] وتجاوز السلطة[١١٩] أحد أعمدتها الرئيسية ... وغير ذلك كثير[١٢٠] . ويظهر أن بعض الموظفين سيئي السلوك ، كانوا يرغبون في العمل بولايات البصرة والعراق لبعدها النسبي عن مركز السلطة والمراقبة (اسطنبول) حتى يتمكنوا من تغطية سرقاتهم[١٢١] .

وفي واقع الأمر فان العديد من الوقائع والأحداث تثبت لنا صحة مثل هذا التمشي : فتؤكد لنا بعض المصادر على تفشي الرشوة مثلا في دار الجمارك بالبصرة والعراق[١٢٢] وفي غيرها من الأماكن ، اذ كان بالامكان ابتياع ضمير أي واحد من أصحاب الذات حتى السلطان نفسه[١٢٣] كما تشير بعض المصادر الاخرى الى استبداد الولاة[١٢٤] واستنكار الأهالي

لأعمالهم(١٢٥) بل ان البعض الآخر أقر نهائيا بأن الادارة في العراق كانت سيئة فلم يفدها تنبيه أو تهديد لا في أيام (بشري باشا) ولا في أيام غيره من الولاة(١٢٦) .

ونعتقد من ناحيتنا أن سوء أوضاع الادارة بالعراق وبالبصرة لا يمثل استثناء فالادارة بالأقطار التابعة للامبراطورية العثمانية كانت تعيش تقريبا نفس الأوضاع اذ يشير «بول كومبون» سفير فرنسا الى وزير خارجيته سنة ١٨٩٤ في معرض حديثه عن المسألة الأرمينية قائلا «انهم (الأرمن والجالية اليونانية ، والألبان ، والعرب) جميعا يشكون من فقدان العدالة ومن فساد الموظفين الحكوميين ، ومن عدم الأمان الذي يهدد سلامة السكان»(١٢٧) وعلى الرغم مما يبدو في هذه الاشارة من تحامل غير خفي ، الاّ إننا لا بد من الاقرار بسوء وضعية الادارة العثمانية ، وهو ما يتطلب الاصلاح والتغيير .

وتقر الدبلوماسية العثمانية ، هي الأخرى بهذه الأوضاع السيئة وتعمل على تجاوزها في اطار هذه الخطة . فتدعو الى وقوف السلطة بحزم ضد سلوك الموظفين السيء الخلق لتلافي السرقات(١٢٨) والتعديات(١٢٩) حتى لا يجد الاوربيون وخاصة إنجلترا «عدو الامبراطورية الأكبر» تعلة يستغلونها للدعاية(١٣٠) بل ان الخطة تقضي أيضا بأن يصبح الموظفون الأتراك مثالا للعمل والعدالة وفي تطبيق القوانين وهو ما يمكّن الامبراطورية من الاشعاع(١٣١) بالمناطق تحت السيادة العثمانية وبالمناطق المجاورة لها مثل مسقط وبلوسشتان(١٣٢) .

ولئن بدت اعترافات الدبلوماسية العثمانية شيئا ايجابيا في حدّ ذاته ، اذ هو اقرار بمختلف الأخطاء التي ارتكبتها الادارة العثمانية في حق جماهير المنطقة الا أن الحلول لم تخرج عن الطابع الاخلاقي ذلك أن نداء الاصلاح هذا يصطدم في الحقيقة بواقع حياتي يعيش على الرتابة فضلا عن اصطدامه بقوى تسعى للحفاظ على مصالحها بمحافظتها على الوضع الراهن .

٣. توجه جديد في العلاقات مع العرب

لقد كانت وضعية مناطق مسقط وعمان بدرجة أولى ومنطقة الامارات العربية بدرجة ثانية مثار قلق الدبلوماسية العثمانية ، اذ يتبرم الباب العالي من عزوف هذه الامارات عن الدخول تحت حمايته . وفي الواقع ، فقد حرصت هذه المناطق على استقلاليتها لولا الضغوط التي كانت تعيشها والمتأتية من قبل الدول المهيمنة ، على أن ضعف الامبراطورية

وعدم قدرتها على ملء الفراغ الذي كانت تشكوه المنطقة ، قد جعلها مسرحا لتهافت القوى الاستعمارية ، وقد حرصت إنجلترا على ربط هذه المناطق بها حسب عقود واتفاقيات سلبتها حرية تصرفها وألزمتها الامتثال الى ضوابط يحددها التاج البريطاني . وتعتقد الدبلوماسية العثمانية أنه من المفارقة حقا «أن تعادي البلدان المسلمة دولة الاسلام (اقرأ السلطنة العثمانية) على حين تقبل بعدو الاسلام (اقرأ إنجلترا) صديقا لها»(١٣٣) .

وفي واقع الأمر ، فان المسألة تتجاوز التجاوب الديني والميولات العاطفية لكي تنبنى على قدرة هذه الدول على مواجهة التحديات الاستعمارية بذاتها ولذاتها ، وعلى مدى مساهمة الامبراطورية في هذه المواجهة . ان بلدان هذه المنطقة كانت تعيش تشتتا سياسيا زادته الخلافات الداخلية في الأسر الحاكمة تأزما ، وهذا ما كان يقعدها فعليا عن المواجهة بل لقد وجد البعض منها في المظلة البريطانية ملجأ لفض قضايا التوريث والاستخلاف . ان تدخل بريطانيا المباشر في حل قضايا داخلية قد سمح لها فيما بعد بالظهور بمظهر الحكم بين الفرقاء بل والوصى عليهم وقد اتسم موقف الباب العالي في هذا الخضم اما بمزيد تأجيج للفتن تارة أو بالصمت المشفوع بالتسليم بالأمر الواقع تارة أخرى ، ولم يتبين للباب العالي من مواقف حازمة تجاه العنهجية البريطانية عدا بطاقات الاحتجاج ترسل بين الفينة والاخرى الى الخارجية البريطانية عندما لا تحسن الدبلوماسية الانجليزية تغطية تعدياتها بالمنطقة . وقد شجع مثل هذا الوضع الانجليز على مواصلة غزوهم للمنطقة واخضاع شيوخها بالقوة أحيانا (حملات ارهابية) ... وبالأساليب الدبلوماسية أحيانا أخرى (دعم مالي ، اتفاقيات) ... مع الايهام دائما باستقلالية السلطة المحلية عنها .

وفي واقع الأمر ، فان الدبلوماسية البريطانية ، ولئن كانت تقر رسميا بأن حدود السيادة العثمانية تمتد على طول الساحل من البصرة الى القطيف(١٣٤) فانها تعتبر عمليا كامل منطقة الخليج منطقة نفوذ بريطانية مواجهة في ذلك كل القوى الطامحة لاثبات مصالح لها بالمنطقة . أفلم تحاول بريطانيا ضم قطر الى دائرة النفوذ البريطاني والحال أنها كانت تخضع أنذاك (١٨٩٣) للادارة العثمانية(١٣٥) .

ان العجز الذي طبع التحركات العثمانية مثل عاملا اضافيا سمح بتسرب بريطانيا الى بعض المناطق . بيد أن المسئولية تبقى للقيادات السياسية بالأقطار العربية . فقد

عاشت مثلا مسقط وعمان صراعا اثر سنة ١٨٥٦ بين أبناء سعيد بن سلطان وهو ما مكّن بريطانيا من التدخل بدعوى فضّ الخلاف[١٣٦] وقد تعهدت بريطانيا فيما بعد (منذ ١٨٧٣) بدفع مقادير مالية الى سلطان مسقط تعويضا عن ايقاف تجارة الرقيق وكوسيلة ضغط تعتمدها بريطانيا كلما عنّ لها ذلك . وقد أبقت بريطانيا في هذه المنطقة على الاسر الحاكمة العربية النشأة والمولد بل وأقرت باستقلال نفوذها (اتفاقية ١٨٦٢ مع فرنسا) شريطة توقيعها على اتفاقيات تسلب هذه الاسر تصرفها السياسي . كما لم تتوان في التدخل مع مطلع السبعينات لتضع على العرش أحد المخلصين لها السلطان «تركي» (١٨٧١ ـ ١٨٨٨) .

ان الدبلوماسية العثمانية التي كانت دوما تعتبر منطقة مسقط وعمان دولة مستقلة عن الخلافة[١٣٧] أصبحت ترى مع أواخر القرن التاسع عشر ضرورة جلب هذه السلطنة الى دائرة التأثير العثماني . فما هي أسباب هذا التعديل ؟ وما هي وسائل ذلك ؟

ان الباب العالي أصبح يرى من الضروري تجميع كل القوى لمواجهة الهيمنة البريطانية وللوقوف ضد توسع نفوذها ولا يتأتى له ذلك الا بتأليب كل القوى ضد السيطرة البريطانية المطلقة بالمنطقة . فضلا عن ذلك فان الباب العالي ما انفك يلمح الى ضرورة تجميع كلّ المسلمين رافعا شعار «انما المسلمون اخوة» للتصدى للقوى الغربية «المسيحية» ولا يتم له ذلك الا باستفزاز مشاعر السكان الدينية منبها الى «خطر المسيحية على المنطقة ودور المبشرين وفساد الرهبان وتجاوزاتهم»[١٣٨] .

وفي الواقع فان الدبلوماسية العثمانية كانت ولا شك على علم بأوضاع السلطنة السياسية وبالتنافس الحاد بين فرنسا وبريطانيا على المنطقة وهو ما حفز الباب العالي على طرح هذه الورقة مجددا : ففي فبراير ١٨٩٥ ، استطاعت انتفاضة عارمة احتلال العاصمة مسقط لمدة أسابيع وتهديد عرش السلطان «فيصل» ، الذي ما ان مرّت «العاصفة» حتى عاد باللائمة على الانجليز متهما اياهم بالتقصير وبوقوفهم موقفا حياديا أثناء الاحداث[١٣٩] . وما من شك في أن الدبلوماسية العثمانية كانت تحاول استغلال هذا «البرود» في العلاقات بين السلطان والانجليز لكي تدفع السلطان لاعادة النظر في الاتفاقية مع بريطانيا وعلاقته المتميزة معها .

وتقتضي الخطة محاصرة بريطانيا في مناطق جنوب الخليج أيضا ورفع «النجمة والهلال (العلم العثماني)

بهذه المنطقة »[١٤٠] وذلك باقناع سلطان عمان بالانضمام الى الامبراطورية برتبة حاكم على المنطقة عن رضى منه[١٤١] .

ويتبين لنا عند النظر الى هذا المقترح ، أن الدبلوماسية العثمانية قد تكون اتعظت بدروس الماضي ، ذلك أن تدخلاتها المباشرة بصورة عنيفة في فترات سابقة لم تكسبها المهانة فحسب (أحداث قطر ليست ببعيدة ، وهزائم الجيش العثماني أثناءها) ... بل أورثتها ضغينة السكان وحقدهم كذلك فضلا عن الخسارة السياسية . فمن الأكيد أن الباب العالي أصبح يقر بأن أحسن الوسائل التي تحفظ له ماء الوجه من جهة ، وتمكنه من الابقاء على النفوذ المعنوي ودعم جبهة التصدي للوجود البريطاني في الخليج من جهة ثانية ، تتمثل في استدراج شيوخ الخليج وأمرائه وسلاطينه تحت المظلة العثمانية مع المحافظة على استقلاليتهم وذاتيتهم .

ومن الأكيد أن مثل هذا المشروع ، ولئن بدا منطقي المنهج متعظا بالتجارب السابقة الا أنه يخلو من مثالية عند الانجاز . فهل كان يكفي «تأثير السلطنة المعنوي» لاعادة أقطار المنطقة الى الحظيرة العثمانية ؟ وهل كان من الممكن أن تتخلى إنجلترا بسهولة عن مناطق نفوذها التقليدية ؟ لا نعتقد ذلك . فقد كان باب «استسهال» الأمور وتبسيطها اقرار الخطة بأن وضع بعض الموظفين النزهاء «ونظيفي اليد» في المناطق يكفي وحده لاعادة التأثير العثماني عليها . فالتجارب المعاشة والسيرورة التاريخية كانت أفصح من الأمنيات .

٤ . ايجاد قوة بحرية في الخليج

لئن بقى الجيش العثماني منظما ومهيكلا في سبعة ألوية[١٤٢] حتى أواخر القرن التاسع عشر ، فان البحرية العثمانية قد بدت هزيلة وغير ذات قيمة بفعل الضربات التي تلقتها أثناء حروبها الاخيرة مع روسيا ومع اليونان (حرب كريت) . فلا يتجاوز عدد جنود البحرية ثلاثين ألفا في أقصى الحالات اضافة الى عشرة آلاف من النوتية ، ذلك أن أغلبية التجهيزات البحرية كانت ما تزال شراعية تقليدية . فضلا عن ذلك فان جل هذه السفن كان معطوبا وغير قادر على النشاط . ولم يكن مرفأ اصلاح السفن الوحيد الموجود باسطنبول قادرا على تشغيلها . وما من شك في أن الحروب المتتالية والخسائر العسكرية الناجمة عنها ، وعدم القدرة على تجديد الأسطول وتعويض قطعه ، قد جعلت منه أسطولا محدود الفاعلية وهذا ما دفع بالبعض الى القول بأن الامبراطورية لئن كانت تملك تجهيزات بحرية فانها لا تملك

أسطولا(١٤٣) .

زيادة على ذلك فان الاسطول العثماني المتكون من بعض الوحدات كالحراقات وسفن النقل ، والمدرعات والطرادات ، (وهي ألمانية وإنجليزية الصنع) لم يكن مجال اهتمامه يتجاوز مضيقي البوسفور والدردنيل وربما بعض الموانىء المتوسطية (ازمير) ويعني ذلك أن نشاط هذه الوحدات لا يشمل أطراف الامبراطورية الا لماما . فلم تعرف منطقة الخليج تبعا لذلك قوة بحرية عثمانية حقيقية وثابتة ، وتم الاكتفاء بارسال بعض الزوارق الخفيفة التي لا يمكن لها بأي حال مجابهة البواخر الإنجليزية ووحداتها الضخمة . لقد طمأنت هذه الوضعية الانجليز فلم يروا لهم من منافس سوى القوى الاستعمارية الاوربية . وقد اكتشفت الدبلوماسية العثمانية هذه الثغرة مؤخرا فأقرت بالأوضاع السيئة لأسطول الخليج(١٤٤) ، وتبعا لذلك اقترحت التفكير بجدية في بعث أسطول بالخليج يتكون من بعض الزوارق الجديدة السريعة وبعض القطع الحربية الموجودة بالمنطقة بعد ترميمها(١٤٥) ويسهم مثل هذا المسعى بتعزيز شعور الاطمئنان لدى السكان في اطار الخطة «المبرمجة» اذ سيتنبهون الى أن «رعاية السلطان تحرسهم»(١٤٦) اذ تقوم هذه الوحدات بزيارات الى الموانىء العثمانية وغيرها من موانىء الخليج وتعمل كذلك على التنقل حسب المواسم حتى الى بحر الهند رافعة العلم العثماني . كما تقوم هذه الوحدات بحراسة السفن التجارية من القراصنة(١٤٧) ومن الجائز أن يكون اعتماد مثل هذه النقلة الاخيرة للاستهلاك الدعائي فحسب .

يبقى اشكال أخير ماثلا وهو الخاص بامكانيات الباب العالي في اقتناء بعض الوحدات . فهل كانت امكانياته المالية تسمح له بذلك ؟ وهل كانت له الكفاءات القادرة على تسيير هذه الوحدات ؟ أم أنه سيضعها بين أيدي الضباط الألمان كما حدث في حربه الأخيرة مع اليونان حول جزيرة كريت . ان الوثيقة التي بين أيدينا لا تجيب عن ذلك .

٥- العمل على تطوير منطقة الرافدين وشط العرب

مثلت منطقة الرافدين وشط العرب مركز صراع دولي لا سيما بين بريطانيا والباب العالي وأصبحت الدبلوماسية العثمانية تعتقد - عن صواب - أن قضية الرافدين وشط العرب هي قضية مصيرية للوجود العثماني بالمنطقة وهذا ما يفسر أهمية المسألة القصوى(١٤٨) .

ويتكون شط العرب من اقتران نهري دجلة والفرات في القرنة ،

فيجري من هناك في اتجاه الجنوب الشرقي (٢٠٥) لكي يصب في الخليج العربي . وقد كان هذا الشط - وما يزال - مثار اهتمام القوى بالمنطقة لا سيما أنه يرتبط بأنهار قامت بها تجارة نهرية متطورة . فقد سمح فرمان سلطاني منذ ١٨٣٤ بانزال باخرتين بريطانيتين الى نهر الفرات . وبغض النظر عن الملابسات الجغرافية والقانونية[١٤٩] فان شركة «لنج» قد أصبحت تحتكر التجارة عبر النهرين منذ تأسيسها ١٨٦٢ تحت اسم «شركة دجلة والفرات للملاحة التجارية»[١٥٠] مستعملة باخرتين تربطان البصرة ببغداد ذهابا وايابا . وقد اتسعت نشاطات هذه الشركة منذ فتح نهر قارون للملاحة (١٨٨٨) فصارت الشركة نفسها صاحبة الامتياز في استغلاله .

ومن الأكيد أن الحكومة البريطانية كانت ترى بعين الرضى توسع نشاطات الشركة واتساع نفوذها ومشمولاتها . بل ان الحكومة البريطانية كانت تقدم للشركة اعانات مالية حتى تواصل عملها[١٥١] ذلك أن إنجلترا تعتبر أن وجود هذه الشركة وغيرها من الشركات المستثمرة ستفتح الطريق أمام جيوشها عند الحاجة . وتبعا لأهمية المنطقة ، تواصلت المفاوضات بين بريطانيا وتركيا أكثر من خمس عشرة سنة[١٥٢] حول المسألة وهو ما دفع الباب العالي مؤخرا الى اقامة بعض الاستحكامات الدفاعية على الشط في منطقة الفاو و(١٨٨٣ - ١٨٩٤) والدعوة الى اعادة النظر في الامتياز السلطاني الذي أسند للشركة .

ان هذه الاعتبارات وغيرها قد تكون حفزت العثمانيين أيضا على الاهتمام بالنشاط التجاري على الرافدين وفي منطقة الشط . ففي نفس السنة التي باشرت فيها شركة «لنج» عملها بالأنهار ، انشأت الحكومة التركية خطوط بواخر منتظمة بين بغداد والبصرة[١٥٣] ، كما تشير بعض المصادر الاخرى الى تأسيس شركة ملاحة عراقية برأس مال محلي وحكومي بدأت نشاطها بين البصرة وبغداد منذ ١٨٥٩ ، الا أن نشاطها كان محدودا اذ اقتصر على نقل المسافرين والبريد[١٥٤] ثم أعيدت التجربة مجددا سنة ١٨٦٧ باستخدام شركة الادارة النهرية لثلاث سفن[١٥٥] على أن مصير أغلب هذه الشركات كان الأفول : فالبواخر كانت بطيئة في تنقلها مقارنة بالبواخر الانجليزية ، وكانت كذلك قليلة الحمولة ومنعدمة التعهد اضافة الى منافسة السفن الشراعية المحلية (٨٠٠) التي كانت تقوم بالتجارة على السواحل[١٥٦] لها .

وقد عمل الباب العالي مجددا بمعية السلطة الجهوية العثمانية على بعث شركة ملاحة تضاهي الشركة

البريطانية وتنافسها فأعلن سنة ١٨٩٢ عن انشاء شركة عثمانية للملاحة التجارية في نهر دجلة[١٥٧] بتزكية من السلطان العثماني ذاته وبرأس مال يناهز مليوني فرنك[١٥٨] الا أن العقبات أرجأت المشروع وربما أوقفته[١٥٩] .

وتدعو الخطة التي نحن بصدد عرضها الى انشاء شركة ملاحة نهرية على النهرين وشط العرب وهي في ذلك تجدد العهد مع مختلف المشاريع السابقة . وتعتبر بالانعكاسات الاقتصادية الطيبة لمثل هذه المشاريع كازدهار النشاط الملاحي ومن ثمة تكثيف مداخيل الدولة[١٦٠] اضافة الى امكانية تنشيط العلاقات مع المناطق المجاورة لا سيما المناطق المحاذية لنهر قارون ومدينة المحمرة[١٦١] على أن أكبر اهتمامات الدبلوماسية العثمانية ساعتئذ تتمثل في فتح النهرين وشط العرب للنشاط الحربي العثماني حيث يمكن النهران من نقل العتاد والجيوش من المناطق الداخلية (فيلق بغداد) الى خليج البصرة بأسرع وقت[١٦٢] ويبدو أن التوجه لم تفرضه الظروف الجغرافية وصعوبة التنقل البري فقط ، وانما الظرفية السياسية كذلك . ان كثرة الانتفاضات ضد الوجود العثماني بالمنطقة ، والتسرب البريطاني بالمناطق المجاورة (نهر قارون) قد حفزا الباب العالي والدبلوماسية العثمانية على استنباط وسائل للاسراع بتحويل الجيش الى المناطق الساخنة عند الحاجة .

ومن الأكيد أن الدبلوماسية العثمانية العارفة بتدهور أوضاع المالية العثمانية قد أخذت بعين الاعتبار هذه المعطيات فقامت بدراسات متعددة حتى تتبين الأنسب من البواخر لاعتمادها في هذه التجربة الجديدة فاختارت أقلها تكلفة وأكثرها ملاءمة لحمل الجنود - أولا -[١٦٣] والأمتعة والحيوانات والمسافرين ، وتعلن أن ثمن الواحدة لا يمكن أن يتجاوز ألفا الى ١٥٠٠ ليرة عثمانية على أن يتم اعتماد مرحلية في بنائها . فتصنع أولا خمس سفن مزودة بمدافع و١٥ سفينة عادية[١٦٤] وفي ذلك كفاية - حسب واضعي الخطة - لتنشيط المنطقة ، ومراقبتها على أن تعود السفن بالنظر الى وزارة المالية[١٦٥] .

ان هذه المسألة وان بدت واضحة في توجهها عملية في انجازها ، الا إنها محدودة في امكانياتها : فهل يكفي ١٠٠٠ ليرة لاقتناء بواخر تنافس البواخر البريطانية ؟ وهل يمكن لهذه البواخر أن تكون متعددة النشاطات والاختصاصات ؟ فلئن أقرت الدبلوماسية العثمانية بأن الباب العالي وخصوصا وزارة البحرية لم

يفعلا شيئا من أجل المنطقة(١٦٦) فهل تقدر مثل هذه المؤسسة المزمع بعثها القيام بكل شيء ، وفي نفس الوقت ؟ ان حجم المواجهة يفترض في نظرنا حسن تدبير يتم ربطه أكثر بالواقع .

٦.تطوير المواصلات بين الخليج ومركز الخلافة

لقد مثل ربط مركز الخلافة بأطراف الامبراطورية هاجس الدبلوماسية العثمانية نظرا لأهمية طرق المواصلات البرية من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، ولعلنا لا نذيع سرا حين نبين أن القوى المهيمنة قد استغلت هذا الانحلال في العلاقات بين الامبراطورية وولاياتها لكي تتسرب تدريجيا الى المنطقة . ولا بد لنا أن نقر أيضا بأن طرقا برية كانت تربط هذه المناطق بعضها بالبعض الآخر (طريق التوابل والحرير وتربط اسطنبول بمناطق الشرق القديم) الا أن استعمال هذه الطرق كان غير مستمر فكان يحصل أن تتحول مواقع هذه الطرق واتجاهاتها حسب الفترات الزمنية ، من ذلك مثلا أن طريق الهند الذي يعتبر أهم المسالك على الاطلاق ، اتخذ مسلك الهضبة الايرانية في البداية لكي يغيّر اتجاهه فيما بعد نحو العراق عبر الخليج العربي ، ومنها الى الأناضول في اتجاه اسطنبول(١٦٧) ، الا أن هذا المر ذاته لم يحافظ على نشاطه منذ فتحت قناة السويس وربما حتى قبل هذا التاريخ ، اذ أصبح طريق الهند بحريا يمر بالخليج فالبحر الأحمر ثم الى البحر المتوسط عبر القناة .

وفي محاولة لتنشيط الطريق التقليدية وربط مركز السلطنة بمنطقة الخليج العربى تقترح الخطة تعهد الطريق «تيمور ـ الأناضول» واتمامه لكي يصل الى بغداد فالبصرة(١٦٨) وترى الدبلوماسية العثمانية ـ وهي محقة في ذلك أن تعهد هذا الطريق سيمكن من ربط أجزاء الامبراطورية بعضها بالبعض الآخر ويعيد لحمة الامبراطورية فضلا عن الامكانيات المتاحة لتنشيط الاقتصاد والمعاملات التجارية . وقد راهنت الدبلوماسية العثمانية على أن الخط الرابط بين مركز الخلافة من جهة والخليج من جهة ثانية سيكون له أهمية قصوى لا تعادلها سوى أهمية الطريق الرابط بين منشوريا وبحر الصين مرورا بسيبيريا(١٦٩) .

وفي نفس هذا التوجه ، اقتضت الخطة العمل على تطوير الطرق الحديدية لا سيما أن الامبراطورية كانت ساعتئذ حظيرة كبيرة وضخمة لانجاز مشاريع سكك الحديد ، وهي مشاريع كانت تصوغها بالأساس القوى الاستعمارية الاوربية لفائدتها الخاصة ولم يكن الباب العالي يجني منها سوى النزر القليل ، بل ربما لم

تستجب هذه المشاريع بالضرورة لمصالح الامبراطورية[١٧٠] .

وبغض النظر عن مختلف الملابسات الحافّة بانجاز السكة الحديدية أو أي مرحلة منها ، والظروف التي تمت فيها ، وبغض النظر عن المنافسة الدولية بين القوى الاوربية من أجل الفوز بامتياز اقامتها ، فان طول مسافة هذه الخطوط (٢٥٤٢ ميلا حتى ١٨٩٨) عبر مناطق الامبراطورية ، يكشف عن اصرار القوى المهيمنة على تكثيف تدخلها عبر هذا المنفذ وحرصها على تثبيت مصالحها بالامبراطورية . ومن الحري بنا أن نبين كذلك أن مدّ سكة حديد من الخليج العربي في اتجاه اسطنبول أو البحر المتوسط قد كان محل صراع بين القوى الاستعمارية ، وقدمت في هذا الغرض مشاريع دولية متعددة[١٧١] . وتماشيا مع هذا التوجه العام تعتقد الدبلوماسية العثمانية في ضرورة ربط المنطقة بالمركز (اسطنبول) وليس ذلك لاعتبارات اقتصادية فحسب ، وانما أيضا لاعتبارات سياسية وعسكرية ، اذ يريد الباب العالي بفضل هذه السكة أن يستعيد نفوذه بالمنطقة ويربط أطراف الامبراطورية بالسلطنة ، فضلا عن الامكانيات المتاحة لنقل العتاد والجنود عند الحاجة . وفي هذا الاطار يتنزل تأكيد الخطة على ضرورة انجاز سكة حديد «حيدر باشا ـ البصرة[١٧٢] . وفي واقع الأمر فان جزءا من المشروع كان قد أنجز فعلا منذ ١٨٩٢ حيث قامت «شركة حديد الأناضول» بفضل امتياز حصلت عليه منذ ١٨٨٨ بمدّ الخط ما بين حيدر باشا وأزمير ومن ثم الى أنقرة على امتداد قرابة ٥٧٨ كلم[١٧٣] ثم انتفعت الشركة ذاتها بامتياز إيصال الخط نفسه الى قونية (٥٣٥ كلم) وهو ما تم سنة ١٨٩٥ ، وتزايدت المطامع الالمانية أكثر للحصول على امتياز نهائي يقضي بايصال السكة الى بغداد ، وهو امتياز أثار منافسة حادة بين الدول مما أخرّ العمل على انجازه .

خاتمـــة :

أخذت وضعية الامبراطورية العثمانية منعرجا خطيرا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وخاصة منذ ارتقاء عبدالحميد الى السلطة وايقاف العمل بالدستور اذ قصد الباب العالي صهر كل الطاقات في بوتقة واحدة وتذويب كل نفس قومي واعتماد سياسة القمع لانجاز هذا التوجه . وما من شك في أن مثل هذا التوجه سيجد معارضة كبيرة حاول الباب العالي تفكيكها بالدعوة الى ما اصطلح على تسميته بوحدة المسلمين في اطار «الجامعة الاسلامية» . فمنذ

أن اسندت الصدارة العظمى الى خير الدين التونسي (١٨٧٩) تبين للجميع أن السياسة الحميدية كانت تراهن على دغدغة الشعور الديني حتى تلقى المساندة والدعم . فلئن كان عدد المسلمين بتركيا لا يتجاوز ١٨ مليون فرد مع أواخر القرن التاسع عشر ، فان الخلافة كانت تطمح عند رفعها هذا الشعار الى مساندة ٢٥٠ مليون مسلم من مختلف الجنسيات والقوميات لسياستها . فهذا الدعم هو الذي سيكفل لها حسب اعتقادها التصدي للمطامع الاجنبية ، لا سيما الانجليزية منها . ان المسار الذي اتخذه الباب العالي كان ينحو في الواقع الى تجميع كل القوى المعادية للغرب الاستعماري دون أن يقدم الى هذه القوميات ما كانت تتوق اليه من مساواة وعدالة وحرية .. وقد تجاذبت تركيا أنذاك ثلاثة تيارات فكرية : تيار يعتقد في ضرورة وحدة كل القوميات داخل الدولة العثمانية ، وهذا التيار لم يعد يحظى بالانتشار الذي كان عليه في الفترات السابقة . أما التيار الثاني وفيه أقلية فقد بدأ يطالب في احتشام بطغيان القومية التركية القائلة بتفوق العرق التركي على بقية الأجناس . أما التيار الثالث وهو الأكثر رواجا يؤكد ضرورة اقامة صرح الدولة على وحدة المسلمين وتكاتفهم وان أدى ذلك الى قمع القوميات التي لا تدين بالاسلام[١٧٤] .

ولئن كشف الواقع التاريخي محدودية التيار الأول بل وبطلانه ، ولئن بدا طرح التيار الثاني حديثا واقصائيا ، فقد عملت السلطة العثمانية على ترويج «العملة» الاكثر رواجا وتداولا . وقد بهرت هذه «العملة» في البداية جزءا من العرب المسلمين الا أنه سرعان ما تبين زيفها اذ عجزت الامبراطورية عن القيام باصلاحات قد تعود على متساكنيها بالفائدة بل ان العرب قد عاينوا عجز الباب العالي في الدفاع عن ذاته وردّ الطامعين في تركيا .

أما العثمانيون ، فقد ساير جلّهم هذه الدعوة واعتبروها خلاصا لأركان الامبراطورية وتتنزل هذه الخطة في هذا الاطار ، حيث أصبحت الدعوة الى «لم المسلمين» وتوحيدهم تحت الراية العثمانية «الكلمة السحرية» التي ستنقذ الامبراطورية من التداعي . بيد أننا نجانب الصواب ان لم نثبت ان بالخطة تجديدا هاما لا بد من اقراره . فهل كان الوصول الى مثل هذه الرتبة الدبلوماسية كفيلا بالاجتهاد في حدّ ذاته ؟ . ان المتأكد لدينا ان هذا المنصب كان يسمح بالاطلاع عن كثب على مجريات العلاقات الدولية وتطوراتها على أننا نعتقد أكثر أن الخطة تدخل في اطار هذه الموجة الجديدة للفكر الاصلاحي بالامبراطورية هذه الموجة التي ظهرت

منذ ستينات القرن التاسع عشر وتدعمت مع أواخر القرن بانشاء فرع سالونيك (١٨٩٥) وهي التي كانت نواتها تتمحور حول بعض الموظفين والضباط الأتراك وبعض المثقفين «الاحرار» ، فقد ساء هؤلاء ما وصلت اليه الامبراطورية من حالة سيئة وساءتهم هيمنة الدول الاستعمارية على أطراف الامبراطورية وتغلغل الرأسمال الاجنبي وانتفاعه بامتيازات مذلة للامبراطورية ، فبادروا بتأسيس جمعيات كانت ذات نفس ليبرالي في البداية ثم تطورت مع مطلع القرن العشرين الى نعرة قومية تركية .

ان النفس الاصلاحي الليبرالي يمكن لنا أن نستشفه في الخطة التي قدمت للباب العالي : اذ أنها تقضي في المستوى الداخلي بالعمل على تطوير الاقتصاد وذلك بالاعتماد على الامكانيات الذاتية وابعاد المنافسة الأجنبية في المستوى الاقتصادي وتنظيم الادارة ، والقضاء على الفساد فيها ، وتحرير التجارة من القيود التي تعوقها .. الخ ، أما على المستوى الخارجي فالخطة تدعو الى التصدي للقوى المهيمنة والتعامل بندية مع القوى العربية المحلية المستعدة لمواجهة هذه القوى الاستعمارية والتخلي عن أساليب العنف في التعامل مع المناطق التي يشرف عليها الباب العالي .. الخ إن مجمل هذه المقترحات لا تمثل في واقع الأمر سوى صدى لمقولات «اليكي عثمانلر» (العثمانيون الجدد) بل ان البعض من هذه المقترحات قد شرع في انجازه لفترة وجيزة بعض ولاة العراق المحسوبين عادة على الاصلاح (مدحت باشا) .

◇◆◇

الهوامش

١ - ان فهارس هذا الأرشيف متعددة واعتمادنا في بحثنا هذا على بعض التقارير الموجودة بأرشيف قصر يلدز ، الذي يشمل التقارير والمراسلات المبعوثة الى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني .

٢ - أرشيف قصر يلدز ، قسم ١٤ ، أوراق ٢٥٥ ، ظرف ١٢٦ ، ملف ٨ ، بصرة كورفزى وحكومة ينه ايله إنجلترا نك مناسباتي حقندة به لا ئحة بندة طانه كتب التقرير خليل خالد «لوندره شهبندر وكيلي» في ٢١ شباط ١٣١٣ رومي (مالي) الموافق المنتصف فيفري ١٨٩٨م .

٣ - هادى طعمة : الخليج العربي في الاستراتيجيات الاستعمارية والبريطانية خاصة ، ١٩٧١ ، ص١٩ - ٢٠ .

٤ - C.N. Curzon: The Persians and the Persian question, 1892, tII, p. 465

٥ - أرنولد ويلسن : الخليج العربي :مجمل تاريخي من اقدم الازمنة حتى أوائل القرن العشرين ، نقله الى العربية عبدالقادر يوسف ، الكويت ،ص٤١٦ .

٦ - محمد مرسى عبدالله : دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها . الكويت ١٩٨١ . ص٣٠ .

٧ - حول اتفاقية انجلترا مع سلطان مسقط سنة ١٧٩٨ . أنظر مثلا ، هـ ، طعمة : الخليج العربي ص٢٥

٨ - حول هذه الاتفاقيات ونصوصها ، إنظر كذلك هـ . طعمة ، المصدر نفسه ص٣٠ وما بعد ذلك .

٩ - فتحت وكالة لها بالشارقة منذ ١٨٢٣ .

١٠ - صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي . القاهرة ١٩٧٤ ، ص١٦١ .

١١ - انظر في هذا الشأن : محمود على الداود : محاضرات عن الخليج العربي والعلاقات الدولية (١٨٩٠ - ١٩١٤) ، القاهرة ١٩٦١ ، ص١٨ .

١٢ - لوريمر (ج . ج) : دليل الخليج ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، الدوحة : ١٩٦٧ ، ج١ ، ص٤٠٧ .

١٣ - المصدر نفسه ص٤٣٣ .

١٤ - المصدر نفسه ص٤٤٦ .

١٥ - كانت هذه الاتفاقيات تباعا ١٨٣٩ - ١٨٤٧ - ١٨٥٣ - ١٨٥٦ - ١٨٨٠ ، وقد سلبت القيادات السياسية بالمنطقة العربية بفعل هذه العقود حرية حركتها .

١٦ - عقدت بريطانيا اتفاقا مع سلطان مسقط في مارس ١٨٩١ ، ومع شيوخ أبو ظبى ، الشارقة ، دبى ، عجمان ، ام القوين ، ورأس الخيمة في ٨ آذار ١٨٩٢ ومع شيخ البحرين في ٢٣ آذار ١٨٨٩ ، وسيتم عقد نفس الاتفاق مع شيخ الكويت فيما بعد سنة ١٨٩٩ .

١٧ - يتعهد السلطان أو الشيخ في هذه الاتفاقيات باسمه ونيابة عن ورثته ، وخلفائه بأن :

- لا يدخل بأي حال من الأحوال في اتفاقية أو تراسل مع أى حكومة فيما عدا الحكومة البريطانية .
- لن يوافق على اقامة اي وكيل لأية حكومة أخرى في امارته بدون موافقة الحكومة البريطانية .
- لن يتنازل مهما كانت الأحوال ولن يبيع ولن يرهن أو عدا ذلك لن يقبل احتلال أى جزء من امارته الا للحكومة البريطانية . إنظر النص في هـ . طعمة : الخليج العربى .. ص٣١ - ٣٢ .

١٨ - محمد رشيد الفيل : « الأهمية الإستراتيجية للخليج العربي » ، الخليج العربي في مواجهة التحديات بمحاضرات الموسمين الثقافيين ١٩٧٤ - ١٩٧٥ . الكويت ، ص ٤٦ .

١٩ - عن بيان من مجلس النواب الفرنسي لسنة ١٨٩٣ أورده ا. ويلسن : الخليج العربي ، ص ٣٨٦

٢٠ - Sir Pery Sykes History of Persia, London 1951, I. II, p. 254

٢١ - محمد ر. الفيل : « الأهمية الإستراتيجية ..... ص ٥٥ .

٢٢ - أنظر لوريمر : دليل ......ص ٤٢٤ .

٢٣ - المصدر نفسه ص ٤٣٨

٢٤ - المصدر نفسه ص ٤٥٢

٢٥ - نشير في هذا المجال إلى بعض الإتفاقيات الإقتصادية والعسكرية والسياسية الموقعة مع مطلع التسعينات ونذكر منها خاصة إتفاقيات أوت ١٨٩١ ، أوت ١٨٩٢ وديسمبر ١٨٩٣ .

٢٦ - مصطفى عبدالقادر النجار : دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ص ٧١

٢٧ - لوريمر : دليل ..... ص ٤٧٧

٢٨ - C.N Curzon, The Perians.. op. cit.p. 495

٢٩ - حول تواصل هذه المطامع الروسية إنظر على سبيل المثال : نوري عبدالبخيت : « روسيا ومشروع سكة حديد بغداد » المؤرخ العربي ، عدد . ١٩٨٠ .

٣٠ ـ إهتم الفرنسيون بمنطقة الخليج منذ القرن السابع عشر حيث أسسوا سنة ١٦٦٢ شركة الهند الشرقية الفرنسية على غرار شركة الهند الشرقية البريطانية وقد تواصل هذا الإهتمام مع وصول نابليون بونابرت إلى مصر ومحاولته تركيز موطىء قدم له بخليج مسقط وعمان .

٣١ ـ محمود علي الداود : محاضرات عن الخليج العربي ....ص ٢٢

٣٢ ـ لوريمر : دليل ......ص ٤٢٩

٣٣ ـ المصدر نفسه . ص ٤٣٧

٣٤ ـ حول « البرنامج الكبير » إنظر : V. Bernard, Le sultan, i'lsam, et Les Puissances, paris, 1907, P. 41

٣٥ ـ آ. ويلسن : الخليج العربي .... ص ٣٨٦

٣٦ ـ لوريمر : دليل .....ص ٤٧٦

٣٧ ـ محمد مرسي عبدالله : دولة الإمارات ...ص ٣٥

٣٨ ـ حول قضية الأعلام والخلافات في هذا الشأن بين فرنسا وإنجلترا . إنظر م.ع. الداود : محاضرات ...ص ٨٧

٣٩ ـ لوريمر : دليل ٤٥٣

٤٠ ـ المصدر نفسه . ص ٤٧٩ .

٤١ ـ R. vadala: Le golfe persigue, paris, 1920, p.33

٤٢ ـ بصرة كورفزي ....ص ١

٤٣ ـ المصدر نفسه . الصفحة نفسها .

٤٤ ـ تتراوح الكثافة السكانية بالأجزاء الأوربية حسب إحصاء ١٨٩٨ فيما بين ٥٤ ساكنا بالميل الواحد (البانيا) و ٤٢٠ ساكنا بالميل الواحد (القسطنطينية) إلا ان المعدل العام بهذه الأجزاء حوالي ٨٨ ساكنا بالميل الواحد . إنظر : دائرة المعارف : تاليف بطرس البستاني

٤٥ ـ المصدر نفسه .

٤٦ ـ حسب احصاء ١٨٩٨ . تعتبر ولايتي الحجاز (٣ ساكن بالميل الواحد) والبصرة (١٣ ساكنا بالميل الواحد) اقل المناطق سكانا مقارنة بمساحاتها . إنظر المصدر نفسه . ص ٧٢٠ ـ ٧٢١ .

٤٧ ـ بصرة كورفزى ... ص ١ .

٤٨ ـ المصدر نفسه الصفحة نفسها .

٤٩ ـ المصدر نفسه الصفحة نفسها .

٥٠ ـ بعثت ولاية البصرة لأول مرة . وانفصلت عن ولاية بغداد سنة ١٨٧٥ . ثم اتحدت الولايتان سنة ١٨٧٩ .

٥١ ـ Vital Cuinet: La Turquie d,Asie,geographie adminstrative, Paris, 1893 TIII,P.216—

٥٢ ـ أورد أدموف أن مساحة الولاية قد تكون ١٥٠ الف كلم مربع . انظر : الكسندر

ادامونى : ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها . ترجمة هاشم صالح التكريتي . بغداد : ١٩٨٢ . ج ١ . ص ١٠

٥٣ ـ المصدر نفسه ص ٦٠

٥٤ ـ حول التنظيم الاداري لولاية البصرة والمناطق التابعة لها . إنظر : V. Cuinet: La Turguie d'Asie -Op-cit. III,P.217.

٥٥ ـ أ . أدامونى : ولاية البصرة ... ص ٧٩ .

٥٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٩ ، وحسب كويني (V. Cuinet) يرتفع هذا العدد الى ٩٥٠ ألف نسمة ، إنظر : V. Cuinet, La Turquie d'Asie, op.cit, III, P.220

٥٧ ـ بصرة كورفزي .. ص ١

٥٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٤

٥٩ ـ خلال سنوات ٩٦ ـ ١٨٩٧ قام نزاع بين الأتراك واليونانيين من أجل جزيرة كريت وقد حقق فيه العثمانيون في البداية انتصارات هامة أرجعها البعض الى تأطير الجيش العثماني من قبل الضباط الألمان .

٦٠ ـ بصرة كورفزي ... ص ٤

٦١ ـ منذ ١٨٧٧ احتلت إنجلترا منطقة بلوشستان (اليوم مقاطعة في الباكستان) وقد تطور النضال في الهند وفي بلوشستان مع أواخر القرن التاسع عشر بظهور بعض التيارات الوطنية الراديكالية الداعية الى اعتماد العنف وسيلة ضد الانجليز (قيادة Talak).

٦٢ ـ جون كيلي : «بريطانيا والخليج (١٧٩٥ ـ ١٨٧٠) . ترجمة محمد أمين عبدالله عمان ، ج ٢ ٦٤٠ .

٦٣ ـ بصرة كورفزي ... ص ١

٦٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٢

٦٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٥

٦٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٥

٦٧ ـ أورده م.ع. الداود : محاضرات ....ص ١١٧

٦٨ ـ بصرة كوفزي .....ص ٥

٦٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٦

٧٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٦

٧١ ـ المصدر نفسه ، ص ٢

٧٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٣

٧٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٤

٧٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٦

٧٥ ـ المصد نفسه ص ٤

٧٦ ـ المصدر نفسه ص ٤

٧٧ ـ المصدر نفسه ص ٣

٧٨ ـ المصدر نفسه ص ٣

٧٩ ـ المصدر نفسه ص ٣
٨٠ ـ المصدر نفسه ص ٣
٨١ ـ المصدر نفسه ص ٣
٨٢ ـ المصدر نفسه ص ٣
٨٣ ـ منذ مطلع سنة ١٨٩٦ تحدثت الصحف العالمية عن استعداد روسيا للتدخل في بلاد الارمن لتفكيك الامبراطورية وبالتالي تقسيمها ، إنظر :
T.G.Djuvara: Cent projets de Partage de La Turguie (1281-1913), Paris,1914,P.430
٨٤ ـ بصرة كورفزى ... ص ٣
٨٥ ـ منذ القرن السادس عشر كان الجزء الغربي من أرمينيا تحت النفوذ العثماني على حين كان الجزء الشرقي يخضع للفرس .
٨٦ ـ بصرة كورفزي ... ص ٥
٨٧ ـ المصدر نفسه ص ٦
٨٨ ـ المصدر نفسه ص ٦
٨٩ ـ انظر حول تطور هذه الاستثمارات الفرنسية بالامبراطورية العثمانية :
J.Thobie :Interets et imperialisme francais dans l,empric Ottoman (1895-1914) Paris, 1977
٩٠ ـ مصطفى عبدالقادر النجار : التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي ، البصرة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٩
٩١ ـ صلاح العقّاد : التيارات السياسية .. ص ١٧٣ ، ج ، كيلي : بريطانيا والخليج (١٧٩٥ ، ١٨٧٠) ترجمة محمد أمين عبدالله ، ج ٢ ص ٥٨٤
٩٢ ـ لوريمر : دليل ... ص ٤١٤
٩٣ ـ نذكر على سبيل المثال لا الحصر الحادثة التي وقعت بالحسا سنة ١٨٨٠ ، اذ ألقى القائد العسكري التركي القبض على الحاكم المدني التركي وسجنه . لوريمر : دليل . ص ٤٣٥
٩٤ ـ ان تاريخ منطقة الخليج بصورة عامة ملىء بالانتفاضات المتكررة ضد الحكم العثماني .
٩٥ ـ انظر : أرشيف قصر يلدز : قسم ١٤ ، أوراق ٤١٣ ، ظرف ١٢٦ ، ملف ٩ وكذلك بنفس الارشيف قسم ١٤ ، أوراق ١٠/٨٨ ، ظرف ٨٨ ، ملف ١٢ تحت عنوان «بصرة سنجق احتياجات واصلاحات دائر لائحة در»
٩٦ ـ بصرة كورفزى ... ص ١ و٢
٩٧ ـ المصدر نفسه ص ٤
٩٨ ـ المصدر نفسه ١٢
٩٩ ـ لقد كان منصب لندن محبذا ومقبولا لأنه يفتح مجالا واسعا للدخول الى الميدان السياسي من بابه العريض . أفلم يكن رشيد رضا صانع فرمان

التنظيمات سفيرا بلندن . انظر حول اهمية هذا المنصب :

Ahmet Ali: Developpement economigue en Turquie, Paris, 1981,P.30

١٠٠- حول التجارة واهميتها بمنطقة الخليج والبصرة ، إنظر : حسين أحمد القهواتي «أضواء على تجارة البصرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر» . الخليج العربي مجلد ١٢ عدد ٢ - ١٩٨٠ ، وكذلك مصطفى عبدالقادر النجار شركة الهند الشرقية ملامحها وأبرز سماتها في الخليج العربي «مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ١٥ السنة الرابعة ، ١٩٧٨ ، وكذلك خالد خليفة الخليفة» : تجارة البحرين منذ فتح العتوب وحتى ظهور النفط ، الوثيقة عدد ٧ السنة الرابعة ١٩٨٥ ، وكذلك محمود طه أبو العلا ، أهمية النشاط البحري لدول الخليج العربي في مواجهة التحديات . محاضرات الموسمين الثقافيين السابع والثامن ، ١٩٧٤ . ١٩٧٥ .

١٠١- Landey, R.G: Oman since 1856, Princeton, New-Jersey, 1967, PP. 125-131

١٠٢- محمود طه أبو العلا : «أهمية النشاط» ص ٦٥٤

١٠٣- خالد خليفة الخليفة : «تجارة البحرين» ص ٤٠

١٠٤- إنظر أسماء هذه الشركات في : V. Cuinet: La Turquie d'Asie, op. cit III pp. 246-247

١٠٥- المصدر نفسه ص ٢٤٦ - ٢٤٧

١٠٦- المصدر نفسه ص ٢٤٩

١٠٧- المصدر نفسه ص٢٤٩

١٠٨- هادي طعمة : الخليج العربي في الاستراتيجيات الاستعمارية والبريطانية خاصة : ١٩٧١ ، ص ٢١

١٠٩- بصرة كورفزي .. ص ٧

١١٠- المصدر نفسه ص ٧

١١١- المصدر نفسه ص ٧

١١٢- حول اليمن وانتفاضة ١٨٩١ - ١٨٩٢ ، انظر : فاروق عثمان أباظة : الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢ - ١٩١٨) القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٧ .

١١٣- أرشيف قصر يلدز قسم ١٤ ، أوراق ٢٥١ ، ظرف ١٢٦ بملف ٨ قطر حادثة سنك وأسباب وصورت وقوعي وكذلك . أحمد العناني «الوجود التركي في قطر من ١٨٧١ - الى ١٩١٥ المؤرخ العربي» عدد ١٢ - ١٩٨٠ .

١١٤- بصرة كورفزى ... ص ٨

١١٥- المصدر نفسه ص ٨

١١٦- المصدر نفسه ص ٨

١١٧- المصدر نفسه ص ٧

١١٨- المصدر نفسه ص ٧

١١٩- المصدر نفسه ص ٨

١٢٠ـ المصدر نفسه ص ٧
١٢١ـ المصدر نفسه ص ٧
١٢٢ـ حسين أحمد القهواتي : «أضواء» .. ص ٢٩
١٢٣ـ لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث . موسكو ، ١٩٧١ ص ٣٨١ .
١٢٤ـ عبّاس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين (العهد العثماني الاخير بغداد ، ١٩٥٦ ، ج ٨ ص ٨٣
١٢٥ـ المصدر نفسه ، ص٣٤
١٢٦ـ المصدر نفسه ، ص ١١٣
١٢٧ـ أورده : Baron Ludovic de Contenson: Les re´formes en Turquie d'Asie: la question arme´nienne, la question syrienne, Paris, 1913, p. 3
١٢٨ـ بصرة كورفزي .. ص ٨
١٢٩ـ المصدر نفسه ص ٨
١٣٠ـ المصدر نفسه ص ٧
١٣١ـ المصدر نفسه ص ٨
١٣٢ـ المصدر نفسهص ٨
١٣٣ـ المصدر نفسه ص ٨
١٣٤ـ لوريمر : دليل : .. ص١٥٢٥ ـ ١٥٢٦ (مراسلة سفير بريطانيا في الاستانة الى الخارجية العثمانية) .
١٣٥ـ هادي طعمة : الخليج العربي ... ص ٣١ ـ ٣٢
١٣٦ـ مثلت بريطانيا دور الحكم في هذا الخلاف حيث أسندت الى ثويني مسقط على حين احتفظ أخوه خالد بجزر زنجبار (التي كانت تحت نفوذ مسقط) على أن يدفع الثاني لأخيه تعويضا ماليا سنويا .
١٣٧ـ ج . كيلي : بريطانيا ... ص٦٣٩
١٣٨ـ بصرة كورفزى ... ص ٩
١٣٩ـ لوريمر : دليل ... ص ٤٨٠
١٤٠ـ بصرة كورفزي ... ص ٩
١٤١ـ المصدر نفسه ص ٩
١٤٢ـ ان القوات العسكرية بالخليج تنتمي الى لواء بغداد . إنظر حول القوات البرية بالخليج V.Cuinet: La Turquie d'Asie, op. cit t.III, pp. 216-217
١٤٣ـ H. Mathieu: La Turquie et ses diffe´rents peuples, Paris t.III, p. 291.
١٤٤ـ بصرة كورفزى ... ص ١٠
١٤٥ـ المصدر نفسه ص ١٠
١٤٦ـ المصدر نفسه ص ١٠
١٤٧ـ المصدر نفسه ص ١٠
١٤٨ـ محمود علي الداود : محاضرات عن الخليج العربي ... ص ٤١
١٤٩ـ انظر في هذا الشأن : ج . أ . القهواتي : «أضواء» ... ص ٢٤

١٥٠ـ أرنولد ويلسن : الخليج العربي ... ص ٤٢٤
١٥١ـ لوريمر : دليل ... ص ٤٩٠
١٥٢ـ م . ع . الداود : محاضرات ... ص ٣٩
١٥٣ـ لوتسكي : تاريخ الأقطار ... ص ١٧٢
١٥٤ـ ج . أ . القهواتي : «اضواء» ... ص ٢٥
١٥٥ـ المصدر نفسه ، ص ٢٦
١٥٦ـ V. Cuinet: La Turquie d'Asie, op. cit t.III, p. 244
١٥٧ـ لوريمر : دليل ... ص ٤٦٠
١٥٨ـ V. Cuinet: La Turquie d'Asie, op. cit t.III, p. 246
١٥٩ـ لوريمر : دليل ... ص ٤٦٠
١٦٠ـ بصرة كروفزى ... ص ١١
١٦١ـ المصدر نفسه ص ١١
١٦٢ـ المصدر نفسه ص ١١
١٦٣ـ المصدر نفسه ص ١٠
١٦٤ـ المصدر نفسه ص ١٠
١٦٥ـ المصدر نفسه ص ١٠
١٦٦ـ المصدر نفسه ص ١١
١٦٧ـ Afet Inan: A Percu ge'ne'ral sur l'histoire e'conomique de l'empire Turc-Ottoman, Ankara, 1976 (2° e'dition), p. 81
١٦٨ـ بصرة كورفزى ... ص ١١
١٦٩ـ المصدر نفسه ص ١١
١٧٠ـ Afet Inan: A Percu ge'ne'ral sur l'histoire e'conomique, op. cit. p. 85
١٧١ـ حول مختلف هذه المشاريع وما كان حولها من ملابسات إنظر : م. ع . الداود : محاضرات ... ص ١٨٨ ، وما بعد ذلك وكذلك ع . نوار : تاريخ العرب المعاصر : مصر والعراق ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ . وكذلك نورى عبدالبخيت «روسيا ومشروع سكة حديد بغداد» المؤرخ العربي عدد ١٥ ، ١٩٨٠ .
١٧٢ـ بصرة كورفزى ... ص ١١
١٧٣ـ V. cuinet; La Turquie d'Asie, op. cit. IV, p. 336
١٧٤ـ حول التيارات الثلاث وتطوراتها انظر :
Franc,ais Georgeon: Aux origines du nationalism turc: Yusuf Akc,ura, Paris, 1980, pp. 17-18.

صراع الدولتين العثمانية والبرتغالية في الخليج العربي "البصرة والحجاز"

بقلم : الدكتور
جاهد بلطه جي (تركيا)

ان ما يتمتع به الشرق من ثروات كبيرة كان مطمع الغربيين منذ القديم فاسترعى انتباههم الى هذه البقعة من العالم وحاولوا الاستيلاء عليها بشتى الطرق والوسائل في مختلف المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، فقادوا حملات صليبية عديدة اشترك فيها مئات الألوف من ابنائهم فتصدى لها صلاح الدين الايوبي والسلاجقة والعثمانيون فأصيبت بالفشل الذريع واخفق الغربيون في تحقيق آمالهم بالغزو العسكري فراحوا يبحثون عن وسائل أخرى تمكنهم من السيطرة على الشرق ولا سيما على طرق البهارات والحرير.

والبرتغال من الدول الاوربية التى كانت قد حظيت بنصيب وافر من الغنى واليسار من مستعمراتها وتجارتها البحرية، فدفعها ذلك الى تحرى سبل أخرى للوصول الى



الشرق، فقام البحار البرتغالي فاسكو دوجاما عام ١٤٩٨ بمحاولة بحرية سلك فيها طريق رأس الرجاء الصالح ووصل الى الهند كما هو معلوم عنه. ومنذ ذلك التاريخ ازداد اهتمام البرتغاليين بالشرق فكانوا يهدفون الى تغيير الاتجاه في طريق البهارات القديمة ونقل السلع الهندية الى الغرب الى طريق رأس الرجاء الصالح بدلا من البحر الاحمر والبحر المتوسط. ومن أجل تحقيق ذلك قام الربان البرتغالي «البوكيرك» عام ١٥١٥ بالاستيلاء على كل من جزيرة سقطرة في مدخل البحر الاحمر ومضيق هرمز عند مدخل الخليج العربي فقطع السبيل على سفن المسلمين في نقل السلع الشرقية الى البحر المتوسط.

وجدير بالذكر أن اقوى دولة في المنطقة في ذلك التاريخ كانت دولة المماليك في مصر وكان عليها التصدى للبرتغاليين وصدهم عن المنطقة. وهذا ما وقع فعلا، فقام السلطان المملوكي «قانصوه الغورى» عام ١٥٠٨ بارسال اسطول بقيادة حسين بك تلبية لطلب النجدة من حاكم كجرات محمود خان الأول (١٤٥٨ ـ ١٥١١) ضد الاعتداءات البرتغالية. ثم بعث اسطولا آخر بقيادة «سلمان رئيس»

الا ان الاضطرابات التى وقعت في اليمن حالت دون تحقيق سلمان رئيس، لمهمته فعاد دون ان يفعل شيئا. والواقع ان دولة المماليك كانت تفقد سيطرتها على الأوضاع في المنطقة، وكانت الانظار تتجه الى الدولة العثمانية لحل مشاكلها.

وبعد ان استقر الحكم العثماني في سوريا ومصر والحجاز عام ١٥١٧ وبغداد عام ١٥٣٤ والبصرة عام ١٥٣٨ وقعت المجابهة بين العثمانيين والبرتغاليين وذلك لأن اغلاق مداخل البحر الاحمر والخليج العربي من قبل البرتغاليين أمر يتعارض مع المصالح السياسية والتجارية للدولة العثمانية التى اصبحت خادمة الحرمين الشريفين وتولت حمايتهما من كل عدو داخلي أو خارجي. كما انها كانت قد فتحت لنفسها بابا للجهاد في أوربا المسيحية، ولكي تتمكن من المضي والاستمرار في جهادها كان عليها ان تسيطر على ينابيع القوة والثروة ومنها طرق البهارات والحرير.

ومن ناحية اخرى كان حاكم كجرات قد لجأ الى طلب النجدة من العثمانيين ضد الاعتداءات البرتغالية. فبعث سلطان كجرات نادر شاه رسولا الى السلطان العثماني في ١٥٣٥ يطلعه على ما تعانيه بلاده من اعتداءات عليها من قبل المغول في البر والبرتغاليين في البحر، حتى انه ذكر في رسالته الى السلطان العثماني انه أودع ثلاثمائة صندوق ذهبا وفضة أمانة في مكة المكرمة وطلب منه صرف هذا المبلغ في تجهيز اسطول لمجابهة البرتغاليين.

أما الدولة العثمانية فانها كانت على اتم ادراك بحاجتها الى اسطول كبير للوقوف في وجه التوسع البرتغالي في المحيط الهندي، وذلك هو الذي حملها على تقديم مساعدة للمماليك في انشاء ترسانة بالسويس وكان ذلك في عهد السلطان «بايزيد الثاني». ولما حكمت الدولة العثمانية مصر بادرت الى توسيع ترسانة السويس وبناء اسطول جديد اطلقت عليه اسم اسطول السويس من السفن الحربية التى تم انشاؤها في هذه الترسانة. كما ان العثمانيين انشأوا اسطولا يعمل على نهر الفرات اطلقوا عليه اسم اسطول «بيره جك» لاستخدامه في صد أى عدوان قد تتعرض له بغداد سواء من البرتغاليين عن طريق خليج البصرة أو من غيرهم.

وأول مجابهة بين العثمانيين والبرتغاليين كانت في جزيرة قمران فتصدى لهم سلمان رئيس الذي كان قد بذل طاعته وانقيادة للدولة العلية، وكان سلمان رئيس قد استرد هذه الجزيرة مع زميله «حسين بك» بجده من البرتغاليين في عهد الخائن أحمد باشا والي مصر. والمجابهة الثانية بين الطرفين كانت في جزيرة «ديو» الواقعة في غرب الهند. ونادر شاه الذي طلب

النجدة من العثمانيين ضد البرتغاليين كان قد لقى حتفه في مصادمة معهم بجزيرة ديو عام ١٥٣٧ وخلفه في الحكم ميران محمد شاه الفاروقي ثم ال الحكم الى أحد أقرباء نادر شاه سليل الاسرة الحاكمة في كجرات وهو محمود الثالث. وعندما قدم قائد الاسطول العثماني «خادم سليمان باشا» بقواته البحرية الى جزيرة ديو قاومه محمود الثالث المذكور ووقف في وجه القوات العثمانية بالاتفاق والتحالف مع البرتغاليين. والقوات العثمانية التى نزلت في البر حاصرت قلعة ديو عشرين يوما واسقطت بعض مدافعها ولكنها اضطرت الى الانسحاب بسبب الاحوال الجوية وعادت الى ميناء مخا في اليمن.

وبعد سلمان رئيس وخادم سليمان باشا استمر الصراع العثماني - البرتغالي مع «بيرى رئيس» حيث ان البرتغاليين اغتنموا فرصة عودة سليمان باشا الى مصر وحاولوا احتلال ميناء جدة الا ان محاولتهم هذه باءت بالفشل أمام المقاومة العنيدة من محافظ قلعة جدة والامدادات التى بعث بها أمير مكة المكرمة. وفي اعقاب ذلك اتجهوا الى مصر وحاولوا احتلال ترسانة السويس واحراق الاسطول العثماني فلم يفلحوا في ذلك ايضا. غير انهم أحرقوا مدينة طور سينا، كما انهم احتلوا عدن عام ٩٥٠ هـ - ١٥٤٣م، وبعد مدة قصيرة من احتلالهم لعدن اجلاهم عنها «بيرى رئيس» قائد اسطول السويس.

وفي عام ٩٥٨ هـ - ١٥٥١م توجه بيرى رئيس باسطوله المؤلف من ثلاثين سفينة الى الهند فمر على جدة ووصل الى عمان والحق مسقط بالحكم العثماني وتصدى لسبعين سفينة حربية للبرتغاليين فهزمهم والجأهم الى قلعة هرمز على مضيق هرمز.

وبعد بيرى رئيس اسندت قيادة اسطول السويس الى «مراد رئيس» الذي كان أمير لواء البحرين، فتسلم راية الكفاح ضد البرتغاليين الذين دأبوا في هذه الأونة على تقوية اسطولهم في بحر الهند وعدن، والتقى باسطولهم بالقرب من هرمز ودخل معهم في حروب بحرية عنيفة ولكنه لم يفلح في ذلك فاضطر الى الانسحاب الى البصرة.

وبسبب اخفاقه في مهمته تم عزله من منصبه وتعيين «سيدى علي رئيس» في ٩٦٠ هـ - ١٥٥٣ م محله. فأصبح قائدا لاسطول السويس، واستطاع ان يفك الحصار المضروب على الاسطول العثماني في البصرة والقضاء على ما لقيه من السفن البرتغالية ولكنه اضطر الى مكافحة العواصف الشديدة في البحر فافقده ذلك قدرته على الحرب ولجأ الى سواحل الهند.

وبعد «سيدى علي رئيس» تم تعيين «قورد اوغلو خضر رئيس» في قيادة

اسطول السويس. وفي ذلك الوقت كان السلطان علاء الدين يحكم جزيرة «سومطرة» وشبه جزيرة «ملاكا» باسم سلطنة اجه الاسلامية، فارسل وفدا الى استانبول في ١٥٦٧/٩/٥ [١] برئاسة أحد رجاله واسمه «حسين» لطلب النجدة من الدولة العثمانية. وجاء في رسالته الى السلطان العثماني ان البرتغاليين يحاربون الدولتين الاسلاميتين سيلان وكالكوتا، وانه بحاجة الى مدافع وبنادق وعساكر لمجابهتهم وطلب من السلطان العثماني تزويده بذلك. فصادف مجيء هذا الوفد وجود السلطان العثماني في سفر (غزوة) «زيغتوار» ووفاته وادى ذلك الى بقاء الوفد في استانبول لمدة سنتين.

ورغم وفاة السلطان سليمان القانوني وافقت الدولة العثمانية على طلب النجدة للدولة الاسلامية، وقررت اسعافه باسطولها في السويس وجهزت اكثر من عشرين سفينة حربية بقيادة قبطان السويس «قورد اوغلو خضر رئيس» وفي الوقت الذي تأهبت فيه السفن العثمانية للابحار اندلعت ثورة الزيديين في اليمن بزعامة الامام مطهر واقتضى الأمر تكليف «خضر رئيس» بمهمة اخمادها، أما طلب النجدة للدولة الاسلامية «اجه» فتم تحقيقه ايضا فارسلت سفينتان الى سومطرة تحملان الادوات والمعدات اللازمة والخبراء، وهؤلاء العثمانيون الذين ذهبوا الى سومطره توطنوا فيها واظن ان لهم احفادا لا يزالون يعيشون في جزر اندونيسيا حتى اليوم.

ان المحاولات البرتغالية الرامية الى فرض السيطرة على هذه المنطقة وكذلك المظالم التى ارتكبها البرتغاليون في الخليج العربي يمكن الوقوف عليها ومتابعتها من وثائق الارشيف العثماني باستانبول.

ومن هذه الوثائق العثمانية حكم صدر بتاريخ ٩٧٨ هـ ـ ١٥٧٢ م في عهد السلطان سليم الثاني الى أمير امراء مصر وجاء فيه :

«أفادت المعلومات الواردة من البحرين ان الكفرة البرتغاليين لا يزالون يغيرون على جوانبها بسفنهم الحربية فيفسقون فيها باسر المسلمين ونهب أموالهم وقد يصل ضررهم الى جوانب مخا وعدن فقبطان مخا ليست لديه سفينة مطلقا والدفاع عن تلك البقاع من المهمات فعليك تجهيز سفينتين حربيتين من السفن المتواجدة في السويس تجهيزا كاملا بآلالات والمعدات الحربية والرجال وارسالهما الى قبطان مخا لاستخدامهما في الدفاع عن نواحى عدن ومخا ومتابعة الاحوال والأوضاع في اليمن بارسال من يأتيك باخبارها في كل حين، فلا ينبغي ان يلحق ضرر من الكفرة الفجرة لمدن أو أى محل آخر فلا تهمل مهمة الدفاع

عن تلك النواحي والاصقاع واتخذ جميع التدابير اللازمة لحراستها ولا تفوتنك لحظة واحدة في باب الاهتمام بها، كما عليك اعلام استانبول عن كيفية تجهيزك للسفن وتاريخ ارسالها وما تحصل عليه من أخبار ومعلومات صحيحة عن الأوضاع السائدة في اليمن والبنادر الواقعة فيها وفي الحجاز. في ١٥ جمادى الآخرة سنة ٩٨١ هـ» (٢)

وجاء في وثيقة أخرى يعود تاريخها الى هذا العهد أيضا ان البرتغاليين احتلوا بعض الاجزاء من ولاية الحبشة وقتلوا سكانها واستولوا على بعض القلاع في الهند وأغاروا على سواحل اليمن والحبشة والحجاز بسفنهم فصدر حكم الى أمير امراء مصر بانشاء عدد كاف من السفن الحربية في السويس وتم مدّه بالاخشاب السواكن وسائر المعدات اللازمة لانهائها وتزويد حسن بك أمير لواء السويس بتعليمات حول تجهيزه السفن والوقوف بها على أهبة الاستعداد وأمر السواقين بارسال المعدات اللازمة كما جاء فيها أمر صارم بعدم السماح للعدو باحتلال البنادر (٣).

ويبدو من ذلك ان البرتغاليين كانوا قد عقدوا العزم على فرض سيطرتهم على منطقتي الحجاز والبصرة، أما العثمانيون فكانوا مصممين على ردهم من هذه المناطق لحماية وحراسة الحرمين الشريفين والحيلولة دون وقوع طرق نقل السلع الشرقية الى الغرب في أيد غير اسلامية.

وهذا الموقف الحازم للعثمانيين حال دون وقوع الحجاز والبصرة في يد غير المسلمين فبقيت تلك المناطق تحت الاشراف العثماني فكان لهم التفوق في البحر المتوسط الاّ انهم لم يستطيعوا ان يحققوا ذلك في بحر الهند لان ترسانة السويس لم تكن كافية لتحقيق هذا الهدف، فكان الأمر يتطلب أما انشاء ترسانة كبيرة في السويس أو فتح قناة فيه تفسح المجال أمام الاسطول العثماني في البحر المتوسط للعبور الى البحر الاحمر ومنه الى بحر الهند. واختار العثمانيون الحل الثاني وصدر حكم بتاريخ ١٢ رجب ٩٧٥ هـ الى أمير أمراء مصر بأمره باعداد مشروع في فتح قناة السويس تربط بين البحر المتوسط والبحر الاحمر بارسال تقرير عنه الى استانبول (٤) ورغم كل ذلك فان العثمانيين كانوا يميلون الى عقد صلح مع البرتغاليين، والرسالة التى بعث بها السلطان العثماني الى ملك البرتغال «سبستيان» في شهر ربيع الآخر لعام ٩٧٢ هـ تدل على ذلك.

ويقول السلطان العثماني في رسالته هذه :

«ان كان قصدكم الصلح والسلام فكفوا أيديكم عن الاعتداء على الحجاج والتجار عند وصول رسالتنا

الهمايونية وابعثوا الينا رسالتكم مع مندوبكم المعتمد عليه ليصار الى تقرير النظام في تلك الاصقاع». (٥)

وهكذا كان العثمانيون يبحثون عن وسائل انزال اسطول كبير في بحر الهند من ناحية وامكانات عقد الصلح مع البرتغاليين من ناحية أخرى، لأن البرتغاليين كانوا يغيرون باساطيلهم القوية على الدول الاسلامية الصغيرة في المنطقة ويوقعون بها الاضرار.

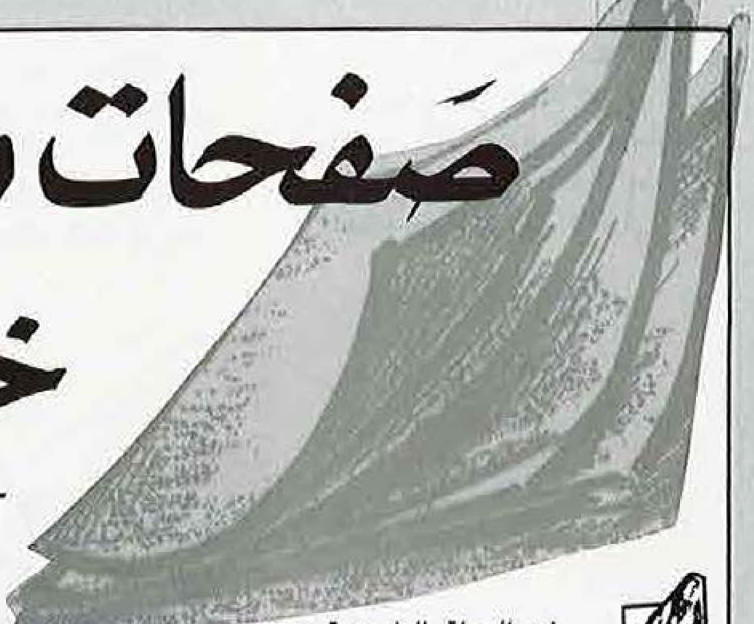
الهوامش

(١) دفتر مهمة ٧، الصفحة ٨٦ ـ ٩٠
(٢) دفتر مهمة ٢٢، الصفحة ٦٤
(٣) دفتر مهمة ٤٨، الصفحة ٣٣
(٤) دفتر مهمة ٧، الصفحة ٢٨٥
(٥) دفتر مهمة ٦، الصفحة ١٦٦

صَفحات من تـ

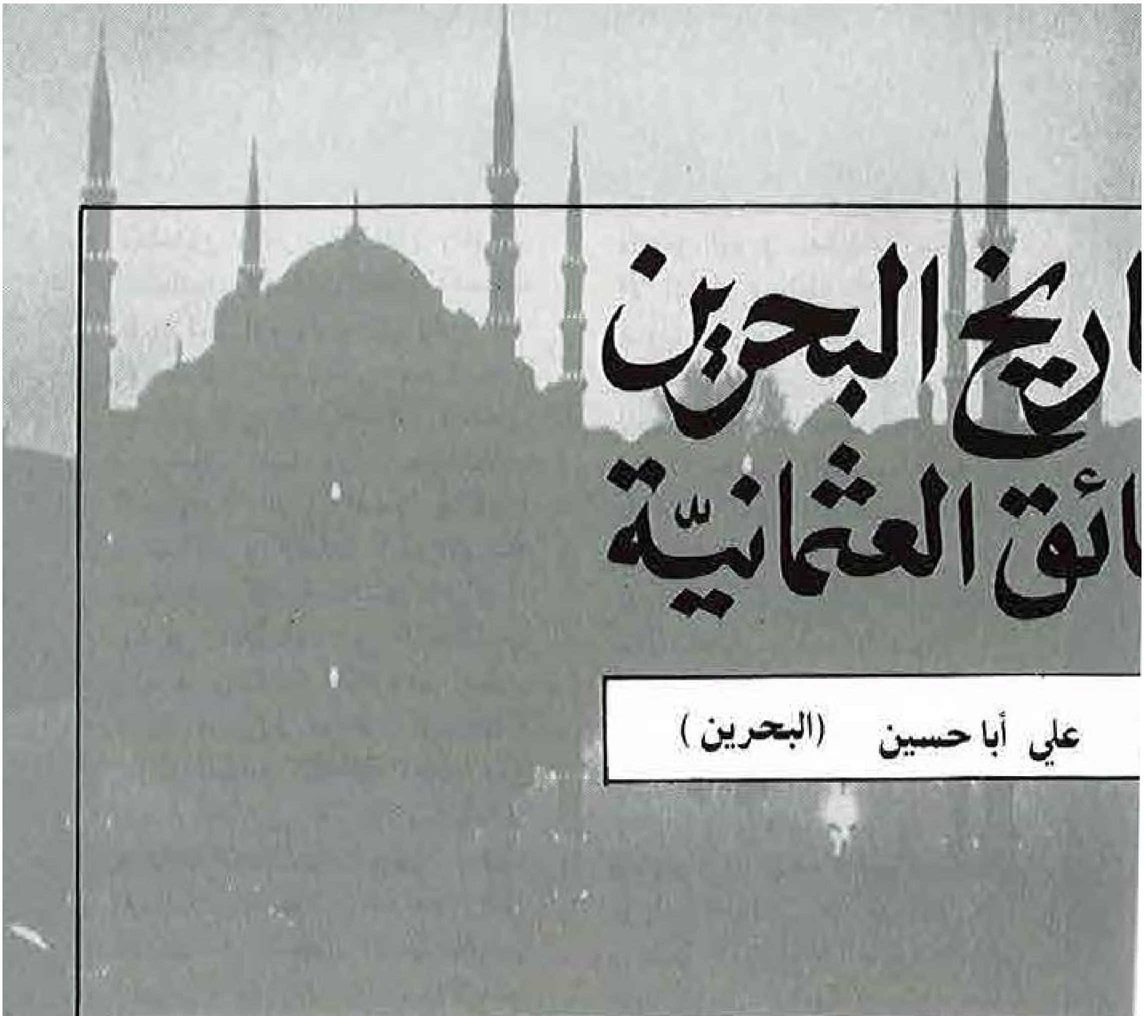
خلال الو

بقلم : الدكتور





إن الصلة التاريخية بين البحرين والدولة العثمانية تبدأ منذ ان بدأت العلاقات العثمانية بالشرق الاوسط وذلك في القرن السادس عشر ، ولا شك ان الوثائق تكون أهم مصادر التدوين التاريخي فلا تاريخ بدون وثائق فلقد كشفت لنا الوثائق العثمانية عن بعض الحقائق في تاريخ البحرين مما اغفل ذكره المؤرخون . وسوف نستعرض طرفا منها سبق وان نشرنا بعضها فقد شهد القرن الخامس عشر نشاطا سياسيا سبق التدخل البرتغالي المسلح في الخليج العربي حين اوفد (بيدرو) البرتغالي شقيق (هنري الملاح) بعثة الى البلاط العثماني واخرى الى البلاط الفارسي وذلك لاجراء اول عملية كشف واستجلاء للامور(١) وارسل ملك البرتغال (دون جوا الثاني) بعثات برتغالية متعددة في صدد البحث عن بلاد التوابل في الفترة ما بين ١٤٨١ ـ ١٤٩٥م ومن هؤلاء (دي كوافيلوا) و (ابراهيم البيجاوي) الذي اوفد الى كل من بلاد فارس والدولة العثمانية واغلب الظن ان بعض اليهود في شبه جزيرة ايبيريا قد لعبوا دورا في نطاق هذه البعثات الاستطلاعية مستغلين فرصة الخلاف التاريخى بين الدولة العثمانية وفارس وبذلك خطط الغربيون خططهم لجذب فارس الى صف الغرب في صراع محتمل مع المسلمين في الشرق بما فيهم العثمانيين والعرب وهكذا فان التفاهم



اريخ البحرين
ائق العثمانية

علي أبا حسين (البحرين)

الحاصل بين البرتغاليين والفرس نتيجة مساع سابقة قد ادى الى الحلف الصفوي البرتغالي ضد العثمانيين والعرب خاصة والمسلمين بصورة عامة [٢] وتأكيداً لذلك فقد اوردت بعض المصادر التاريخية الرسالة التي بعث بها القائد البرتغالي (افونسو دي البوكيرك) الى شاه فارس في عام ٩١٥ هـ/١٥٠٩م والتي جاء فيها : (انني اقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك واعرض عليك الاسطول والجند والاسلحة لاستخدامها ضد قلاع العثمانيين واذا اردت ان تنقض على بلاد العرب او تهاجم (مكة) فستجدني بجانبك في البحر الاحمر امام (جده) او في (عدن) او في (البحرين) او (القطيف) او (البصرة) وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له ما يريد) [٣] . هذه الرسالة تدل على التحالف الاثيم بين البرتغاليين والفرس ضد

العثمانيين والعرب المستقلين والموالين للعثمانيين والمسلمين كافة لانه تحالف موجه ضد اهم مقدساتهم وهي البلد الامين كما انها تعطي صورة عامة للمناطق التي كانت الهدف للاسطول البرتغالي كما تؤكد منطلقاتهم الصليبية التي اخذ يحققها (البوكيرك) لإقامة امبراطورية عريضة في الشرق بتحالفه مع الشاه الفارسي للقضاء على العثمانيين والعرب ومهاجمة مكة ومدن وجزر عربية اخرى وان لم يكن (البوكيرك) يثق كل الثقة في الاتفاقية المعقودة بينه وبين شاه فارس والتي كانت موجهه في جوهرها ضد العرب بسبب تضارب المصالح بين الفرس والبرتغال والتي ظهرت في احتلال البرتغاليين (لهرمز) التي كانت ترتبط بروابط مع فارس .

وفكر البوكيرك ان احتلال مصادر وأسواق التجارة العربية في الشرق الاقصى سيكون عنصرا فعالا ومساعدا في القضاء على القوة العربية في الخليج وتحطيم اقتصادياتها .. من اجل ذلك اتجه لاحتلال بعض مناطق الشرق الاقصى الا انه فشل في ذلك فعاد بقواته الى سواحل الخليج يسوقه حقده الصليبي كاشفا عن اتجاهه لتدمير مقدسات المسلمين في مكة المكرمة واتجه في طريقه الى (عدن) فاشعل النار في سفنها الراسية بالميناء الا انه لم يستطع ان يتقدم كثيرا صوب الحجاز وذلك لأن الدولة العثمانية والكثير من القبائل العربية المساندة لها هبوا جميعا للذود عن مكة المكرمة وحماية المقدسات الاسلامية بها فعادت حملة البرتغاليين خائبة الى الهند دون ان تتمكن من تحقيق اهدافها . ولكن حملات البرتغاليين لم تتوقف ففي سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م انتهز البرتغاليون فرصة انشغال الفرس في حرب مع العثمانيين وارسل البوكيرك ابن عمه (بيرو) الى (هرمز) ووصل بيرو الى (راس كاديفو) فصادف سفينتين تحملان حجاجا مسلمين في طريقهم لاداء فريضة الحج بمكة المكرمة فاسرهما وقد نبه ذلك نحو خمسين سفينة اخرى محملة بالحجاج فلجأت الى ميناء هرمز ونجت من السفن البرتغالية التي واصلت طريقها لاستطلاع جزر (البحرين) .

وحدث ان استطاع العثمانيون انتزاع عاصمة الفرس (تبريز) في معركة حاسمة تسمى معركة (جالديران) في سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م وهنا ظهر في الموقف ظروف جديدة حددت مسار الاطماع التي تداعب خيال القوى الكبيرة والمتواجدة بالمنطقة . فبالنسبة للشاه

اسماعيل الصفوي فقد ادى استيلاء العثمانيين على اجزاء كبيرة من دولته الى اتجاهه للساحل الآخر للخليج في محاولة لاستعادة الثقة بالاستيلاء على مناطق جديدة يعوض بها ما فقده واتجه تفكيره الى (البحرين) و (القطيف) ولكنه لم يكن يملك السفن اللازمة لمثل هذه الحملات البحرية . اما بالنسبة (لافونسو دي البوكيرك) فقد ادى توقف (البحرين) عن دفع عائد بعض العقارات لهرمز في البحرين وهو العائد الذي نص عليه الاتفاق بين توران شاه حاكم هرمز واجود بن زامل الجبري وذلك بعد ان اصبحت هرمز شبه خاضعة للبرتغاليين بالاضافة الى مساعدة (البحرين) لهرمز بالرجال والمال لمقاومة النفوذ البرتغالي .. قدم كل ذلك الذريعة للبوكيرك كي يتجه تفكيره الى (البحرين) خاصة وهي تمثل قاعدة تجارية هامة واحتلالها يساعده على تحقيق هدفه الكبير في تحطيم قواعد وطرق التجارة العربية في الخليج . وازاء هذا الموقف الجديد فقد مال الشاه اسماعيل الصفوي شاه فارس الى اعادة دعم التعاون مع البرتغاليين خاصة وقد اغمضت فارس عينيها عن الهجوم البرتغالي على هرمز وبينما يرسل الشاه الهدايا الى البوكيرك وهي عبارة عن سيف له غمد من الذهب والفي زيرافين (اشرفي) مع سفيره لكي يبحث اسس التعاون مع البوكيرك فاذا بالقائد البرتغالي يرسل سفنه لاحتلال (البحرين) لحساب البرتغاليين وقد قاوم (امير البحرين والقطيف) مقرن بن اجود بن زامل الجبري هجوم البرتغاليين على البحرين (٤) الا انه جرح في المعركة التى انتهت لصالح البرتغاليين حيث احتل البرتغاليون (البحرين) في ١٥٢١م . ولم يركن اهل البحرين للاحتلال البرتغالي وانما شهدت البلاد وبعد فترة قصيرة من الاحتلال بعض صور المقاومة حدثتنا عنها (الوثائق العثمانية) وأولى هذه الصور بدأت في عام ٩٢٨هـ/١٥٢٢م ايام كانت هرمز تابعة للبرتغاليين وكان حاكمها (توران شاه) قد قاوم قرار تعيين موظفين برتغاليين في دار الجمارك ببلاده محل المواطنين واخذ ينسق المقاومة مع (البحرين ومسقط وقريات وصحار) ضد البرتغاليين وفي ليلة واحدة قامت جميع هذه المناطق بترتيب من توران شاه وعلى حين غره بالهجوم على البرتغاليين برا وبحرا . ففي هرمز هاجموا المدافعين البرتغاليين وقتلوا الكثيرين منهم وحاصروا (دوم جرسيا كويتهر) قائد قلعة هرمز البرتغالي ولكن لم يفلح الحصار . اما في (البحرين) فقد

هاجم الاهالي القلعة وقبضوا على قائدها البرتغالي وشنقوه الا ان وصول المدد للبرتغاليين اعاد السيطرة على الموقف . هذه الاحداث فصلتها المصادر العثمانية [٥] ولا بد لنا ان نستعرض طرفا من الاحداث التي مرت في البحرين كما اوردتها (الوثائق العثمانية) فقد بدأت المنطقة تشهد تغييرا في موازين القوى الكبرى اذ جاء للحكم في الدولة العثمانية السلطان (سليمان القانوني) من (٩٢٦ - ٩٧٤هـ) وهو احد الحكام الاقوياء وقد تمكن من طرد الفرس من الاراضي التي احتلتها وكان ذلك في ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ولما كانت عواطف معظم العرب آنئذ تميل الى الدولة العثمانية باعتبارها اكبر دولة اسلامية حاملة لواء الدفاع عن الاسلام فقد أقبلت وفودهم على السلطان (سليمان القانوني) تقدم له الطاعة والولاء مما شجع السلطان العثماني على بسط نفوذه على الاحساء والبحرين (وتذكر الوثائق العثمانية) : انه في ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م منح السلطان العثماني لحاكم البحرين في ذلك الوقت واسمه (رئيس مراد) لقب (سنجق بك) لتقديمه الولاء وقد شهدت هذه السنين اهتماما عثمانيا بالخليج كما شهدت تواجدا اوضح للقوات العثمانية جعل لها دورا بارزا ومباشرا في الصراع الدائر في الخليج مما كان له اثره على الاحداث القادمة فقد ارسل (شرف الدين) حاكم هرمز رسالة للسلطان يطلب منه ارسال مساعدة للتخلص من البرتغاليين في هرمز واستجاب السلطان فارسل اسطولا الى خليج البصرة بقيادة بيري بك [٦] الذي توجه باسطوله ويقال انه احتل (البحرين) ثم انسحب منها دون ان يستطيع مهاجمة هرمز وعادت سفينة عثمانية محملة بالغنائم ولكنها غرقت قرب (البحرين) . وجدير بالذكر ان التاريخ كان ضنينا علينا بذكر تفاصيل الدور الذي لعبته الدولة العثمانية على سواحل الخليج العربي بعد وصول العثمانيين الى سواحل الخليج ولم يتطرق لهذه الفترة احد من المؤرخين المعاصرين لتلك الحوادث امثال (جلال زاده مصطفى) و (بيجويلي ابراهيم) و (جليبو لولو مصطفى علي) اللهم الا (صفوت بك) الذي تعرض لبعضها ونشر بحثا مقتضبا عنها .. واذا كانت عملية التاريخ قد شابها قصور ملحوظ بالنسبة لهذه الفترة في هذه المنطقة الا اننا نلاحظ على العكس ان (الوثائق العثمانية) قد اسهبت في تفصيل الحوادث التي تتعلق بجزر البحرين وان كانت هذه الوثائق لم يتطرق احد

لبحثها حتى الآن بحثا موثقا وربط ما فيها من احداث . وسوف نحاول على ضوء بعض الوثائق ربط الحوادث التاريخية قدر الامكان . فان حاكم القطيف استعان بالعثمانيين للتخلص من النفوذ الهرمزي الموالي للبرتغاليين الا ان البرتغاليين سرعان ما استعادوا القطيف واعادوا الحاكم الهرمزي الموالي لهم خوفا من ان يؤدي احتلال العثمانيين للقطيف الى زعزعة نفوذهم في البحرين وتذكر المصادر العثمانية ان العثمانيين تمكنوا بعد ذلك من الاستيلاء على الحسا بواسطة شخص اسمه (عبدالله) وهو ابن حاكم الحسا السابق . وتستطرد الوثائق العثمانية في وصف الحملة التي جردها العثمانيون في عام ٩٦٠هـ/١٥٥٢م بقيادة (بيرى بك) ايضا للاستيلاء على مسقط و (البحرين) وهرمز اذ خرج بيرى بك في حملته من مصر ومعه ثلاثون سفينة من نوع (الباستارده) و (القادرغه) و (القاليتة) و (القاليون) ووصل الى جده ثم الى عدن فرأس الحد . ولكن سفنه غرقت بسبب الضباب الكثيف وتحطم بعضها بقرب (صحار) في عمان بينما توجه هو ببقية سفنه الى قلعة مسقط وأسر من فيها وكان من بين الاسرى احد القباطنة البرتغاليين ثم اغار على جزيرة (هرمز) وجزيرة برخت ثم وصل الى البصرة حيث وردته الاخبار بان البرتغاليين جمعوا سفنهم وانهم يتجهون اليه في البصرة فخرج متسللا بثلاث سفن من نوع القادرغه قبل ان يصل البرتغاليون وفي الطريق تحطمت واحدة من السفن الثلاث بالقرب من البحرين وتوجه (بيرى بك) بالسفينتين الباقيتين الى مصر تاركا بقية السفن بالبصرة وكانت هذه نهاية (بيرى بك) فقد امر السلطان باعدامه بعد فشله للمرة الثانية في الخليج مع البرتغاليين . وعين السلطان (سليمان القانوني) قائدا جديدا للاسطول هو (علي شلبي) او (علي رئيس) كما تسميه الوثائق العثمانية وذلك في عام ٩٦١هـ/١٥٥٣م وامره بالتوجه الى البصرة لاخراج السفن العثمانية من هناك وتوجه (علي رئيس) الى الخليج فهاجم البرتغاليين في مسقط ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها رغم الخسائر التي تكبدها العثمانيون والبرتغاليون ثم توجه بعد ذلك الى القطيف فسأل عن البرتغاليين فلم يعرف خبرا عنهم فعبر البحر الى (البحرين) حيث اخبره حاكم البحرين (مراد رئيس) بان البرتغاليين ليسوا في البحر .. وكان (علي شلبي) كما ترويه المصادر

العثمانية شاعرا واديبا وتقدم الوثائق العثمانية التي تحكي عن رحلته معلومات مفصلة عن البحرين ، وقد جاء فيها : وصلت الى مدينة القطيف الواقعة بالقرب من الحسا (الاحساء) وهناك وجدنا دليلا فسألناه عن العدو البرتغالي ولم نتمكن من الحصول على خبر بهذا الشأن فاجتزنا البحر الى (البحرين) حيث التقينا (بمراد رئيس) او (رئيس مراد) وهو حاكم البحرين فسألناه كذلك عن العدو فقال ايضا ان العدو ليس بالبحر . وفي (البحرين) وجدنا ويالها من حكمة عجيبة - الغواصين وكل واحد منهم يمسك بيده زقا ويغوص في البحر حوالي ثمانية باعات (الباع حوالي متر ونصف المتر) او اكثر ثم يملأ ما بيده من زق بماء عذب من القاع وكان هؤلاء الغواصون يأتون بالماء العذب الى (مراد رئيس) دائما . وفي ايام الصيف يكون هذا الماء اكثر برودة من المياه الاخرى واكثر عذوبة ايضا وحيث انه كذلك فقد كان (مراد رئيس) يكثر الشرب منه . وقد ارسل مراد رئيس الى هذا العبد (الكاتب يقصد نفسه) من هذا الماء كنوع من مظاهر الاحترام والحقيقة ان هذا الماء - كما يقول - كان جيدا وان الآية الكريمة : « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » إنما تتحدث عن هذا وهم يعتقدون ان هذا الماء هو سبب اطلاق هذا الاسم على (البحرين) [٧]

ويستشف من الوثائق التي تتعرض لهذه الفترة ان علي شلبي ابلغ (رئيس مراد) قرار السلطان الذي اصدره بالنسبة للحكام الموالين وهو انه لا يحق لأي وال او مسئول كبير من العثمانيين - دون اخذ امر من السلطان - ان يقض بأي شكل من الاشكال مضاجع الدول التي تدخل تحت حماية الدولة العثمانية واكد لحاكم (البحرين) ان علاقات الود والصداقة بين والي البحرين والدولة العثمانية ستستمر في طريقها المعهود وانه من الممكن لوالي البحرين التعايش الطيب مع الحكام العثمانيين في المنطقة وان السلطان يقظ لأى إعتداء برتغالي على سواحل البحرين وان الديوان السلطاني سيقدم كل عون ممكن . كل ذلك يدل على ان البحرين في هذه الفترة كانت موالية للدولة العثمانية وان حاكمها اصبح يتمتع باستقلال محدود وانه جرى تبادل السفراء بين البحرين والدولة العثمانية كما جرى تبادل المراسلات ومنح حاكم البحرين لقب (سنجق بك) في ٩٦٦هـ/١٥٥٩م [٨] ولكن يبدو ان هذه العلاقة لم تستمر طويلا فقد حدث ما عكرها بسبب تصرف احد

صورة الصفحة الاولى من الوثيقة العثمانية الى مراد شاه مع ترجمة الوثيقة
استنبول - باشباكانلك ارشيفي (الارشيف الرسمي)
دفاتر الشئون العامة ، المجلد ٣ - ص ١٣٩

امر سلطاني الى مراد شاه حاكم البحرين :

انك ارسلت اشخاصا مرات عديدة الى بلاطنا السامي وعرضت علينا طاعتك لنا ومنحنا لك شهادة اثباتا باننا اعطيناك البحرين كولاية واخطرنا بذلك جميع المحافظين المجاورين وسمعنا الآن بان مصطفى باشا ، محافظ الاحساء قام بغزو البحرين دون اذن منا وانك اتخذت بعض الاجراءات ضده وكذلك حجز البرتغاليون بعض السفن العثمانية وقد طردنا مصطفى باشا من منصبه بسبب هذه الاعتداءات وعينا محافظا جديدا يحل محله وعليك ان ترد الجنود الى المحافظ في الاراضي العثمانية ونعاقبهم بما يستحقونه وهكذا يكون محافظونا وموظفونا في الاحساء (والاقاليم الاخرى) مجمعين على تنفيذ ارادتنا حتى لا يتمكن العدو (البرتغاليون) من الحاق اضرار بتلك الاقاليم .

(٢٨ ذي الحجة ٩٦٦ هـ)



الحكام العثمانيين في المنطقة وهو ما سنراه فيما بعد .

ونستمر في تتبع الاحداث وفقا لما تورده الوثائق العثمانية ففي ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م عثرنا على وثيقة صادرة من السلطان العثماني الى والى مصر يخبره بوصول البرتغاليين الى ناحية البحرين وهم محمولون في بعض السفن من نوعي (القادرغه) و (القاليون) وان هؤلاء قاموا بالاغارة على المسلمين من اهل تلك البلاد واسروا بعضهم وعاثوا في الارض فسادا وطلب السلطان الامدادات من مصر وطربزون وانطاكيه ورودس لبناء السفن في البصره وإرسالها الى البحرين لتخليصها من البرتغاليين كما وجه السلطان امرا الى امير امراء ديار بكر وبغداد لارسال المدافع والبنادق والبارود الى الحسا لأن مصطفى باشا عندما غزا البحرين اخذ معه اكثر الأسلحة والعتاد الحربي الموجود في الحسا واصبحت بحاجة ملحة وعاجلة للاسلحة والعتاد . وامر السلطان العثماني ان يكون امير امراء البصرة حذرا لحماية القلاع والرعايا من اعتداءات البرتغاليين خاصة وقد اتفق ميرزا علي حاكم (الدورق) معهم ضد البصرة . وفي الاحساء اعلن المدعو (سعدون) انه الحاكم في الاحساء بعد مصطفى باشا واخذ الاموال فاصدر السلطان امره الى امير الاحساء بالقبض على سعدون ومصادرة امواله [٩] والتاريخ حول هذه النقطة بالذات شديد الغموض ولا يملك الانسان الا ان يجهد ذهنه في استنباط ما يمكن ان يكون قد حدث فلا احد يعرف هل تعرضت البحرين لمحاولة غزو جديدة من البرتغاليين الذين كان اسطولهم ما يزال في الخليج وهل استنجد حاكم البحرين بالسلطان خاصة والبحرين كما قلنا في ذلك الوقت كانت تعتبر امارة مستقلة ولاؤها للعثمانيين وكيف تصدت البحرين لهذه المحاولة . خاصة وقد وجدنا وثيقة هامة تحكي عن غزو (جزر البحرين) في عام ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م وهذه الوثيقة التي تقع في اربع صفحات لم يرد ذكرها في (دفاتر المهمة) بأرشيف رئاسة الوزراء العثمانية وهي موجودة في متحف (طوب كابو) باسطنبول في قلعة غوشلر تحت رقم ٣٠٠٤ وكاتبها الذي يتضح انه كان احد القادة الذين شاركوا في الحملة العثمانية على البحرين في هذه السنة وان لم يذكر اسمه وان كان يفهم انه كان رئيسا لسنجق تابع لايالة الاحساء . هذه الوثيقة تحكي لنا : ان حاكم الاحساء العثماني واسمه (مصطفى باشا)

جهز حملة للاستيلاء على البحرين ولا ندري هل قام بذلك لانقاذ البحرين من الهجوم البرتغالي الذي اشارت اليه وثيقة السلطان الى والي مصر ام انه قام بهذه الحملة كمطمع شخصي دفعه لتوسيع ولايته بالاحساء على حساب القطيف والبحرين . أم أنه قام بذلك بناء على أمر من السلطان نتيجة لقربه من البحرين . الاسئلة مطروحة ولكن ايا كان السبب المباشر فان (مراد رئيس) حاكم البحرين كما قلنا كان يحكم البحرين باقرار من السلطان العثماني ولما كانت البحرين امارة مستقلة موالية للعثمانيين فقد ازعج (مراد رئيس) الهجوم العثماني الذي قام به (مصطفى باشا) والى الاحساء وهو ابن بيقلي محمد باشا المشهور بفاتح ديار بكر ويحتمل ان يكون قد دفن (بالبحرين) كما ان ولده (عمر) استشهد في البحرين في حربه مع البرتغاليين ونستشف من الوثيقة ان محاولة مصطفى باشا غزو البحرين واكبت نشاطا في المعركة بين العثمانيين والبرتغاليين يؤيد ذلك ما تذكره الوثيقة من ان المعركة كانت في اطار معركة اخرى او معارك اشتركت فيها قوات من انكشارية بغداد كما ان البرتغاليين حاولوا في ابانها الهجوم على البصرة واصطدموا بالعثمانيين فوق مياه الخليج اذ جاءوا الى القطيف بستة مراكب من نوع (غراب) واستمرت الحرب شهرين ولم يتمكن البرتغاليون من السيطرة على القطيف وعادوا خاسرين [١٠] حقيقة ان السلطان العثماني تنصل في نفس الوثيقة مما فعله مصطفى باشا من هجومه على البحرين ولكن قد يكون ذلك نتيجة لفشل هذا الهجوم من ناحية وللتملص من مسئولية هجومه على امارة كانت مواليه للعثمانيين من ناحية اخرى ولكن عدم موافقة السلطان على طلب امير الاحساء بترقية بعض العسكريين الذين اشتركوا في حرب البحرين مع مصطفى باشا تدل على عدم علم السلطان وعدم رغبته في هذه الحرب ضد البحرين من قبل والي الاحساء مصطفى باشا وقد يكون من المفيد ان نعرض للوثيقة نفسها : وقد كتب عنها الاستاذ (جنكيز اورهنلو) ونتيجة لدراستنا لكثير من الوثائق المعاصرة والتى أوردنا ذكر بعضها مع صوره بالبحث فاننا نؤيد الاستاذ (اورهنلو) بخصوص تاريخ الواقعة وهو عام ١٥٥٩م بعد ان اقتبس الاستاذ (اورهنلو) من المراسلات والسجلات العثمانية المتبادلة بين المختصين في الدولة العثمانية والمتعلقة بها وخلاصة ما وقع بين المهاجمين لجزيرة البحرين بقيادة مصطفى

محل وجود الوثيقة : ارشيف رئاسة الوزراء
رقم الدفتر : ٣
الصحيفة : ٤٩
التاريخ : ٢٧ ذي الحجة ٩٦٢

الحكم موجه الى امير امراء لحسا

جاء فيه ان الامير المذكور بعث برسالة الى السلطان يطلب فيها ترقية بعض الموظفين العسكريين الذين اشتركوا في حرب البحرين بدون اذن مسبق من السلطان .

يصدر السلطان امره اثر عرض رسالة الامير بعدم ترقيتهم وطلب من الامير ابقاء رواتبهم على ما كان عليه قبل اشتراكهم في حرب البحرين .

٢٧ ذي الحجة ٩٦٢

صورة للوثيقة العثمانية وترجمتها في دفتر مهمة رقم ٣ صفحة ٤٩ مؤرخة في ٢٧ ذي الحجة ٩٦٢ وفيها عدم موافقة السلطان على ترقية العسكريين الذين اشتركوا في حرب البحرين بدون اذن مسبق منه .

باشا . وكاتب الوثيقة كما قلنا نصب اميرا للواء تابع لايالة الاحساء . ويفهم من سياق الكلام ان مصطفى باشا توجه بدون علم السلطان العثماني [11] وبدأت الحملة بمحاصرة (البحرين) مستهدفة القلعة (قلعة البحرين) في ١٣ رمضان ٩٦٦هـ/١٥٥٩م واستمر الحصار الى ٢٢ رمضان وبعد ثلاثة أيام أي في ٢٦ رمضان وصلت ٢٢ سفينة برتغالية من نوع غراب (قارب) للدفاع عن جزيرة البحرين اتجهت عشر منها نحو البصرة فتصدى لها العثمانيون بسفينتين كبيرتين من نوع القادرغه وسبعين سفينة خفيفة مختلفة النوع وسفينة واحدة من نوع برجنتاين قدمت من البصرة وعليها ١٢٠٠ جندي بينهم عدد من انكشارية بغداد ارسلت لتعقب اثنتى عشرة سفينة برتغالية في البحر فلجأ البرتغاليون الى الخداع فتظاهروا بالانسحاب من الخليج وتبعهم العثمانيون وعندما توقف القائد العثماني عن مطاردتهم وعاد وجد بقية سفنه وذخيرته قد احرقها البرتغاليون وفقد العثمانيون بذلك تجهيزاتهم وعتادهم وسفنهم فلما توجه القائد العثماني الى البر هاجمه البرتغاليون وذلك في الثالث من شوال ٩٦٦هـ/١٥٥٩م وسيطروا على السفينتين العثمانيتين واسروا وقتلوا عددا من الجنود العثمانيين . وكان مصطفى باشا يحاصر قلعة (المنامة) عاصمة البحرين . وهنا يرد اسم (المنامة) لأول مرة في التاريخ ٩٦٦هـ/١٥٥٩م ولم نعثر على إسمها قبل ذلك في اية وثيقة اخرى سواء عثمانية او غير عثمانية قبل هذا التاريخ وحتى الآن)[12] واصبح البحر مفتوحا امام البرتغاليين فجمع مصطفى باشا ذوي الرأي من اصحابه واستشارهم فاشاروا عليه بحراسة جزر (البحرين) خشية الهجوم البرتغالي المفاجيء عليها ريثما يأتيه المدد من ولاية بغداد . وأحس مصطفى باشا بان الامور لا تسير في صالحه فالبرتغاليون على وشك ان يحكموا حصارهم البحري حوله والفرس سوف يسعدهم ان يشتركوا في الاجهاز على قائد عثماني ، وحاكم البحرين يرقب الامور وهو لا يستطيع ان ينسى ان مصطفى باشا غزا ارضه رغم ولائه للسلطان العثماني ورغم اقرار السلطان له على جزر البحرين .

كل هذه الظروف جعلت مصطفى باشا يتصل بامير البحرين (مراد رئيس) عارضا ان يترك الجزيرة بشرط ان يقدم له (مراد رئيس) السفن التي تنقله هو ورجاله وبأجور يدفعها هو ولكن (مراد رئيس) رفض فانسحب

تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين
سنة ١٥٥٩

ونتيجة لهذه الاحداث رفع الحصار من قلعة المنامة وانسحبت القوات
الى موقع لا تصل اليه نيران المدافع . وبعد ذلك بثمانية ايام جاء قارب حربي
برتغالي ، وتوجه نحو الجيش العثماني جمع من الجنود العجم الذين كانوا تحت

لم يستطع مصطفى باشا وقواته الصمود امام الاعداء عندما دارت المعركة
بين الطرفين فقد اضطروا الى التراجع واحست عساكر الاحساء بالهزيمة . الا
ان الموقف قد تحسن بعض الشيء عندما اتخذت استشارية بغداد موقعا حصينا
وبدأوا بحرب المتاريس : وفي هذه الاثناء خرج كتيبا من الكمين ومعه الفرسان
بقيادته وباغتوا الاعداء وانتصروا عليهم واسروا منهم عددا كبيرا . شارك في
هذه الحملة العسكرية ٢٠٠ فارس من بغداد و ٤٠٠ مسلح .

(٦) مصطفى باشا وهو من بيطلي محمد باشا ... [illegible] ... اوزدمير ، تاريخ استانبول ١٢٨١ الجزء الاول ص ٢٢٤) . ولا يعرف حتما تاريخ تعيينه ... [illegible] ... ١٥٥٤ (KK. Ruus. nu 212. S. 76) ... ان اقدم وثيقة في هذا الصدد مؤرخة في ٢٢ آب عام ... [illegible] ... في البحرين خلال هذه الحملة عام ١٥٥٩ . (MD. nu 4.S 103. hukum nu 1037)

(٧) [illegible] ... ١٥٥٥ م ... (MD. nu 4.S. 47 hukum nu 496)
راجع جنكيز اورهونلو : السياسة العثمانية في الحبشة ١٥٤٤ – ١٥٦٠ . ... TD. nu 20 IST . 1965 . S 45 .

(٨) ... موقع ثغر في سجل الرؤوس مؤرخ في ١٥٥٥ م ... ان الحرب في ثغر جميعها ... وهم التجار اللاهون ... ١٠٠٠ سفينة ... في الاحساء لذا كانت علاقته مع الاحساء وثيقة .
(KK. Ruus. nu. nu 213 S. 18)

وثيقة عثمانية فيها اول ذكر لاسم (المنامة) عاصمة البحرين وذلك في عام ٩٦٦هـ/١٥٥٩م حين
حاصر قلعتها مصطفى باشا وفشل حملته ثم عزله السلطان ولم يتحمل الصدمة بعد فشله في السطو
على البحرين فمات في البحرين انظر تقرير (اورهونلو) بعنوان وقعة حربية في البحرين رقم ٢٠٠٤ لو نوفمبر
مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد ٢٤ ص٢١٩ .

١

حكم الى امير أمراء لحسا ..

لقد ارسل امير امراء بغداد برسالة مفصلة الى مقام العالى بخصوص فتح قلعة بحرين علما ان بجيا بها برجا قويا مواجه هذه القلعة بميناء (منامة) فى البحرين، وتأسيس مركزا آمنا فى التقليد للمهمات والذخائر واللوازمات الضرورية لانشاء ذلك البرج فى الميناء المذكور ولهذا وايضا تأمين وتخزين ٢٠ الف من التلف والزنابيل المصنوعة من اوراق التمر لاستعمال ونقل المواد الانشائية فى تلك الميناء ـــــ .....

ســـنة ٩٨٣ هـ
١٥٧٥م

دفتر مهمة ٢٧
صحيفة ١٩٧

[illegible]

ميناء

Muh 27
page 197

[illegible]

ترجمة الوثيقة العثمانية رقم ٢٧ (دفتر مهمة) صفحة ١٩٧ مؤرخة فى عام ٩٨٣ هجرية الموافق ١٥٧٥م وقد ورد فيها ذكر لـ : المنامة (بالبحرين .

الجيش العثماني الى مكان بعيد عن الشاطىء في داخل الجزيرة لا تصل اليه قذائف السفن البرتغالية وانتظروا ثمانية ايام وصل خلالها مدد من بغداد ويتكون من ٣٠٠ فارس واربعمائة مسلح واستطاع البرتغاليون خلالها ان يحشدوا قواتهم التي انضم اليها بعض القوات الفارسية بالاضافة الى فرقة من قوات (مراد رئيس) يقودها (ابن رحال) . وكان كاتب هذه الوثيقة نفسه يشترك في المعركة قائدا على ٢٠٠ فارس وقد تمكن كاتب الوثيقة من الانتصار على قوات (مراد رئيس) واخذ اكثر هؤلاء الجند اسرى وقد غير ذلك سير المعركة لصالح العثمانيين ولكن القوات المهاجمة استمرت في محاصرتهم مما اضطر مصطفى باشا الى مفاوضة (مراد رئيس) على ان يسلم لهم اسراهم مقابل السماح للعثمانيين بالعودة على سفن تقدم لهم الى الاحساء فلم يوافق مراد رئيس وطالب ان يسلموا كل سلاحهم ومدافعهم فلما يئس العثمانيون وحاصرهم الجوع اذعنوا لمطالب (مراد رئيس) ووافقوا على تقديم ٣٥ فرسا و٢٤٠ أقجة (دراهم عثمانية) ولكن امير البحر البرتغالي في هرمز سمع بالمفاوضات فأرسل الى امير البحرين يقول : (نحن في البحر وامير هرمز في البر وسوف نمدكم بثلاثة آلاف وقيل ٣٠٠ من العجم فلا تعقدوا مصالحة مع العثمانيين) وفشلت المفاوضات وضاق الامر بالعثمانيين ونفذت ذخيرتهم وبدأ موسم الرياح الشرقية وجاءت معها الحمى التي فتكت بالكثير من الجند وارسل العثمانيون وفدا لمفاوضة القائد البرتغالي في (قلعة البحرين) وحضر الاجتماع امير البحرين (الرئيس مراد) الذي قال : ان هذه الحملة هجمت على البحرين دون موافقة السلطان سليمان القانوني ودون علمه او امره فاجابه كاتب الوثيقة[١٣] بان السلطان باق على عهده وان الحملة بالفعل لم تكن بامره وهو يطلب المعذرة ولكن المفاوضات لم تنجح ويتضح من الحكم السلطاني رقم ص ١٤١ ان السلطان امر بعدم تدخل مصطفى باشا بشئون البحرين ثم امر بعزل مصطفى باشا عن إمارة الاحساء ونص الوثيقة الخاصة بذلك يقول : حكم سلطاني الى (مراد شاه) صاحب البحرين بعزل مصطفى باشا عن امرة امراء الاحساء . وفيه انه ورد لدار السلطنة العثمانية من امير امراء البصرة ان امير امراء الاحساء (مصطفى) قد تدخل في امر البحرين وسار الى البحرين التي هي تحت تصرف مراد

شاه وعلى هذا اتفق (مراد شاه) مع البرتغاليين وانهم اخذوا سفن العثمانيين وبقى العسكر العثماني محصورا بجزيرة البحرين وبسبب هذا فقد امر السلطان العثماني بعزل مصطفى عن منصب امير امراء الاحساء ونصب مكانه اميرا أخر ويطلب السلطان عودة (مراد شاه) صاحب البحرين للطاعة وان يتفق مع الامراء والعساكر الذين بالاحساء وما حولها ضد البرتغاليين (حرر في ٢٨ ذو الحجة ٩٦٦هـ /١ /١٠ /١٥٥٩م(١٤) ويبدو ان مصطفى باشا الذي كان واليا على الاحساء لم يتحمل الصدمة بعد فشله في الحملة على البحرين فمات وخلفه في قيادة العثمانيين كاتب الوثيقة وكان اللواء الذي تولاه يشمل شبه جزيرة (قطر) بالاضافة الى (البحرين) هكذا تقول الوثيقة رقم ٢١٢ ص ١٨) من وثيقة (اعلام في سفر البحرين) لاورهونلو فاستؤنف القتال ثانية وجاءت الامدادات التي وصلت من هرمز لأمير البحرين وكانت تتكون من ٤٠٠ مقاتل . وتذكر الوثيقة بعد ذلك انه امكن الوصول الى اتفاق لانسحاب الجيش العثماني بعد ان دفع (علي بك) امير لواء القطيف للبرتغاليين ١٠ أقجات دراهم عثمانية وكل اقجة تحتوي على مائة الف درهم عثماني وبعض الخيول التي اعطيت للبرتغاليين وذلك في شهر صفر ٩٦٧هـ/نوفمبر ١٥٥٩م وعادت بقية الجيش العثماني الى القطيف على السفن البرتغالية في خمس دفعات بعد ان كابدوا الجوع والحصار نحو اربعة اشهر وبلغ عدد الجنود العائدين ٢٠٠ جندي من مجموع ١٢٠٠ جندي توجهوا مع مصطفى باشا في بداية الحملة التي يفهم من سياق الوثيقة انها استغرقت ستة اشهر(١٥) وعاد السلطان يؤكد اقراره لمراد شاه على البحرين وذلك في وثيقة تقول : بناء على ما عرضه الامير (جلال الدين مراد خان) حاكم بولاية جزر البحرين من الولاء للسدة العلية العثمانية وطلب ان تكون تلك الايالة في حومة ولايته لذلك فقد قلدناها له وفوضنا اياها اليه ونفذنا كلامه يكون مستقر تلك الايالة في يد الامير جلال الدين مراد خان ومن بعده يقلدها اخوه (شهاب الدين خان ابو النقا) ثم لابناء (مراد خان) من بعده ومن عقبه على ان يسيروا بحكم البلاد بحكم الشرع القويم حرر في ٩٦٦هـ/١٥٥٨م .

ثم تأتي صفحة جديدة من تاريخ البحرين ففي ٩٨١هـ/١٥٧٣م تذكر الوثيقة العثمانية رقم ٢٢ في صفحة ٢١٧ بان السلطان العثماني امر

بارسال عشر سفن من البصرة لمواجهة الموقف في البحرين على اثر دخول السفن البرتغالية لمياه البحرين بقوة قوامها اثنتا عشرة سفينة حربية وقطعتان من القليون وانهم استولوا على سفينتين تجاريتين واسروا بعض الجنود المسلمين وقد تم انزال السفن من البصرة الى البحر استعدادا لمواجهة الموقف وورد في صفحة ٤٣ من دفتر المهمة رسالة تقول ان في البحرين اكثر من ثلثمائة قرية وان ربحها السنوي سيكون اربعين الف فلوري وان من السهولة فتحها ويسأل الصدر الاعظم كيف يمكن فتح البحرين ومتى وكم العده اللازمة لفتحها ثم يطلب تقصي الاخبار عن عساكر البحرين ومحصولها(١٦) والذي يلفت النظر في هذه الوثيقة هو نظرة امير امراء الاحساء للبحرين مما يشير الى طمعه في فتحها فاذا ربطنا هذه الرسالة بحملة مصطفى باشا السابقة فقد نخرج بما يدل على اتجاه عثماني قديم في ضم البحرين لاملاك الامبراطورية العثمانية ونخرج ايضا بما يدل على ان مصطفى باشا عندما هاجم البحرين لم يقم بذلك دون علم السلطان وإن تنصل من ذلك فيما بعد او انه لا يعلم اهمية البحرين بدليل ان هذه الوثيقة تصف البحرين له بعد نحو عشرين عاما من حملة مصطفى باشا الفاشلة على البحرين . المهم ان الوثائق في هذه الفترة غامضة ولا يعطي ما تم العثور عليه منها صورة كاملة لتفاصيل ما حدث .

وهذه صفحة من صفحات تاريخ البحرين التى كشفتها الوثائق العثمانية مما لم تذكره الوثائق الأخرى المعاصرة وهى تكشف بداية تواجد (العتوب) فى الخليج العربى وذلك فى مستهل القرن الثانى عشر الهجرى أو الثامن عشر الميلادى . ولابد أن نلقى نظرة سريعة عن (العتوب) فالعتوب : جمع عتبى وهو حلف يضم بطونا وأفخادا كثيرة تنتمى لعدة قبائل هاجرت من مساكنها فى نجد واستقرت على ضفاف الخليج العربى بقرب البحرين وجدير بالذكر أن منطقة البحرين ليست غريبة على عشائر تنتمى لبنى وائل وتميم وعبد القيس فهى مساكنهم منذ القدم . وقد تحالفت هذه القبائل مع بعضها البعض وتصاهرت فيما بينها وأصبحت تمثل قبيلة العتوب الواحدة وأقدم من ذكر ذلك عنهم الشيخ (عثمان بن سند الوائلى) المتوفى ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م حيث قال : والذى يظهر أن بنى عتبة متباينو النسب لم تجمعهم فى شجرة أم وأب ولكن تقاربوا فنسب بعضهم لبعض وما قارب الشىء يعطى حكمه على

الفرض [١٧] . ولقد كان التاريخ ضنينا علينا بمعرفة بدء هذا الحلف أو كيف ولماذا اختاروا اسم العتوب الذى أطلقوه على أنفسهم وهل اسم العتوب هو اسم لأقوى هذه العشائر فانتمى الآخرون اليها ؟ أو جاء ذلك مما أورده بعض المؤرخين الذين فسروا ذلك بأنهم عرفوا بتسميتهم هذه بعد ارتحالهم من مواطن اقامتهم أى بعد عروجهم أو عتبهم نحو الشمال ؟ والتسمية هنا حركية اشتقت من الفعل (عتب) أى إنتقل وارتحل [١٨] . والذى نستطيع أن نقوله هو أن من عشائر العتوب من ينتمى لقبيلة عنزة وقبيلة تميم وسليم ومن العشائر التى تنتمى لعنزة آل خليفة وآل صباح والجلاهمة والفاضل ومن هاجر معهم من منطقة الافلاج وهم ينتمون الى (جميلة وائل) ولا يزال بعض أبناء عمومتهم يسكنون تلك الجهات وأهم العشائر التى تنتمى لتميم وسليم آل بنعلى بجميع بطونهم وأفخادهم . وجدير بالذكر أن المؤرخين لم يضعوا حدا ثابتا لبداية هجرتهم ولا وصولهم الى ساحل الخليج العربى أو زمنا معينا لدخولهم قطر أو البحرين أو الكويت ولا وقتا محددا لتواجدهم فى البحرين ولعل السبب فى ذلك هو اعتمادهم على مصادر ووثائق غربية فى معظمها لم تذكر وقتا محددا يعتمدون فيه على تواجدهم فى الخليج العربى . وبعد البحث فى الوثائق العثمانية عثرنا على وثيقة باللغة العثمانية وبالخط العربى وذلك فى ارشيف رئاسة الوزراء العثمانى فى دفتر مهمة (مهمة دفترى) رقم ١١١ وعلى الصفحة ٧١٣ منه وفيه وثيقة مؤرخة فى ٢١ رجب ١١١٣هـ الموافق ٢٣ كانون أول (ديسمبر) ١٧٠١م وهى رسالة أرسلها والى البصرة (على باشا) الى السلطان العثمانى والصدر الأعظم باسطنبول ومرفق نص ترجمة الرسالة مع صورة لها وقام بترجمتها أساتذة من جامعة اسطنبول منهم البروفيسور (خليل ساحلى أوغلى) والأستاذ (أحمد أغر أغجه والسيدة زليخة) المترجمة فى دار الأرشيف العثمانى وبعد المقارنة بين الترجمات انتهينا الى تحليل نصوصها والوصول الى الحقائق التاريخية الآتية :

أولا : تواجد العتوب فى مستهل القرن الثامن عشر فى منطقة البحرين كما تدل على تواجدهم فى منطقة الخليج العربى قبل هذا التاريخ حيث استقروا وتعودوا على ركوب البحر وبناء الأسطول وصيانته وقيادة السفن ومعرفة المسالك والممالك فى الخليج أو خارجه وهذا يحتاج لفترة زمنية ليست قصيرة حيث استطاع

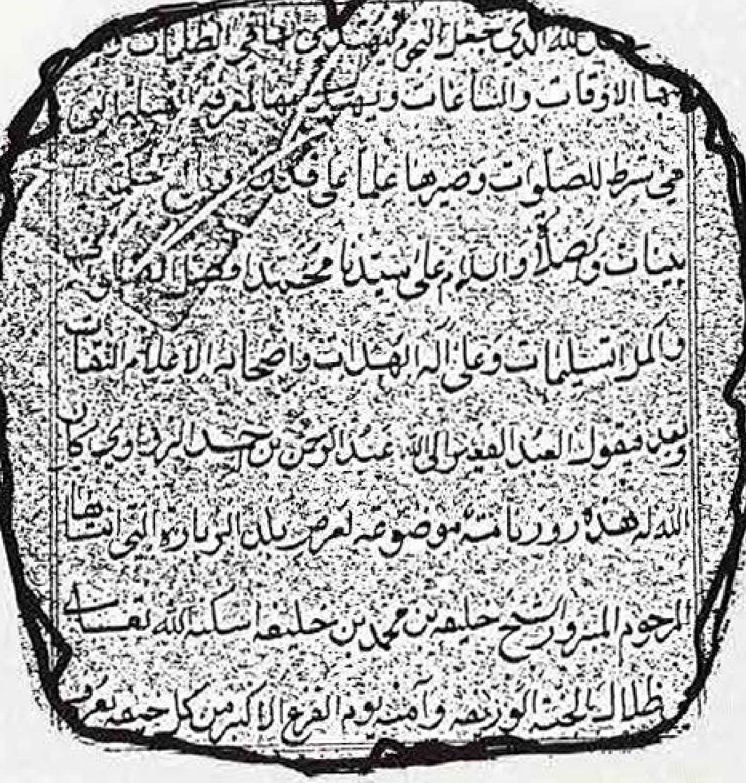
العتوب وحلفاؤهم أن يتكاثر عددهم هناك لذلك لابد من فترة زمنية سبقت ١١١٣هـ/ ١٧٠١م لكي يتحول ساكن الصحراء الى ملاح ماهر في ركوب البحار ومحارب يجيد استخدام السلاح في عرض البحر خاصة وأنهم عاشوا في الأفلاج وعرفوا السباحة في عيونها ووديانها الكثيرة والغوص فيها فليس ببعيد أن منهم من كان يأتي طلبا للرزق في ساحل الاحساء وجزر الخليج والأفلاج جمع فلج بفتح أوله وثانيه ويعني النهر الصغير والماء الجاري من العين لانفلاجه أي انفتاحه والأفلاج منطقة غزيرة المياه كثيرة العيون الجارية بحيث أن أماكنها تحمل معنى الماء الكثير أو الجاري أو السريع فمثلا (الغيل) والغيل في اللغة ماء على سطح الأرض . ثم (السيح) وهو ماء ظاهر يجري على الأرض و (الهدار) وهو سيل مجلجل متدفق و (برك) و (سحاب) وهو الوادي الذي تقع عليه مدينة ليلى و (القمع) و (المعيذر) و (نباع) وطول منطقة الأفلاج نحو مائتي كيلو متر ومن وديان الأفلاج أكثر من ثمانية عشر واديا وفي الأفلاج البديع ومثلها في البحرين قرية تسمى البديع ومرير في الهدار ومثلها قلعة تسمى مرير في الزبارة التي بناها الشيخ محمد بن خليفة ١٠٨٢هـ/والرفاع في الهدار ومثلها في البحرين .

ثانيا : إن القوة البحرية التي أسسها العتوب للنقل (القطاعة) والغوص مزودة بأدوات عسكرية كالمدافع والبنادق مما جعلها قوة بحرية كان لها أثرها على مياه الخليج وسواحله في ذلك الوقت .

ثالثا : عدم وجود قوة بحرية ضاربة في الخليج إلا قوة العشائر العربية القاطنة على ضفافه بشطرية العربي والفارسي . أما قوة عمان فقد وجهت نحو التوسع خارج الخليج في هذه الفترة التاريخية .

رابعا : في مطلع القرن الثاني عشر الهجري أو مطلع القرن الثامن عشر الميلادي كانت الدولة الصفوية قد دب فيها الهرم نتيجة للفوضى والاضطراب والفتور مما أطمع الشعوب الواقعة تحت نيرها أن تطالب بالاستقلال وأن تقوم بحركات عسكرية للتخلص من سيطرة الفرس كما دخلت في حروب مع الأفغان والترك [١٩] .

خامسا : شرحت لنا هذه الوثيقة العثمانية موضوع البحث بأن العتوب والخليفات ومن معهم قد خاضوا حربا ضارية في سبيل تحرير البحرين من العجم وقد خسروا في هذه المعارك اربعمائة قتيل ويمموا نحو البصرة تقلهم مائة وخمسون سفينة كل سفينة



تاريخ المخطوطة ١١٩٥ هـ وفيها ان الشيخ خليفة بن محمد ال خليفة (اخ احمد الفاتح) بني مدينة الزبارة . أما والده الشيخ محمد بن خليفة فهو الذي بنى قلعة مرير وأتم بناءها ١١٨٢ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله جعل النجوم ليهتدى بها في الظلمات ويعرف بها الأوقات والساعات ويهتدى بها لمعرفة القبلة التى هى شرط للصلوات وصيرها علما على قدرته وبالغ حكمته ايات بينات والصلاة والسلام على سيدنا محمد افضل الصلوات واكمل التسليمات وعلى اله الهدات واصحابه الاعلام الثقات..
وبعد فيقول العبد الفقير الى الله (عبدالرحمن بن احمد الزواوي) كان الله له هذه روزنامه موضوعة لغرض بلد الزبارة التى انشاها المرحوم (الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة) اسكنه الله تعالى في ظلال الجنة الوريفه وامنه يوم الفزع الأكبر من كل خيفه.. (١١٩٥ هـ).
كتبها عبدالمحسن بن عبدالعزيز عقب وفاة والده عبدالعزيز بن علي ال خليفة



وقفية كتب اوقفها الشيخ خليفة بن محمد ال خليفة بتاريخ ٢٤ رجب ١١٩٥ هـ

مزودة بمدفعين أو ثلاثة مدافع وتحمل السفينة أربعين مسلحا يحمل كل واحد منهم بندقية . ووصلت هذه السفن الى البصرة واتصلوا بواليها طالبين منه المساعدة ضد الدولة الفارسية والسماح لهم بسكنى أية جهة تخضع لسلطة الدولة العثمانية فكتب والى البصرة (على باشا) الى السلطان العثمانى رسالة شارحا فيها حال العتوب كما يتضح من الوثيقة المنشورة مع هذا البحث أنهم بهجرتهم انسحبوا وهم محافظون على قوتهم البحرية نحو البصرة لأنهم ومن والاهم من العشائر برعوا فى ركوب البحر وصار لهم سفن تحمل المدافع والجنود المسلحين وأصبحوا من القوى التى تسيطر على الغوص والتجارة فى الخليج العربى وقد أشارت الوثيقة الى أن سفن التجار لم تكن تستطيع أن تمر ببندر (ميناء) من موانىء الخليج العربى فى طريقها الى البصرة دون أن تتعرض لقوتهم إلا من تصالح معهم بدليل ان الفتنة التى اندلعت بينهم عطلت التجارة مع ميناء البصرة كما ورد فى نص رسالة الوالى العثمانى فى البصرة . ولما كانوا هم أهل سفن وبحر فقد نزلوا (أم قصر) ومنها إرتحلوا الى الكويت كما تذكر الروايات التاريخية (٢٠) .

وصفحة أخرى من تاريخ البحرين تحدثنا عن اتفاقية وقعت فى ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م بين الدولة العثمانية وشيخ البحرين وقعها محمد رفعت أفندى معاون سر عسكر نجد ووكيلا مفوضا من طرفه مع الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة صاحب البحرين وفيها : أنه وقع الصلح والرأى بينى وبين عبد الله بن أحمد فصار العهد منه يطابق الوكالة عن سعادة أفندينا على أن شيخ البحرين صديق لصديق أفندينا خورشيد باشا وعدو لعدوه وأن عليه زكاة البحرين من حول السنة الى حول السنة ثلاثة آلاف ريال فرانسى لعبد الله بن أحمد منها خاصة سبعمائة وخمسين ريال . والباقى الفين ومائتان وخمسين ريال يدفعها سنويا الى المشار اليه من إبتداء حول سنة ١٢٥٥ وعاهدناه على أن أمر البحرين فى يده دون غيره ونائبه الذى يحطه من تحت يده وما كان من رعاياه سابق من أهل البحرين أو غيرهم القاطنين بها . وأهل بلدان ساحل بحر قطر تحت يده ليس لأحد غيره تسلط عليهم والقوانين التى له عليهم من سابق فهى له ولنا عليه أن يقوم بالمساعدة مع أفندينا المشار اليه فيما يتعلق به على قدر استطاعته والله على ما نقول وكيل ..

كتبت فى القلعة الخاصة لشيخ البحرين فى خور حسن شمال الزبارة

محفظة ٢٦٢ عابدين.
صورة البرق العربي للوثيقة رقم ١٢٧



فى ساحل قطر وذلك فى ١٧ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ الموافق ٣٠ يوليو ١٨٣٩م .

ومن دراسة هذه المعاهدة أو الاتفاقية نخرج بالملاحظات التالية :

١ - إن البحرين وقتئذ مستقلة وشيخها يتعاهد مع الدولة العثمانية على أن يدفع قسطا من الزكاة ويحتفظ بالباقي وهو صديق للدولة العثمانية وأن القسط الذى يدفعه وقتئذ عن كونه له السيادة على بلدان ساحل قطر

٢ - رغم أن شيخ البحرين مرتبط بمعاهدة ١٨٢٠م ١٢٣٥هـ مع بريطانيا والتى إرتبط بها جميع شيوخ الساحل المتصالح وتسمى بمعاهدة السلام فإن شيخ البحرين عقد اتفاقية مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٩م/ ١٢٥٥ هـ مما يدل على أنه مستقل ويتصرف وفقا لمصلحة بلاده وهذا لا يعنى أيضا نوعا من السيطرة والنفوذ وقتئذ على البحرين وتوابعها من قبل الدولة العثمانية . وقد احتجت بريطانيه ضد خطة خورشيد باشا فى البحرين واتفاقيته مع شيخها(٢١) وأرسل الحاكم العام الى حكومة بومباى تقريرا يطلب إصدار الأوامر اللازمة لقائد القوات البحرية لمواجهة الموقف ومنع خورشيد باشا من تنفيذ مخططاته تجاه البحرين (٢٢).

وتطالعنا الوثائق العثمانية فى مستهل القرن الرابع عشر الهجرى وهى تحدثنا عن الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان آل خليفة الذى (رفع العلم العثمانى) فوق سماء البحرين وراسل دار السلطنة العثمانية مبينا ولاءه وحسن صداقته وموضحا أحوال البحرين وطالبا تعيين شخص من الذوات المعتبرين لدى السلطان لإجل الإفادة والإستفادة . وقد أجابه والى ولاية بغداد فى شعبان ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م بأن طلبه قد قوبل بمزيد من الاهتمام والممنونية من السدة العلية وأنه تم تعيين صاحب الرفعة محمد بك وهو من المميزين لدى أمير أمراء عسكرية القائمقام ومعه ذو الرفعة عبد القادر أفندى رئيس البوابين وأرسل دركاه على ملتزم مقاطعات البصرة الى الشيخ محمد بن خليفة رسالة فى ٨ ذى الحجة ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م يرحب بطلب الشيخ الذى أرسله الى الدولة العثمانية واعترافه بسيادتها وأنه وصل الى البصرة فى الرابع من ذى الحجةواستطرد الملتزم بقوله : وسوف يبلغكم عبد الله بن راشد ما ينبغى المذاكرة بشأنه معكم ويختم رسالته بتقديم تحياته الى الشيخ على بن خليفة (٢٣) وكان موقف التعاون والصداقة بين الدولة العثمانية

والشيخ محمد بن خليفة قد أثار حفيظة السلطات البريطانية ضده وكان من أهم الأسباب التى أدت الى إعتقاله وإرساله أسيرا الى الهند فى عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م ثم نقل الى عدن وأخيرا أطلق سراحه ليستقر فى مكة المكرمة وقد حددت الوثائق العثمانية وصوله الى مكة فى الرابع والعشرين من شهر كانون الأول عام ١٣٠٣ رومية الموافق ١٣٠٤ هجرية [٢٤] وتوفى ودفن بمكة المكرمة فى الثانى من شهر ذى الحجة ١٣٠٧هـ كما أوردت ذلك الوثائق العثمانية [٢٥] بينما ذكرت تقارير انجليزية أن الشيخ محمد بن خليفة توفى (بالمدينة المنورة) دون أن تحدد تاريخ وفاته [٢٦].

والباحث فى الوثائق العثمانية يلمس صراعا سياسيا حول البحرين بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ويتمثل ذلك الصراع بتقارير ورسائل تبودلت بين الدولتين حول إيضاح الموقف بالنسبة لسيادة البحرين ففى عام ١٨٧٠م/١٢٨٧هـ حدث خلاف حول ذلك بين بريطانيا والعثمانيين واستمر الى عام ١٨٧٥م وكانت إدارة البحرين مستقلة تحت حكم وإدارة شيوخها ولا يوجد فى البحرين أى مأمور أو مدير أو جنود يرابطون فيها من قبل العثمانيين . ولما رفض المستوطنون فى البصرة من أهالى البحرين الالتحاق فى الخدمة العسكرية العثمانية كتب اللورد (دربى) تقريرا بتاريخ ١٤ نيسان ١٨٧٢م ذكر فيه أن الحكومة الانجليزية لن تقبل عائدية وبقاء البحرين تحت سيطرة الدولة العثمانية استنادا الى عدم رغبة أهالى البحرين للانخراط فى سلك الخدمة العسكرية فى الجيش العثمانى . ولما سأل سفير الدولة العثمانية فى لندن النظارة الخارجية فى اسطنبول حول عائدية البحرين للدولة العثمانية أجابه الباب العالى بأن الدولة العثمانية لا تنوى أن تتعرض للقبائل المستقلة المتمكنة فى جوار خليج البصرة ولا تريد كسب التفوق عليها وأن الناظر العثمانى سرور باشا لم يعط أية تأمينات لبريطانيا بأن يكون لها حق الحكم فى جزيرة البحرين . وتفيد المخابرات الجارية مع الحكومة البريطانية أن لا حق ولا شبه حق للحكم الانجليزى فى الجزيرة المذكورة وقد صدقت عليها الحكومة الانجليزية وبلغ بذلك السفير العثمانى بلندن ليدافع عن هذه الحقيقة وكتب الباب العالى الى والى بغداد تقديره لما يتخذ من تدابير عسكرية ومن سعى مشكور لأن لا يسمح للمشايخ أن يتعرض

أحد منهم للبحرين [٢٧] واستصوب الباب العالى ما اتخذه والى بغداد من تدابير لحماية سواحل البحرين وعمان والاحساء من أن يتعرض لها أحد وأن يسعى الى توثيق علاقة سكان المنطقة بالادارة العثمانية والمحافظة عليها وحماية سكانها من أى اعتداءات خارجية [٢٨] وكانت الدولة العثمانية تهدف الى عدم تدخل بريطانيا فى شئون البحرين بينما سعت بريطانيا أن لا تحقق لها تلك المحاولات ومن أجل ذلك فقد ربطت بريطانيا البحرين شأن بعض مشيخات الخليج بسلسلة من الاتفاقيات وبالتالى كتبت الى الدولة العثمانية بأن البحرين لا تعود الى الدولة العليه [٢٩] وفى ٨ آب ١٨٧٢م أرسلت الحكومة الانجليزية تقريرا خطيا بتوقيع اللورد (غرانويل) وفيه : أن الحكومة الانجليزية الى اليوم لم تتخذ أية إجراءات فعلية عسكرية أو غير عسكرية تجاه الدولة العثمانية بخليج البصرة وكونوا آمنين من هذه الجهة وقد بدأ الانجليز بإقامة مخافر عسكرية وأرسلوا موظفين لإنشاء الطرق والميناء وأخذت سفنهم تجوب السواحل بغية فرض السيطرة على البحرين وتوابعها [٣٠] وباشرت فى التدخل فى شئون البحرين الداخلية

ورغم ذلك فقد بقى الشيخ عيسى بن على آل خليفة منذ توليه الحكم وفيا فى ولائه محسنا ظنه بالسياسة ظناً منه أن بريطانيا لا تريد أكثر من نشاطها التجارى فوقف موقف المخلص الأمين للاتفاقيات ولم يحنث بالعهد حتى أنه رفض مساعدة العثمانيين له على لسان مدحت باشا وقاله له : (حسبى وبريطانيا صديقة وحليفة) كما فاوضته ألمانيا بواسطة مقيمها التجارى فى البحرين فكان جوابه (لا أعاون عليها أحدا) [٣١] بينما لم تكن بريطانيا وفية معه إلا أن الشيخ عيسى بن على حافظ على وفائه للعهود والاتفاقيات حتى وفاته [٣٢] وظلت الدولة العثمانية لا تعترف بالحماية البريطانية للبحرين بل واعتبرتها جزءا من ممتلكاتها ففى تقرير الى والى البصرة جاء فيه أن البحرين جزء من ممتلكات الدولة العثمانية على ساحل نجد . وفى مذكرة وردت من النظارة الخارجية فى اسطنبول وفيها عدم الاعتراف بحق الحماية البريطانية على البحرين بل أن للدولة العثمانية الحق فى ذلك وأن إدعاء بريطانيا بخصوص حماية أهالى البحرين المتنقلين فى خليج البصرة غير معترف به من قبل الدولة العثمانية [٣٣] .

الهوامش

(١) الوثيقة ٤/٨٤ دليل الخليج ١/١١/ القسم التاريخي.
(٢) العناني . البرتغاليون في البحرين (الوثيقة) ٤/٨٤ و٨٥
(٣) اباحسين . صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين (الوثيقة) ١/١٢٠ والخصوصي د. بدر الدين عباس دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ١/١٨ والعقاد .
التيارات السياسية في الخليج العربي ص١٧ و Miles,The countries and tribes, P.P 145-150-Belegrave,The pirate coast, p.p.6.33.
(٤) كاستانيدا ـ فرنوا لوبيز ص ٨٤٤ . والوثيقة ١/١٢٢ ـ ١٣٠
(٥) موغول محمد يعقوب . السياسة العثمانية في المحيط الهندي في عهد القانوني بين سنة ١٥١٧ ـ ١٥٣٨م باللغة التركية ـ اسطنبول ١٩٧٤م وأوزبران الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ص٢١ و٢٥ و٢٦ . ووثيقة احتجاج الى السلطان دان جوان البرتغالي برقم ٩٢٢ في مركز الوثائق التاريخية بالبحرين وانظر الوثيقة ١/١٣٤ ـ ١٣٩ ولأوزبران . الامبراطورية العثمانية وطريق الهند . مجلة كلية الاداب باسطنبول العدد ١٩٧٨/٣١ مترجم من التركية للانجليزية .
(٦) بيري ، محي الدين رئيس ـ ملاح عثماني ورسام خرائط لعله من اصل يوناني صنف كتابا في الملاحة في بحر ايجه والبحر المتوسط وخريطة الجانب الغربي من العالم قطع راسه بامر السلطان سنة ١٥٥٥م (المنجد ـ جزء الاعلام ص ١٥٩)
(٧) سيدي علي رئيس . مراة الممالك ص ٣٧و٣٨ الطبعة التركية . اسطنبول ١٣١٣هـ .
(٨) الوثيقة في دفتر المهمة رقم ٣ ص ١٣٩ رقم الوثيقة ٣٦٤ . مؤرخة في ٢٧ ذي الحجة ٩٦٦هـ . (الحكم السلطاني موجه الى مراد شاه حاكم البحرين) ووثيقة في دفاتر المهمة رقم ٣ ص ١٤٠ برقم ٣٦٦ ومؤرخة في ٢٧ ذي الحجة ٩٦٦هـ (الحكم السلطاني موجه الى أمير امراء البصرة)
(٩) دفتر مهمة ٣ ص ٢٥٨ . حكم ٧٤٧ في جمادى الاولى ٩٦٧هـ . و(د.م) ٣ ص ٣٨٢/حكم ١١٣٢ في ١٨ شعبان ٩٦٧هـ . و(د.م) ٣ ص ٣٨٥ حكم ١١٤٣ في ٢٣ شعبان ٩٦٧ هـ . و(د.م) ٣ ص ٣٨٦ حكم ١١٤٦ في ٢٣ شعبان ٩٦٧هـ . وهنا يلاحظ ان (سعدون) ربما هو من آل عريعر او الحميد وهناك سعدون بن محمد بن براك بن عريعر الذي خلف اباه محمد في ١١٠٣هـ وفي وثائق عثمانية اخرى تذكره بسعدون بن حميد . انظر ابن بشر . عنوان المجد ص١٤ وتاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٦٨و٧٣و٧٥ وجدير بالذكر ان (حميد) هو ابن اخت مقرن بن اجود بن زامل الجبري حاكم البحرين والذي دوخ البرتغاليين في دفاعه عن البحرين وجرح في المعركة ومات متاثرا بجراحة عام ٩٢٨هـ/١٥٢١م وخلفه ابن اخته (حميد) وربما ان (حميد)

الذي ذكرته الوثائق البرتغالية هو جد ال حميد وهو ابن الشريف بركات شريف مكه الذي دافع هو الاخر عن مكه ضد البرتغاليين . انظر الوثيقة ٣/ص ٩٦ و٩٧ . وحول سعدون يرجح الشيخ عبدالله بن خالد ال خليفة انه جد آل سعدون من قبيلة المنتفك اذ لا يوجد آل حميد في القرن العاشر وانما في القرن الثاني عشر وعلق الشيخ عبد الله على ذلك بقوله : «إن تاريخ الوثيقة ٩٦٦ ـ ٩٦٧هـ تقارب عام ١٥٥٩م و ال عريعر بدأ حكمهم ببراك بن عريعر وأخيه محمد (الأصكه) أى القليل السمع . فإذن محمد أخ لبراك وليس إبنه كما ورد في الهامش و آل عريعر يعرفون بال حميد وأنا أرجح أن حميد هو ابن أخت الشيخ مقرن بن أجود الذى خلف مقرن بعد موته في المعركة دفاعا عن البحرين وهو نفسه جد ال حميد الذين يعرفون به وينتسبون اليه ولا استبعد أن يكون سعدون المذكور في الثيقة المشار اليها هو ابن حميد وهو الأرجح الذى يمليه الواقع فحميد كانت له الرئاسة بعد مقرن وقد إنسحب من البحرين الى الاحساء والتحق بقبيلته فلا يستبعد أن يتعاون سعدون مع جيوش الدولة العثمانية ضد البرتغال ثم يتحين الفرصة ليعلن نفسه حاكما على الاحساء . اما أن يكون سعدون هو جد آل سعدون شيوخ المنتفك فلا يستبعد ولكنه اقل إحتمالا . وجد آل سعدون من أشراف مكة نزح عن اقاربه في مكة والتجأ بقبيلة المنتفك في العراق وأصبحت له ولأبنائه مع مرور الزمن رئاسة قبيلة المنتفك» إنتهى تعليق الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وعلى ذكر ال سعدون أرى ان من الأرجح ان سعدون بن ابراهيم هو جد ال سعدون وهو الذى انجب ولدا إسمه مالك ولمالك ولد سماه مانع وله ثلاثة اولاد هم شبيب ولشبيب هذا ولد إسمه مغامس ولمانع ولد إسمه مهنا وابن ثالث هو بركات ومن هؤلاء الثلاثة انحدر ال سعدون وهذا ما يقوم بتحقيقه الباحث سعدون شهاب السعدون مشيرا الى مصادر منها (غاية الطالب في نسب آل ابى طالب) و (نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب) والتحفة النبهانية وعشائر العراق .

(١٠) دفتر مهمة ٤ ص٣٨ . حكم ٣٨٧ بتاريخ ٩٨٧هـ . ودفتر مهمة ٤ ص٧٢ حكم ٧٣١ في ٢٢ شعبان ٩٦٧هـ .

(١١) انظر نص الوثيقة المرفقة وهي محفوظة في ارشيف طوبقبو سراي تحت رقم NE.3004 ولا تحمل اسم كاتبها ولا تاريخ تدوينها وقد نشر الوثيقة (اورهونلو) بعد ترجمتها من اللغة العثمانية الى التركية الحديثة وذلك في مجلة التاريخ التي تصدرها كلية الأداب بجامعة اسطنبول ، المجلد السابع عشر ، العدد ٢٢ اسطنبول ، ١٩٦٨م كما ترجمها الدكتور الداقوقي للعربية ونشرها في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية في العدد ٢٤/ص/٢١١ ولكنه اورد في هامش رقم ٦ : ان عمر بن مصطفى باشا تصرف بـ (تيمار) في ملاطيه على اثر وفاة والده مصطفى باشا ١٥٥٩م ولكن عمر استشهد بالبحرين كما ذكرته الوثيقة في دفتر مهمة ٤ ص ٧٢ حكم ٧٣١ مؤرخة في ٢٢ شعبان ٩٦٧هـ و(د.م) ٣.ص٤٩ . في ٢٧ ذي الحجة ٩٦٧هـ .

(١٢) انظر نص الوثيقة التي تشير (للمنامة) عام ٩٦٦هـ/١٥٥٩م مرفقة بالبحث . ضمن تقرير عن حملة الى البحرين / جنكيز اورهونلو . ص ٣ . وانظر وثيقة تذكر المنامة عام ٩٨٣هـ في دفتر مهمة رقم ٢٧/ص١٩٧ بالاصل العثماني وترجمتها باللغة العربية . (والمنامة : عاصمة البحرين وتقع في اكبر جزرها) .

(١٣) ورد في تقرير البروفيسور (اورهونلو) المترجم من الدكتور الداقوقي ص ٢١٤ : ان هذا الاجتماع قد حضره ممثل برتغالي وممثل من هرمز و اخر يمثل الجيش العثماني

في الجزيرة . (كلربكي) الاحساء كاتب هذه الوثيقة سيكون مبعوثا يمثل جانب العثمانيين . و(كلربكى) هو منصب لمصطفى باشا ولم يذكر اسم كاتب الوثيقة الذي كلفه كلربكي الاحساء بحرب المقاتلين القادمين من هرمز الى البحرين فظفر بهم وبعد شهر تو في بكلربكي الاحساء مصطفى باشا فانتخب كاتب الوثيقة للتفاوض مع حاكم البحرين .

(١٤) الوثيقة رقم ص ١٤٠ وانظر : (صفوت بك ، وقعة في البحرين (باللغة التركية) ج٣ ص ١١٤٠ ـ ١١٤٢ واوزبران ص ٥٣ وقد ورد في سجل الرؤوس ذكر قطر ١٥٥٥م/٩٦٢هـ وقد جاء فيه ان العرب في قطر جميعا يشتغلون في الملاحة وهم اصحاب سفن من صغيرة وكبيرة يربو عددها على الف سفينة منهم يعملون في النقل ومنهم التجار والملاحون وعملوا على رفاه المنطقة وكان شيخهم (محمد بن سلطان بن مسلم) وله املاك في الاحساء لذا كانت صلاته مع الاحساء وثيقة انظر (اعلام في سفر البحرين) عن تقرير أورهنلو ترجمة الدكتور الداقوقي ص ٢١٨ العدد ٢٤ مجلة دراسات الخليج العربي .

(١٥) السياسة الدينية للدولة العثمانية في عهد القانوني ص ٢٤٩ و ٢٥٠ ووثيقة رقم ٢٣ مهمة دفتري ص ٦٤ حكم ١٣٤ مصورة من ارشيف رئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول . وجنكيز اورهونلو وثيقة عن (وقعة حربية في البحرين رقم /٣٠٠٤/ مصورة من ارشيف قصر طوب كابي وترجمها الدكتور اوزبران والاستاذ احمد اغر اغجه للعربية . وانظر صفوت . وقعة في البحرين ج ٣ اسطنبول ١٣٢٨هـ معارك العثمانيين مع البرتغال في خليج البصرة لاوزبران طبع ١٩٦٣م وترجمة حسين الداقوقي اعداد اورهونلو ص ٢١١ و٢١٧ عن مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٢٤ الكويت والاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ص ٥٣ الى ٥٥ وانظر : صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين للدكتور اباحسين الوثيقة ١/١٤٠ ـ ١٥ يوليو ١٩٨٢م .

(١٦) (د.م) ٢٢ص ٣١٧ في ١٥ جمادى الاولى ٩٨١هـ/وانظر (د.م) ٢٢ص ٤٣ في ٢٣ محرم ٩٨١هـ . و (د.م) ٢٢ص ٣٢٠ في ١٥ جمادى الاولى ٩٨١هـ/ وانظر الوثيقة من دفتر المهمة رقم ٢٣ ص ٩٨ والمؤرخة في ٨ رجب ٩٨١هـ .

(١٧) سبائك العسجد . ص ١٨ طبع بومباى ١٣١٥هـ (وفي روايه ان سنه وفاته ١٢٥٠هـ/الموافق ١٨٣٤م) أنظر الزركلى الاعلام جـ ٤/ص ٢٠٦ .

(١٨) لسان العرب ٥٧٩/١ وديكسون . الكويت وجيرانها ص ٢٦ و د. الخصوصى دراسات في تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ٩٩/١ .

(١٩) حجازى . تاريخ ايران ص ١٧٩ باللغة الفارسية . ولؤلؤتى البحرين ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣ البلادى أنوار البحرين ص ١٣٣ .

(٢٠) الرشيد . تاريخ الكويت . ص ١٠ و ١٤ . الوثيقة ٨٦/١ و٨٧/ وانظر دراسة في تاريخ العتوب للدكتور علي أبا حسين (الوثيقة) العدد ١/ص ٩٠ ـ ١٠١ .
وفي هذه الدراسة ذكر عن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الفترة السابقة والمعاصرة لهجرة العتوب من قلب الجزيرة العربية الى اطرافها .

(٢١) ١٨٩/٢٥٦/٥٠ في ١٣ مايو ١٨٣٩م/١٢٥٥هـ .

(٢٢) وتقرير رقم ١٨٩/٢٥٠/٦٠/في ٢٥ سبتمبر ١٨٣٩م/١٢٥٥هـ .

(٢٣) رسالة من عراق وحجاز اردوى همايون مشيرى وبغداد ايالتى واليسى الى الشيخ محمد بن خليفة بتاريخ شعبان ١٢٧٦هـ . ورسالة من ملتزم المقاطعات رئيس

البوابين (عبيد) الى الشيخ محمد بن خليفة في ٨ ذي الحجة ١٢٧٦هـ .

(٢٤) ارادة/شورى الدولة العدد ٢٤٢ في ٣ رمضان ١٣٠٥هـ في آيار ١٣٠٤ رومية .

(٢٥) ارادة/شورى الدولة ٤٩/١٠/شعبان ١٣٠٨هـ .

(٢٦) من كرنل (راص) باليوز في الخليج العربي الى الشيخ عيسى بن على آل خليفة نمرة/٧١/١٨٨٧/وانظر الوثيقة رقم ٢٩ ـ هند ٤/ص ٢٦٢ .

(٢٧) دفتر العينيات رقم ٨٥١/٣٣٧/في ٦ جمادى الاولى ١٢٨٨هـ/١٨٧١م . والنظارة الخارجية رقم ٤٥/في ١٤ رجب ١٢٩١ الموافق ٣٠ اغسطس ١٨٧٤م ومذكرة رقم ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ خ في ١٩ شعبان ١٣١٠هـ .

(٢٨) دفتر العينيات رقم ٨٥١/٢١٩٠ في جمادى الأولى ١٢٨٨هـ/١٨٧١م وارادة داخلية ٤٦٩٩/٢٠ جمادى الاولى ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م .

(٢٩) مضابط مجلس الوكلاء دفتر رقم ٢٨/ص ٦٩ جواب القنصل الانجليزى بتاريخ ٧ جمادى الآخرة ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م .

(٣٠) النظارة الخارجية ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ خ عن صورة التقرير الصادر من المستشار العثماني حول المطالبات الانجليزية بتاريخ ٨ ذي الحجة ١٣٠٩هـ الموافق ١٨٩٢م تحت رقم ٥٦٩٧ .

(٣١) الريحاني . أمين . ملوك العرب ٢/٢٧٨ و ٢٨٠ طبع بيروت ١٩٦٧م .

(٣٢) تولى الشيخ عيسى بن على آل خليفة زمام الحكم ١٨٦٩/١٢٨٦هـ وتوفى ١٩٣٢م/١٣٥١هـ .

(٣٣) تقرير مؤرخ في ٢٨ شعبان ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م ومذكرة من النظارة الخارجية رقم ٤٦/في ١٣٢٩هـ/١٩١١م .

الإدارة العثمانية في الخليج العربي

بقلم الدكتور/
مصطفى عبدالقادر النجار (العراق)





يعتبر شهر نيسان / ابريل من عام ١٨٧١ تاريخا بارزا في السياسة العثمانية ، فقد أعلن مدحت باشا في ذلك التاريخ سيادة الدولة العثمانية على الساحل الغربي للخليج العربي . ولكي يضع اعلانه موضع التنفيذ أعد حملة عثمانية كبيرة[١] بقيادة نافذ باشا[٢] متذرعا باستنجاد عبدالله بن فيصل بن تركي[٣] به سنة ١٨٧٠ في صراعه مع أخيه سعود . وقد خرجت الحملة من البصرة متجهة نحو الكويت[٤] فقدم شيخها عبدالله الصباح (١٨٦٦ ـ ١٨٩٢) مساعدات سخية[٥] للحملة إذ شارك بسفنه التي تزيد على الثلاثمائة سفينة عن طريق البحر[٦] وعهد الى أخيه مبارك بقيادة عشائر الكويت عن طريق البر . وقد تم للحملة التي نزلت في رأس تنورة في أيار سنة ١٨٧١ والتي تتكون من حوالي اربعة آلاف جندي نظامي و١٥٠٠ من أفراد العشائر وتسعة مدافع ـ الهيمنة على القطيف والهفوف بسرعة كبيرة وبدون أية مقاومة تذكر . فما كان والحالة هذه إلا أن أعلن السديري ـ عامل ابن سعود الذي تحصن في قلعة القطيف ـ الاستسلام . وعندئذ رفع العلم العثماني على القلعة اعلانا بخضوع لواء نجد ـ وهو الاسم الجديد الذي اطلق على مقاطعة الاحساء ـ الى السيادة العثمانية وأخذ نافذ باشا يعين الحكام في المقاطعات المختلفة[٧] .

وفي تموز سنة ١٨٧١ خرجت من الهفوف قوة عثمانية بقيادة شيخ الكويت سيطرت على قطر واتخذت من الدوحة قاعدة لها وبذلك تأكدت السيادة العثمانية على ذلك الجزء من الخليج العربي . على ان تلك السيادة ظلت تراوح مكانها ولم تستطع بعدئذ الزحف نحو الجنوب ، ولا أن تظهر لها آثار تذكر في الساحل العماني .

وفي سبيل تثبيت دعائم الحكم العثماني وتأكيد الادارة المباشرة في الساحل الغربي للخليج العربي وما يتبعه من جزر ، قام مدحت باشا في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر من نفس السنة بزيارة الاحساء ومكث فيها اربعين يوما ـ ليشرف بنفسه على نتائج حملته ، وقد قدمها عن طريق البحر ، ومنها سار في ثلاث سفن بخارية تحمل قوات كبيرة الى القطيف فوصلها في ١٤ تشرين الثاني . ومنها اتجه في اليوم السابع من وصوله الى العقير في فرقة قوامها ثلاثمائة جندي . ومنها سار الى الهفوف قاعدة الاحساء وقد نشر اعلانه الشهير الذي تضمن سياسته في المنطقة جاء فيه :

«لقد أسقطنا الرسومات التي تؤخذ من الأهالي باسم الجهاد وخدمات المأمورين على تحصيل الزكاة والزيادة في الخرص (التقدير) المخالف للاحكام الشرعية ـ ومراد الدولة العلية ترفيه احوال التبعية وزيادة ثروتهم وأمرنا بالغائها وعدم أخذها . ونبهنا المأمورين بعد تحليفهم على عدم الزيادة على الواجب الشرعي[٨].» .

وقد بدأ مدحت باشا في الحال اجراء تنظيماته فأعلن ان الاحساء اصبحت من ممتلكات الدولة العثمانية وعين نافذ باشا متصرفا عليها[٩] وجعلها لواء ـ درجة ثانية بعد الولاية ـ من الوية البصرة [١٠] كما عين حكاما وقضاة شرع وقسم لواء نجد [١١] الى ثلاثة أقضية هي قضاء الهفوف وقضاء القطيف وقضاء قطر وجعل الهفوف ـ واحة الحساء ـ مركزا للواء[١٢] ـ مقر المتصرف ـ وجمع في شخص المتصرف «متصر ـ فلق» السلطتين المدنية والعسكرية[١٣] . وقسم قضاء الهفوف الى خمس نواح هي : الهفوف «المركز» والعيون ، والمبرز ، وباب الجفر ، والعقير . ولكن ذلك لم يشمل قضائي قطر والقطيف اللذين تركهما دون تقسيم واختار قضاء القطيف لأن يكون مركزا لتموين الأقضية الأخرى . وعين شيخ الدوحة قاسم بن ثاني[١٤] ـ اكثر الرجال نفوذا ـ قائمقاما» «قائمقا ملق» لقضاء قطر . وأجرى له راتبا سنويا ويعاونه في ادارة شئون القضاء معاون له»[١٥] . ولتأكيد اجراءات مدحت باشا في قطر قدمت قوة عثمانية يصحبها عبدالله الصباح شيخ الكويت على الباخرة العثمانية اشور وغيرها لزيارة الدوحة . وهبطت الى البر قوة قوامها مائة جندي مزودين بمدفع من مدافع الميدان الثقيلة[١٦] .

وقد فكر مدحت باشا بعدئذ بالهيمنة على البحرين ليتخذها قاعدة عسكرية لوقف عمليات حاكم الرياض الذي أخذ يهدد العثمانين في الاحساء . وكان قد سبق أن قدم مدحت باشا سنة ١٨٧٠ صياغة

محددة لادعاءاته فقال : «ان البحرين وتوابعها كانت تابعة لقائمقام نجد وانها اصبحت بالتالي تابعة للإمبراطورية العثمانية[١٧]» .

وبذل محاولات لاقناع شيخ البحرين بالتبعية العثمانية ، وارسل له عارف بك قائد بحرية البصرة ولكن شيخ البحرين رفض العرض بناء على تعليمات المقيم البريطاني لذا فإن الحكومة العثمانية اضطرت الى اجراء تسوية مع السعوديين ومع هذا فإنها استمرت بعد مدحت باشا في اتخاذ كل الوسائل التي توصلها للسيطرة على البحرين[١٨] .

والملاحظ ان اجراءات مدحت باشا قد أكدت علاقة الدولة العثمانية بكل من الكويت والاحساء وقطر عدا البحرين التي لم يظهر فيها النفوذ واضحا - إلا في فترات قصيرة ومحدودة - شأنها في ذلك شأن امارات الساحل العماني[١٩] التي لم يستطع مدحت باشا فرض السيادة عليها .

ولكن على الرغم من ذلك فإن حملة الاحساء تركت اساسا ارتكزت عليه الدولة العثمانية فيما بعد في تأكيدها لتلك السيادة . ولقد كان من الممكن ان تظهر فاعلية تلك الحملة لو استمرت الدولة العثمانية في مواظبتها في الجهد الذي بذله مدحت باشا ، إلا انه من الثابت ان ما قام به ذلك الوالي كان يعتمد الى حد كبير على طموحه الشخصي[٢٠] .

ويبدو ان مدحت باشا كان مدفوعا بحملته أكثر مما كان يريد منه الباب العالي . ويتضح ذلك من الاحتجاج الذي قدمته بريطانيا من احتمال تقدم قوات مدحت باشا الى الساحل العماني ومسقط . حيث أشعر الجميع انه ينظر نظرة أكثر شمولا واتساعا الى حدود نجد ، مع ان هذه الحدود لا تضم منطقة الاحساء وحدها بل البحرين وقطر وساحل عمان وسلطنة مسقط ايضا[٢١] - لكن الحكومة العثمانية أكدت لبريطانيا انها اصدرت تعليماتها لمدحت باشا بعدم التقدم أكثر مما حققت حملته .

ان اصرار مدحت باشا على تحقيق التوسع في الخليج العربي قد جره الى نزاع مع الحكومة البريطانية [٢٢] لذلك عندما حاول التطلع الى الامارات الاخرى في الخليج العربي حالت السفن البريطانية بينه وبين تحقيق غرضه [٢٣] .

وقد جرت مراسلات كثيرة حول محاولات التوسع العثماني في الخليج العربي بين الحكومة العثمانية والبريطانية . كانت الأولى تنفي باستمرار أن تكون لها نوايا توسعية أبعد من حدود نجد وعليه حددت بريطانيا خط حدود نجد بمناطق وكرة وبدعة وهما أبعد منطقتين وصلت اليهما القوات العثمانية على الساحل[٢٤] . عندئذ اعترفت في سنة

١٨٧٨ بالسيادة العثمانية على ساحل نجد حتى تلك الحدود . وذلك لما له من أهمية بالنسبة لبريطانيا في الابتعاد عن منازعات القبائل العربية في تلك الجهات ولكن على الرغم من هذا فإن الدولة العثمانية سرعان ما أغفلت هذه المنطقة ويلاحظ انها خففت كثيرا بعدئذ من قبضتها عليها فكان ذلك مدعاة لثورات سعودية متكررة .

ومهما يكن من أمر فإن خطط مدحت باشا اثارت بريطانيا من امتداد السيطرة العثمانية على الساحل الغربي . وبذلك تكون قد أحكمت السيطرة على سواحل الجزيرة العربية كلها وعندئذ سيتزعزع مركز بريطانيا في الجزء الجنوبي من الخليج العربي ، فكان رد الفعل البريطاني زيادة تشديد القبضة على الخليج العربي وذلك بعقد سلسلة من المعاهدات الجديدة مع شيوخ الامارات العربية كما انها استغلت قضية القرصنة في سبيل مقاومة التحرك العثماني الجديد وصارت تبالغ في خطورتها واستفحال أمرها بالنسبة للمناطق التي تخضع للعثمانيين في الخليج العربي وقد وجهت الى سلطات البصرة احتجاجات متكررة ومستمرة .

وقد أخذت وزارة الخارجية البريطانية في هذا الوقت زمام السلطة الفعلية في قضايا الخليج العربي وكانت قبلا من اختصاص وزارة الهند وحدها[٢٥] . ومن دراستنا لطبيعة حكم العثمانيين في الاحساء يتضح لنا ان النظام الاداري فيها كان اقل احكاما عما هو عليه في ولايات العراق . فهو يأخذ بعض الشيء سمات الحكم العسكري . وفي الهفوف والقطيف أحكمت ركائزه جيدا[٢٦] ويعطينا لوريمر صورة واضحة لذلك النظام العسكري فيقول :

«كانت الزراعة تدار بواسطة قوات عسكرية . وفي أغلب القرى يوجد مشيخات وراثية والرئيس فيها هو المختار بوساطة اربع شخصيات محترمة . وتتألف القوة العسكرية للمتصرفية من اربع حاميات . منها حاميتان للمشاة واثنتان للمدفعية التى تجرها البغال . وهذه القوة بمجموعها تكون الطابور الرابع لولاية البصرة[٢٧]وليس في المنطقة مكاتب للبريد والبرق .

أما البريد الرسمي فيتم نقله بمساعدة قبائل عجمان وبني هاجر وبني خالد والمرة[٢٨]لقاء ما يدفع لهم من معونات تقدر بـ ٤٣٧,٥٠ ليرة (ما يعادل ٤٠٠ جنيه استرليني) .. ويتبع في انحاء المتصرفية نظام النفي لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء على السلطة وانتهاك حرمة الغير . أما قوة الشرطة فتتألف من ست مفرزات أو فرق من الضابطية أو الجندرمة ورجال الضابطية ـ كما هو في العراق العثماني ـ معظمهم من

الأكراد . والدخل في الاحساء معظمه من الزراعة . وتفرض ضريبة نقدية على التمر تتناسب مع عدد النخيل . والضرائب في المتصرفية لا تدار بواسطة ادارات الضرائب العثمانية كما هو الحال في ولاية البصرة ولكنها سنوية . كما ان هناك ضرائب على قوارب اللؤلؤ وقد قدر الدخل السنوي لمتصرفية الاحساء بستين ألف ليرة . يصرف منها ٥٤ الف ليرة لتغطية النفقات العسكرية والباقي - ٦ آلاف ليرة - كمصروفات للخدمات الادارية المدنية وقد فرضت القوانين العثمانية على المتصرفية . وفيها دائرة التعليم العامة التى تدير مدارس بأماكن مختلفة[٢٩] .

وقد ادرك العثمانيون بعد تجربة حكمهم العسكري انهم لا يستطيعون حكم نجد حكما مباشرا - كما اراد لها مدحت باشا - لاسباب عدة : اولها النفقات المالية والعسكرية وثانيها قسوة المناخ في تلك الجهات[٣٠] وثالثها فقر المنطقة وآخرها بعدها عن مركز الخلافة . هذه الاسباب وغيرها من الصعاب دفعت الدولة العثمانية لأن تتبع تجربة - لم تستمر طويلا - في الادارة الاقتصادية للاقليم وذلك بتخفيض عدد جنود الحامية الى أقصى حد ممكن . وعهدت بأمور الاحساء الى آل السعدون - شيوخ المنتفك الذين كانوا يحكمون البصرة - وهؤلاء كان همهم الوحيد اتباع سياسة تجعلهم يحافظون على المتصرفية بقدر الإمكان وعليه قرر ناصر باشا السعدون والي البصرة سنة ١٨٧٤ ادخال نظام قليل التكاليف محاولا أن يجعلها تسير في طريق الحكم المحلي . وعمل على سحب معظم الحاميات العثمانية الى البصرة . واراد ان يشرف على التجربة بنفسه فحضر على رأس وفد يصاحبه فيه أحمد باشا قائد ما تبقى من القوات العثمانية الى الاحساء[٣١] .

وقد نقلت السفن العثمانية «اشور» و«ابنس» و«لبنان» و«سينوب» الوفد الى رأس تنورة .

وشهدت الهفوف عقد مؤتمر كبير أعلن فيه ناصر السعدون تعيين براك بن عرير[٣٢] شيخ بني خالد الذي يكون ناصر السعدون صهرا له متصرفا على الاحساء .. ووضع بعض الحاميات العسكرية تحت تصرفه . ثم عاد الوفد العراقي الى البصرة مع معظم القوات العثمانية وعدد من الأسرى الذين يعارضون تعيين براك[٣٣] .

ولكن اجراءات ناصر السعدون لم تأت بنتيجة تذكر فقد توالت الثورات ضد الحكم العثماني في نجد ولم يستطع الحاكم منع تجددها[٣٤] وقامت عدة معارك بين العثمانيين والسعوديين الأمر الذي أجبر ناصر السعدون على أن يتسلم زمام الأمور في متصرفية الاحساء

بنفسه . وقد حضرها سنة ١٨٧٥ على رأس قوة قوامها ٢٤٠٠ جندي وأربعة مدافع . استطاع بوساطتها ان يهدىء الأحوال فيها . واتخذ عدة اجراءات رادعة وعندما عاد الى البصرة جعل ابنه فريد باشا متصرفا على الاحساء .

ولكن والي البصرة[٣٥] الذي نجح في كبت المعارضة الداخلية في الاقليم لم يستطع ان يصد الاخطار الخارجية عنه . وصار يتعرض الى غارات سعودية متوالية . وقد شهدت الفترة ما بين ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩ أعنف هزة سعودية كادت تنجح في انهاء الوجود العثماني في الخليج العربي ، لولا وصول الامدادات المتلاحقة من البصرة التي استطاعت ان تدعم الوضع القائم وتنقذه من الانهيار ويبدو ان الدولة العثمانية ـ بعد هذه الفترة ـ غيرت من اسلوب الصدام المباشر مع السعوديين وذلك بتعاملها مع آل رشيد الذين وجدت فيهم خير وسيلة للوقوف بوجه تحرشات السعوديين .

عندئذ أمنت على مركزها في الاحساء وقد استطاعت بفعل اسلوبها الجديد هذا ان تتحاشى كل الهزات التي كانت تنتابها سابقا وبذلك وفرت عليها الكثير من الاستعدادات اللازمة لمثل تلك الأمور ولم تعد تسمع بعدئذ انباء عن أي هجوم سعودي على الاحساء حتى قبيل الحرب العالمية الأولى . أما الموقف البريطاني من التواجد العثماني في تلك الفترة فقد افصح عنه اللورد كيرزن سنة ١٨٩٢ عندما قال : «ان السيادة العثمانية تمتد من القطيف الى الفاو[٣٦] .

كما ان السفير البريطاني في الاستانة السير فورد (Sir Ford) كتب سنة ١٨٩٣ رسميا الى وزير الخارجية العثمانية يبلغه :

«ان حكومة صاحبة الجلالة تعترف بحقوق الدولة العثمانية في السيادة على طول الساحل من البصرة الى القطيف[٣٧]» وهذا تأكيد من بريطانيا لما سبق ان اعترفت به سنة ١٨٧٨ من ان سيادة الدولة العثمانية تمتد على طول ساحل نجد .

وبالنسبة للسيادة العثمانية على قضاء قطر التابع لمتصرفية الاحساء ـ فلقد أعيد تنظيم الادارة العثمانية فيه سنة ١٨٨٩ على اثر زيارة متصرف الاحساء للدوحة في تموز ١٨٨٩ حيث أوصى بإقامة دار حكومية تضم قوة عسكرية من الفرسان والمشاة للمحافظة على الأمن وان يعاد النظر في الضرائب المفروضة على تجار اللؤلؤ وأن يعين مدير للميناء مسئول عن تحصيل العوائد من السفن الوطنية كما عمل على فتح مكاتب بريدية في الزبارة والعديد وأمر بتسيير سفينتين بخاريتين بشكل منتظم بين الدوحة والعقير والقطيف . واقترح اقامة

مسجد في العقير . وازاء تلك الاجراءات قدم الشيخ قاسم بن ثاني - قائمقام قطر - استقالته معلنا ان الحكم انتقل من بين يديه الى ايدي المسئولين العثمانيين ولكن والي البصرة رفض استقالته ونصحه في اوائل ١٨٩١ بالعدول عنها[٣٨] ومنذ ذلك التاريخ بدأت العلاقة تتأزم بين القائمقام والوالي وقد استطاع الشيخ قاسم احباط مشروع اقامة الدار الحكومية في الدوحة . على ان الأزمة قد تفاقمت سنة ١٨٩٣ اثر زيارة والي البصرة لمتصرفية الاحساء ومروره بقضاء قطر وقد سير له والي البصرة حملة عهد بقيادتها الى محمد حافظ باشا قائد الجيش العثماني في الاحساء وحظيت الحملة بتأييد الشيخ محمد الصباح وارسل اخاه مبارك على رأس قوة من الكويتيين ولم تسو المشكلة إلا بعد ان تدخل محمد سعيد نقيب البصرة في حزيران سنة ١٨٩٣ في الأمر وأقنع الشيخ قاسم بالتنازل عن الحكم لأخيه الشيخ أحمد[٣٩] ولكن رغم هذا فإن الشيخ قاسم بقي هو الحاكم الفعلي في قطر ويذكر لوريمر انه «منذ ذلك الوقت كان شيوخ قطر متهيئين للحماية البريطانية[٤٠] .

والواقع ان الدولة العثمانية قد بذلت محاولات جادة لتقوية نفوذها في متصرفية الاحساء وتوابعها في وقت أخذت تحس بوطأة الضغط البريطاني والسعودي الثقيلين عليها . فوقع اختيارها على السيد طالب النقيب سنة ١٩٠٢ لتجعله متصرفا على الاحساء[٤١] . في محاولة لاصلاح الأمور وتهدئة الاوضاع والحيلولة دون تعرضها للقوى المناوئة . ويبدو ان تعيينه جاء اثر تلقى الصدر الأعظم رسالة سرية من ابن رشيد[٤٢] حليف العثمانيين في الجزيرة - يحذر من محاولة اغراء الانكليز لشيخ الكويت مبارك بالاستيلاء على المواقع العثمانية في الاحساء[٤٣] . ولكن عهد السيد طالب النقيب في متصرفية الاحساء كان قصيرا .

ولم يترك أي أثر واضح في مجريات الأمور ورغم انه نجح في كبت المعارضة الداخلية للدولة العثمانية وقضى على آثار الفوضى الداخلية إلا انه كانت تعوزه الخبرة الادارية والحنكة السياسية في معالجة القضايا في مثل هذه الجهات . لذلك فقد بان فشله بعد سنة واحدة من تسلمه منصبه الجديد على اثر حادثة ادارية[٤٤] . أرغمت السلطات العثمانية على ايقافه عن عمله لكنه ظل يحتفظ بوظيفته اسميا حتى سنة ١٩٠٥ [٤٥].

ولم يستطع النقيب ان يحدث أي تغيير يذكر في الاحساء كما توقعت له الدولة العثمانية وكان حكمه فيها يقوم على التهديد والقوة . ولذلك فقد عادت الفوضى تضرب اطنابها في المنطقة بعد تنحيته .

ويمكننا ونحن ندرس التاريخ العام للمنطقة ـ ان نميز فترة شبيهة بفترة ولاية مدحت باشا في الخليج العربي من حيث توجيه الاهتمام الكامل لهذه الربوع ، وتقوية نفوذ الدولة العثمانيةفيها . تلك هي فترة حكم الاتحاديين . فقد شهدت البصرة في عهدهم نشاطا كبيرا لاعادة السيطرة العثمانية على مناطق الخليج العربي الذي أخذ النفوذ العثماني يتقهقر فيها . وكان العثمانيون مدفوعين ـ بلا شك ـ بتأثير المشاريع الالمانية في الخليج العربي .

وأول خطوة اتخذها حكام الدولة العثمانية الجدد في الخليج العربي هو الايعاز سنة ١٩١٠ الى السلطات في البصرة بارسال فرقة من الجنود لاحتلال جزيرة الزخنونية(٤٦) اذ قامت هذه الفرقة برفع الراية العثمانية على تلك الجزيرة . ولم يلق احتجاج الحكومة البريطانية على ذلك العمل اهتماما من السلطات العثمانية وأنكر والي البصرة على القنصل البريطاني حقه في أن يناقش معه هذه المشكلة رسميا أو شخصيا(٤٧) .

وقد أعقب الاجراء العثماني هذا خطوات أخرى أكثر جراة وذلك عندما اقدم والي البصرة على تعيين اداريين من الاتراك في كل من موانىء العديد والوكرة والزبارة وغيرها من الموانىء ذات التبعية العثمانية . كما ارسل العديد من الحاميات العثمانية بحجة حماية موسم صيد اللؤلؤ(٤٨) ولكن يبدو ان اندفاع ولاة البصرة وبغداد وتدعيم السيطرة العثمانية في الخليج العربي لم يستمر دعمه من قبل الاتحاديين وانما نستطيع القول ان هناك تفاوتا واضحا بين ما اتبعه ولاة العراق من الاتحاديين من تحمس شديد لاقرار نفوذهم في تلك الجهات وبين ميل الاستانة الى اسلوب التفاوض دوليا عليها .

ومن المؤكد ان الذي ارغم الاتحاديين لاتخاذ هذا النهج هو متاعبهم مع ايطاليا في ليبيا وما صادفوه من مصاعب في البلقان وما جرته عليهم مشاكلهم مع روسيا . فضلا عن ان الجيش العثماني كان مايزال تحت التنظيم الالماني وكان لا بد أن تمر سنوات عديدة قبل ان تستطيع الدولة توجيه سياستها الى هذه المناطق البعيدة(٤٩) .

والواقع ان الادارة العثمانية في متصرفية الاحساء كانت تجر وراءها مشاكل سياسية كبيرة . فلم تكن الادارة فيها من القوة والوعي بدرجة تجعلها تنهض بالمتصرفية ذات الموقع الاستراتيجي الخطير وقد كانت دائما عبئا ماليا ثقيلا . وان محاولات المتصرفين في تحصيل عوائد الموانىء والضرائب الزراعية اصبحت سببا في القضاء على كل نشاط تجاري وزراعي وظل الصراع قائما بين اهالي الاحساء والحكام العثمانيين . وهجر الاحساء

الى البحرين الكثيرون هربا من ثقل الضرائب المفروضة عليهم وقد اصبحت البحرين تنافس الاحساء في تجارتها كما ان القوات العثمانية لم تستطع ان تحافظ على الأرض على طول الساحل النجدي حيث اصبح مضطربا بصورة دائمة اما الاجراءات العثمانية فهي اضعف من ان توقف تلك الاضطرابات هذا اضافة الى ان الثورات الداخلية كانت تسبب ازعاجا دائما للحكام العثمانيين . وقد شهدت الاحساء غارات مستمرة كلفت الادارة العثمانية الشيء الكثير والطرق التجارية لم تسلم من هجمات البدو الذين وجدوا في قوافل التجار موردا اقتصاديا وفيرا .

الهوامش

١ ـ تضم السفينة الحربية البخارية (برونزة) مسلحة بخمسة وعشرين مدفعا والسفينة غير المسلحة (نينون) وزودت باربعة مدافع وسفينة الحراسة (خوجة بك) وهي خشبية قديمة عليها ١٨ مدفعا قديما والى جانب تلك السفن هناك ثلاث سفن صغيرة من صنع البصرة تحمل بين ٤ ـ ١٢ مدفعا كما اضيف الى ذلك الاسطول العثماني سفينتان اخريان .

٢ ـ سماه محمد انيس وسيد رجب حراز . في كتابيهما الشرق العربي «حافظ باشا» وهو غير صحيح . راجع ص ١٥٠ .

٣ ـ عن التفاصيل في ذلك راجع عبدالفتاح حسن ابو عليه ـ الدولة السعودية الثانية (١٨٤٠ ـ ١٨٦١) رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٦٩ .

٤ ـ كان يرافق الحملة السيد/ محمد سعيد ابن نقيب البصرة وشيخ المنتفك الشيخ منصور وغيره من شيوخ عرب العراق .

٥ ـ يذكر سيد رجب حراز ـ الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ص ١٧١ ان ذلك كان سبب منحه لقب باشا واراضي واسعة على شاطىء الفرات بالقرب من الفاو . والواقع ان الفرات بعيد عن الفاو . وان الفاو تقع عند مصب شط العرب في الخليج العربي ولا يمكن ان تكون تلك الأراضي والحالة هذه واقعة على شاطىء الفرات وهي في الوقت نفسه قريبة من الفاو .

٦ ـ Lorimer, op. cit. vol.I. Part I P.P. 968-969 بينما يقدرها سيف مرزوق الشملان ـ من تاريخ الكويت ص ١٣٦ بثمانين سفينة .

٧ ـ Longrigg, op. cit. p.p. 302-303

٨ ـ راجع نص البيان في محمد سعيد المسلم ـ ساحل الذهب الأسود ص ٨٩ ـ ١٩٠

٩ ـ Lorimer, op. cit. Vol. I part I P. 970

١٠ ـ كان مدحت باشا قد اصدر نظاما جديدا للادارة في ٢٩ شوال سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧١ م جعل ولاية البصرة تتالف من اربعة الوية وهي :

١ ـ لواء البصرة وقسمه الى اقضية البصرة والفاو والقرنة والكويت .

٢ ـ لواء المنتفك : وقسمه الى اقضية الحي والناصرية وشطرة المنتفك وسوق الشيوخ .
٣ ـ لواء العمارة : وقسمة الى اقضية دويرج وشطرة العمارة .
٤ ـ لواء نجد (الاحساء) : وقسمه الى اقضية الهفوف والقطيف وقطر .

١١ـ يذكر لوريمر ـ دليل الخليج جـ ٣ ص ١٤٥٩ ان تعبير نجد الذي يستخدمه مدحت باشا يشمل الشارقة ودبي وابوظبي . ويذهب لوريمر الى قوله هذا بناء على قائمة نشرت في جريدة بغداد الرسمية تحمل من بين بيوت وحدائق نجد تلك المدن .

١٢ـ في سنة ١٩٠٥ استحدث سنجق القصيم الى جانب سنجق الاحساء وقسمته الحكومة العثمانية الى قضائين هما بريده والرياض :
راجع خالد محسن اسماعيل ـ قلم وزير ـ اثار ابراهيم صالح شكر ص ٨٩ .

١٣ـ لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم الجغرافي جـ ٢ ص ١٠١٩ .

١٤ـ كان ابوه الشيخ محمد اميل للتفاهم مع بريطانيا منه الى العثمانيين . ولكنه كان قد شاخ ويعوزه الحزم ولم يكن له صوت يذكر في الحياة العامة حتى توفى سنة ١٨٧٨ .

١٥ـ كان الاتراك يبذلون جهودا لتقديم موظف تركي لوظيفة مساعد للقائمقام . وفي سنة ١٩٠٣ كان الباب العالي يحاول انشاء مديريات في كل من الوكرة والزبارة للأعمال الرسمية التركية واستمر اتصال الحامية التركية بالعالم الخارجي عن طريق مكتب البريد عبر الصحراء «شهريا» عن طريق الهفوف .

١٦ـ لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخي جـ ٣ ص ١٢٢١ .

١٧ـ المصدر نفسه ص ١٣٦٢ .

١٨ـ للزيادة في تفاصيل علاقة العثمانيين بالبحرين (١٨٧١ ـ ١٨٩٥) راجع نفس المصدر ص/١٣٧٨ ـ ١٣٨٦ .

١٩ـ للتفاصيل راجع عنها Donald Hawley, The Trucial States (London - 1970) .

٢٠ـ جمال زكريا قاسم ـ المصدر السابق ص : ٢٠٣

٢١ـ كيلي ـ ترجمة خيري حماد ـ الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية صفحة ١٤٢ .

٢٢ـ للاطلاع راجع جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربي ص ١٨٦ ـ ١٩٠ وللوقوف على تفاصيل وافية عن الحكم العثماني في الاحساء وأهمية الحملة والتطورات التي تركتها . راجع الفصل الخامس ـ حملة الاحساء ص ١٧١ ـ ٢٠٤ .

٢٣ـ Curzon, Persia and Persian Question, Vol. 11 p. 545

٢٤ـ Aitchison, collection of treaties engagements and asanads relating to India

and Neighbouring Countries vol. X. P. 115 .

٢٥- جمال زكريا قاسم - مختارات من وثائق الكويت والخليج - مقدمه .

٢٦- Zwemer, Arabia "The Cradle of Islam" studies in the geography, people and politics of the peninsula with an Account of Islam Mission p. 117.

ويمكن الرجوع الى الصفحات ١١٣ ، ١١٧ للزيادة في الاطلاع على طبيعة ذلك الحكم .

٢٧- بجانب ذلك هناك حامية في قضاء قطر بالدوحة الاحسا من حيث المواصلات البريدية مع العراق العثماني .

٢٨- يتم نقل البريد الرسمي بواسطة الخيل . ويختار حامل البريد من بين القبائل الموالية وهناك رحلة اسبوعية بين الهفوف والقطيف تستغرق ثلاثة ايام ورحلة شهرية بين القطيف والدوحة في قطر تستغرق اربعة ايام . والمواصلات بين الهفوف والبصرة كانت ترسل منذ سنة ١٨٧١ عن طريق البحر ثم أخذت ترسل عن طريق البر .. للتفاصيل راجع : لوريمر - المصدر نفسه ص ١٠٢٥ .

٢٩- نفس المصدر ص : ١٠٣٠ - ١٠٢٤ . وللاطلاع على تفاصيل النظام الأجنبي والاقطاعي يمكن مراجعة : Lutsky, Modern History of Arab countries p.p. 10-28

٣٠- لوريمر - المصدر السابق ١٤٥٧ .

٣١- للتفاصيل راجع عبدالله فلبي - تاريخ نجد ص ٢٥٩ .

٣٢- يذكر لوريمر - المصدر السابق - هامش ص ١٤٦٢ ان الاسم يرد احيانا بزيع او بازة ولكن الصحيح هو بركة وقد وقع في هذا الخطا ديكسون . انظر كتابه الكويت وجاراتها جـ ١ ص ١١٩ .

٣٣- لوريمر - المصدر السابق ١٤٦١

٣٤- Langrigg, op. cit. p. 303 .

٣٥- تم فصل الاحساء وغيرها من الاقاليم التابعة للبصرة من بغداد سنة ١٨٧٥ واصبحت ولاية مستقلة وبقيت كذلك حتى سنة ١٨٨٠ حيث اعيدت مرة اخرى الى ولاية بغداد ولكنها انفصلت عنها فصلا نهائيا سنة ١٨٨٤ واصبحت دولة مستقلة .

٣٦- Curzon, op. cit. Vol. II p. 462 .

٣٧- لوريمر - المصدر السابق ص ١٥٢٥ - ١٥٢٦ .

٣٨- نفس المصدر ص ١٢٢٧ .

٣٩- قتل الشيخ احمد سنة ١٩٠٥ .

٤٠- لوريمر المصدر السابق ص ١٢٥٠ .

٤١ـ عمر فوزي كركوكلي ـ ارج الطيب في مآثر السيد طالب النقيب ص ١٣ .
٤٢ـ عبدالعزيز بن متعب بن رشيد حاكم نجد آنذاك .
٤٣ـ . F.O. 7835252, No. 282 .
رسالة من السفير البريطاني في القسطنطينية الى وزارة الخارجية البريطانية مؤرخة في ١٧ حزيران سنة ١٩٠٢ مع نص مترجم لكتاب عبدالعزيز الرشيد .
٤٤ ـ راجع عنها محمد سعيد المسلم ـ ساحل الذهب الاسود ص ١٩١ .
٤٥ـ لوريمر ـ المصدر السابق جـ ٦ ص ١٩١ .
٤٦ـ تقع جنوب شرقي العقير .
٤٧ـ جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربي ص ٣٢٥ .
٤٨ـ نفسه ص ٣٢٦ .
٤٩ـ نفسه ص ٣٢٥ ـ ٣٣٠ حيث يمكن الرجوع اليه للوقوف على تفاصيل اكثر .



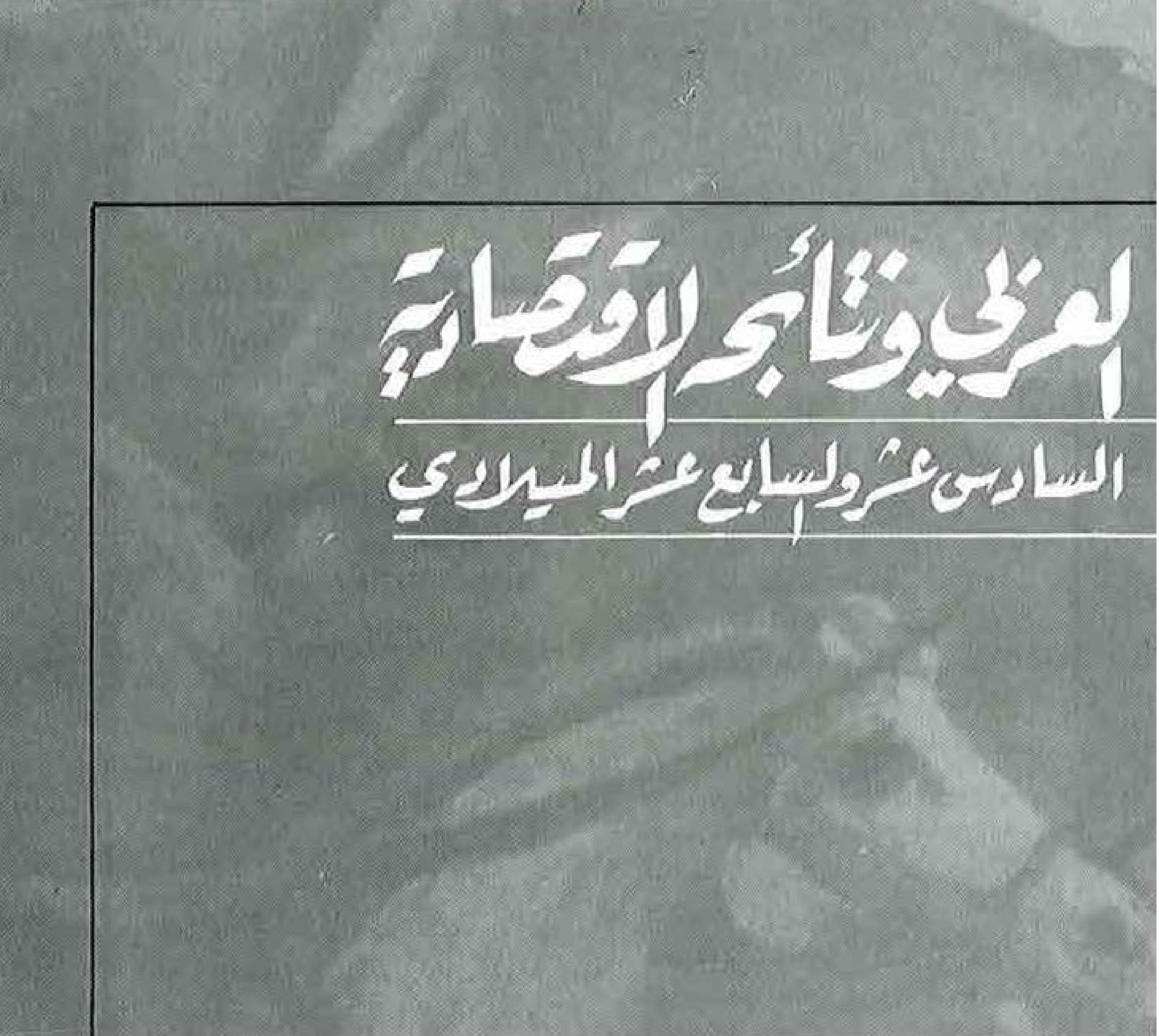
توسّع الدولة العثمانية في الخليج

في القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر الهجري

بقلم : ابراهيم خوري

الحقبة البرتغاليّة
٩٠٤ - ١٠٣٥هـ • ١٤٩٨ - ١٦٢٥م

بدأت الصلات التاريخية المباشرة بين الخليج العربي والدولة العثمانية بتقديم راشد بن مغامس مفاتيح البصرة الى السلطان سليمان القانوني في اواخر فصل خريف سنة ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م ، وانتهت باحتلال الانجليز للعراق في الربع الاول من القرن العشرين (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . فدامت اربعة قرون تقريبا ، وتنوّعت ، فمنها الصلات الدينية . ومنها العلاقات الثقافية والعلمية والحضارية والسياسية . ومنها ايضا وحدة



لعربي ونتائجه الاقتصادية

السادس عشر والسابع عشر الميلادي

المصالح الاقتصادية بين عرب جزيرة العرب عامة وعرب الخليج خاصة وبين العثمانيين .

أ . سيطرة الدولة العثمانية على منافذ تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط:

ففي غضون فترة قصيرة جدا تقل عن ربع قرن ، نهض العثمانيون من كبوتهم بعد تلقيهم ضربة قاصمة من تيمور لنك في معركة انقرة سنة ٨٠٥ هـ/١٤٥٢ م) واعادوا تكوين امبراطوريتهم فاحتلوا القسطنطينية (٨٥٧هـ/١٤٠٢ م) في عهد محمد الثاني الفاتح ، وتوالى توسعهم في البلقان واوروبا وجزر البحر المتوسط . وانتصروا على الصفويين في كردستان (جالديران : ٩٢٠هـ/١٥١٤ م) وقضوا على دولة المماليك في سوريا (مرج دابق : ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م) وفي مصر (٩٢٣هـ/١٥١٧ م) في عهد سليم الاول . واحتلوا العراق (٩٤١ هـ/١٥٣٤ م) في عهد سليمان

القانوني .

وبذلك سيطر العثمانيون على منافذ تجارة المرور الدولية من بحر الهند الى البحر المتوسط في الاتجاهين ، عن طريق الخليج العربي وعن طريق البحر الاحمر .

ب .سيطرة العرب على طرق تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط

اما عرب الخليج والبحر الاحمر ، فقد قاموا بلا منازع ، على مرّ العصور ، ومنذ الالف الثالث قبل الميلاد وحتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، اي على مدى ستة واربعين قرنا ، بدور الوسطاء في التبادل التجاري في العالم المكتشف والمعروف آنذاك ، بين سواحل بحر الهند والصين وبين سواحل البحر المتوسط ، وفي الاتجاهين : من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق .

وتنوّعت السلع المتبادلة تنوعا كبيرا ، قديما وحديثا ، ولم تقتصر ابدا على التوابل ، بل شملت اصنافا كثيرة اشار اليها باسمائها كتاب الطواف حول البحر الاحمر في القرن الاول الميلادي ، وكتاب التبصّر بالتجارة للجاحظ في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، وكتاب ثغر عدن لبامخرمة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي . وتحدثت عنها شتى الوثائق العربية والهندية والبرتغالية ومحفوظات مدن البندقية وجينوة ومرسيلية خاصة .

وكانت تجارة تلك الاصناف تدّر ارباحا طائلة على منتجيها وناقليها والمتعاملين بها وعلى السلطات السياسية القائمة في الاماكن التي تمرّ بها . وسادت قواعد سلوك في التعامل الحرّ بها ، كرّستها اعراف تجارية رضي بها الشرق ، وقبل بها الغرب ، وتقيّد بها العرب . فبنيت العلاقات الاقتصادية الدولية على اسس ثابتة ودائمة .

وكان التجار يسلكون طريقين عربيين : طريق الخليج العربي الى البصرة بتفرعاتها ، واهمّها بغداد فحلب او دمشق فاحد موانىء البحر المتوسط ، وطريق البحر الاحمر بتفرعاتها ، واهمها الانطلاق من عدن الى جدّة فالسويس فالقاهرة فالاسكندرية .

جـ .تهديد البرتغاليين وطريق الاطلسي وتجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط :

لكن طرأت احداث عالمية خطيرة جدا اثرت في تجارة المرور بين بحر الهند والبحر المتوسط . فقد فتح البرتغاليون طريقا ثالثة ، وحاولوا جهد المستطاع حصر حركة التبادل بين الشرق والغرب فيها وحدها ، فهدّدوا مصالح العرب والعثمانيين

الاقتصادية تهديدا سافرا ومباشرا ، ادّى الى نشوب نزاع مسلح متقطع بينهم وبين المعتدى عليهم ، دام قرنا وربع قرن (٩٠٤هـ/١٤٩٨م - ١٠٣٥ هـ/١٦٢٥م) ، أي من وصول داغاما الى الهند حتى طرد البرتغاليين من جزيرة هرموز ، وانتهى باقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي والبحر الاحمر . وبقي الطريقان العربيان عاملين طيلة مدة النزاع ، وسالكين حتى الربع الاول من القرن السابع عشر .

د . خصائص الصراع العربي العثماني البرتغالي على تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والمتوسط :

اذن امتدّ الصراع بين العرب والعثمانيين والبرتغاليين على تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط على زمن طويل جدا . وتميّز بثلاثة احداث كبرى :

أولها : فشل البرتغاليين في تحويل تجارة المرور عن مسارها التقليدي الى الطريق الاطلسية وبالتالي فشلهم في ضرب المصالح الاقتصادية العربية في الخليج العربي وفي البحر الاحمر .

ثانيها : فشل العثمانيين في حماية المصالح الاقتصادية المشتركة بينهم وبين العرب .

ثالثها : نجاح عرب الخليج في ابقاء العرب وسطاء حتميين في تجارة المرور بين بحر الهند والبحر المتوسط .

هـ . اقسام البحث

ويتجلّى هذا الواقع التاريخي بوضوح في استعراضنا :

١ ـ القوى العالمية والمحلية الفاعلة في تجارة المرور في الخليج العربي .

٢ ـ والتوسع العثماني في الخليج العربي واثره في تجاره المرور في الخليج العربي .

٣ ـ واستمرار وصول السلع الى الخليج العربي وشحنها الى البحر المتوسط او الى بحر الهند ودام هذا الواقع التاريخي طيلة القرن السادس عشر وفي الربع الاول من القرن السابع عشر .

ويقتصر تحليلنا على هذه الحقبة التي نسميها حقبة الفتوحات البرتغالية ، او الحقبة البرتغالية باختصار ، التي اعقبتها حقبة اخطر منها بكثير ، هي الحقبة الهولندية الانجليزية الفرنسية الخارجة عن موضوعنا .

القسم الأول

القوى المحلية والعالمية الفاعلة في تجارة المرور في الخليج العربي

لا يمكن عزل النشاط التجاري في الخليج العربي عن التأثير الدولي القريب منه - أو حتى البعيد عنه احيانا، ولا عن ارادة اهل الخليج انفسهم. فلهؤلاء مصالح اقتصادية مباشرة وأساسية بالتبادل القائم على ارضهم او المار عبر مياههم باتجاه البصرة او باتجاه عدن فالبحر الاحمر. وللصفويين في فارس والعراق، وللمماليك في سوريا ومصر، او من يحلّ محلّهم في المستقبل، مصالح مماثلة بحكم سيطرتهم على منافذ طريق الخليج على البحر المتوسط. وللبرتغاليين ايضا نفس المصالح بعد سيطرتهم على بعض موارد التجارة الدولية وعلى بعض مسالكها في بعض انحاء سواحل الهند وفي بعض انحاء بحر العرب، وبعد نجاحهم الجزئي والمؤقت بدخول الخليج العربي والبحر الاحمر.

ولم يعقد بين الفرقاء المعنيين اي اتفاق ينظم مصالحهم، ويدرأ مضاعفات تناقضها فظلّت متضاربة، تثير الحروب بينهم، وتعقّد الصلات بين عرب الخليج والدولة العثمانية.

وهؤلاء الفرقاء هم مملكة هرموز في الخليج، والصفويون في فارس والعراق والمماليك والعثمانيون على سواحل البحر المتوسط، والبرتغاليون في الهند وبحر العرب والخليج العربي.

مملكة هرموز العربية

فمملكة هرموز سلطنة عربية، كانت تشمل في القرن السادس عشر جزر الخليج العربي وسواحله من الاحساء وسيراف الى رأس مسندم، وساحل عمان من رأس مسندم الى رأس الحدّ ويمكن بلا مغالاة اعتبارها بندقية العرب.

وتأسست مدينة هرموز في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على ساحل مكران، شرقي بندر عباس، على بعد ٣٠ ميلا منه. لكن حوالي ١٣٠٠ م، هددتها غارات التتار فانتقلت الى جزيرة جرون (اورغانا عهد نيارخس) على مسافة ١٢ ميلا تقريبا الى الجهة الغربية وعلى

بعد خمسة اميال من الشاطيء . ثم خضعت اسميا ونظريا لشاهرخ ميرزا (١٤٠٥ ـ ١٤٤٧) ، ودفعت له اتاوة . الا انها كانت عمليا مستقلة وقوية ماليا وعسكريا . ويمتد نفوذها على مائة ميل حولها . وكانت مركزا تجاريا كبيرا ، تسيطر على النشاط التجاري الدولي البحري مع الشرق الاقصى والهند ، والبري مع خراسان وفارس والعراق . وقد ازدهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ازدهارا لا مثيل له . فكانت ترسو في بندرها ٣٠٠ سفينة في آن واحد ، ويقطن فيها ٤٠٠ تاجر غريب ، يتاجرون بالحرير واللآليء ، والحلي والتوابل على وجه الخصوص . وتتعامل هرموز مع جزيرة العرب وكمباية وكاليكوت وشيول ودابول وبنجالة ، وفارس وعدن والقاهرة والاسكندرية والصين والعراق .

ويجلب اليها من الشرق التوابل والعقاقير والحجارة الكريمة وسلع اخرى ، لا سيما الفلفل والزنجبيل والقرفة والقرنفل وجوز الطيب والفلفل الطويل والعود والصندل والبلسم والتمر الهندي والزعفران الهندي وشمع العسل والحديد والسكر والارز وجوز الهند واليواقيت والخزف والميعة . وتحمل منها السلع الواردة اليها من جزيرة العرب ومصر وبلاد الشام واوربا .

ويدير شئونها مجلس مؤلف من التجار الاثرياء برئاسة سلطانها . وكانت تابعة لها مسقط وقلهات وصحار وخورفكان وجلفار والقسم والبحرين والقطيف وغيرها .

وقد وصفها بدقة ووصف نشاطها الفريد ماهوان في كتابه «الكامل في وصف سواحل المحيط» المنشور سنة ١٤٥١ بعد تداوله مخطوطا منذ عام ١٤٣٤ . كذلك فعل دوارته بربوسة سنة ١٥١٧ . واعطى احمد بن ماجد صورة حسية عن اهميتها ايضا .

اذن كانت هرموز بندر مرور وسوق بيع وشراء سلع بلدان بحر الهند وبلدان البحر المتوسط على حدّ سواء . بالتالي ، كل ما يعرقل وصول البضائع اليها من الشرق او الغرب ، يؤثر في التجارة العالمية ، ويلحق الضرر بمصالحها الاقتصادية الحيوية . ومن هنا يتضح خطر وجود البرتغاليين في الجنوب على نشاطها ، وخطر وجود الصفويين والعثمانيين في الشمال والشمال الغربي البعيد عليه .

الصفويون في فارس والعراق

توالت الاحداث العالمية بسرعة في فارس والعراق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . واجتاحتهما قبائل مغولية وتركمانية لم تستطع اي منها ان ترسّخ اقدامها فيهما مدة طويلة .

من هذه القبائل الجلائر . وهم سلالة مغولية زعيمها حسن بزرك او

الشيخ حسن الجلائرى ، حكمت العراق من سنة ١٣٣٩ الى ١٤١١ ، واتخذت بغداد عاصمة لها . وانتزع ثاني سلاطينها المدعو اويس بن حسن بزرك ، تبريز واذربيجان من القبائل الذهبية ، وضم الموصل وديار بكر الى دولته .

ومنها ايضا القبائل التركمانية ، المعروفة باسم قرة قويونلو او الخروف الاسود ، التي زحفت على الجلائر من منطقة بحيرة وان ، واخذت منهم الموصل (١٣٧٥) ثم تبريز (١٣٨٧) .

وأتى دور تيمور لنك ، فاقتحم اراضى الخروف الاسود ، واستولى عليها بعد انتصاره على زعيمهم قرة يوسف وهربه الى مصر (١٤٠٣) . ولما توفي تيمور لنك ، خلفه نجله شاهرخ ميرزا (١٤٠٥ ـ ١٤٤٧) . وفي عهده رجع قرة يوسف من مصر ، وسحق جيش التيموريين سنة ١٤٠٨ ، واستعاد سلطنته ، واحتل العراق العربي (١٤١٠) . وبعد وفاته ، حارب نجله اسكندر شاهرخ واضطره ان يتنازل عن اذربيجان والجزيرة الى شقيقه جهان شاه الذي انتزع فارس الغربية الواقعة على الخليج العربي من التيموريين (١٤٥٢ ـ ١٤٥٨) .

الا ان اوزون حسن ، امير اق قويونلو او الخروف الابيض ، انقض على ممتلكات الخروف الاسود ، واخذ منهم اذربيجان والجزيرة وفارس الغربية سنة ١٤٦٨ . ثم انتشرت الفوضى في العراق وفارس في اواخر القرن الخامس عشر .

وكان الصفويون آنذاك يعيشون في مقاطعة اردبيل التي اقطعهم اياها تيمور لنك . وهم صوفية واصحاب طريقة ينتمون الى الامام موسى الكاظم ، رسخوا نفوذهم في اذربيجان، واستعان زعيمهم اسماعيل بقبائل تركية ، وهاجم الخروف الابيض وقهرهم واستولى على اذربيجان وفارس والعراق ، ولقب نفسه بالشاه ، واسس السلالة الصفوية التي اشتهر من سلاطينها ايضا في وقت لاحق طهماسب الاول (١٥٢٤ ـ ١٥٧٦) وعباس الاول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) .

وحكم اسماعيل شاه ٢٣ سنة (١٥٠٢ ـ ١٥٢٤) ، وامتدت امبراطوريته من العراق غربا الى خراسان وامبراطورية المغل شرقا ، ومن باكو وتفليس شمالا الى الخليج العربي جنوبا . وازدهرت تجارتها في عهده . لكنه اضطر الى مجابهة الشيبانيين في ما وراء النهر (مقتل محمد الشيباني ، خان الازبك سنة ١٥١٠) والعثمانيين في الغرب والشمال الغربي والبرتغاليين في الجنوب الشرقي . وحكم بعده نجله طهماسب ٥٢ سنة ، ثم عباس الاول

٤٢ سنة ، بعد فترة اضطرابات داخلية واجتياحات خارجية .

المماليك في سوريا ومصر والحجاز

امتدت دولة المماليك على سوريا ومصر والحجاز في مطلع القرن السادس عشر وقبله . وأصل المماليك ارقّاء ، اخذوا اسرى في الحروب او شروا صغارا ودربوا على الفروسية . وهم من القفقاس او من آسيا الصغرى اجمالا . وقد عملوا حرّاسا لايوبي مصر ، ثم تقووا واستولوا على السلطة سنة ١٢٥٠ م . واختاروا شجرة الدر لتتولى امرهم . وكان عددهم يتراوح بين ١٠٠٠٠ و١٦٠٠٠ فارس . ويقفون دوما صفا واحدا ضد اعدائهم او حتى ضد الشعب مهما عظمت الخلافات بينهم . ولا يتزوجون من غريبة، ولا يتكلمون الا اللغة الشركسية ، ولا تربطهم باهل البلاد الا رغبة استغلالهم . وفي عام ١٥٠١ ، كان على رأسهم السلطان قانصوه الغورى الذي حكم حتى عام ١٥١٦ ، وخلفه طومان باى الثاني آخر سلطان مملوكي وآخر المماليك البرجية الشراكسة .

العثمانيون في آسيا الصغرى واوربا

ينتمي العثمانيون الى قبيلة غزّ (اوغوز) رحلت من خراسان الى الاناضول ، بزعامة ارطغرل بن سليمان شاه. واقطعهم علاء الدين كيقباد السلجوقي اراضي قره جاه طاغ قرب انقرة ، فدعموه في حروبه ضد المغول وبيزنطية ، واجزل لهم العطاء . ولما توفي ارطغرل ، بقي نجله عثمان وفيا لآل سلجوق ، فمنحوه الاستقلال ، واذنوا له ان يمتلك فتوحاته (٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م) ، وان يسك العملة باسمه ، وفي عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩ م توفي علاء الدين الثاني آخر سلطان سلجوقي ، فاعلن عثمان قيام الدولة العثمانية . وتوالى توسّع العثمانيين في القرن الرابع عشر في تراقية ومقدونية والاناضول ، الى ان جاء تيمور لنك ، وضربهم ضربة قاصمة سنة ١٤٠٢ م .

الا ان العثمانيين نهضوا من كبوتهم في القرن الخامس عشر ، واعادوا بناء دولتهم ، واحتلوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، واستأنفوا توسعهم في البلقان ، في عهد محمد الثاني الفاتح . وبلغوا قمة المجد في القرن السادس عشر في ايام سليم الاول وسليمان القانوني .

البرتغاليون في بحر الهند

تحركت البرتغال في اتجاه بحر الهند في وقت مبكر جدا . وبدأت مسيرتها الطويلة التي دامت ٨٣ عاما على طريق الهند الأطلسية باحتلال

مدينة سبتة سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م في عهد ملكها جان الاول الكبير. واندفعت في مجاهل بحر الظلمات ببطء وحذر وثبات، ووصلت الى طرفه الجنوبي اي الى حدوده الجنوبية مع بحر الهند بعد دورانها حول رأس العواصف. فبرزت امامها صعاب جديدة في بحر جديد لا تعرف شيئا عنه. مع ذلك، نزلت في كاليكوت في ملبار الهند عام ٩٠٤ هـ/ ١٤٩٨ م.

وكانت دوافع مسيرتها الطويلة اقتصادية محضة، تمثلت في تنافس البيوتات المالية الايطالية والممالك الايبيرية على احتكار التجارة العالمية التي كانت شرقية اصلا تعتمد على استيراد التوابل والحرير والبخور والعطور والسلع الاخرى من الشرق الاقصى والهند، وجزيرة العرب وساحل افريقية الشرقية، وعلى تصدير سلع اوروبا ومصر والشام وجزيرة العرب الى الهند.

وشكّت البندقية في قدرة البرتغال المالية والفنية والتقنية على الوصول الى بحر الهند، واذا وصلت اليه، في قدرتها على البقاء فيه لتكاليفه الباهظة ومقاومة العرب وحلفائهم مسلمي الهند المهيمنين على التجارة بين الشرق والغرب.

ورغم هذا التشكيك، بلغ البرتغاليون الهند، واقاموا متاجر لهم وحصونا على ساحل افريقية الشرقية، وعلى السواحل الغربية والجنوبية في شبه جزيرة الدكن وجوزرات او كمباية، وتوسّعوا باتجاه اندونيسيا، وهاجموا الموانىء العربية الجنوبية ودخلوا البحر الاحمر والخليج العربي. واصبحوا خطرا داهما يهدد المصالح الاقتصادية العربية في الصميم والهندية ايضا.

وانتشرت اخبارهم في العالم اجمع، ونادت ممالك ساحل الهند الغربي المسلمة بالويل والثبور وعظائم الامور، واستنجدت بالمماليك اولا (قانصوه الغورى)، ثم بالعثمانيين بعدهم (سليمان القانوني). ولم يستغيثوا بالصفويين. ولم يطلب عرب الخليج ولا هرموز العون من احد، بل تدبروا امورهم انفسهم بانفسهم.

اما المماليك والعثمانيون، فقد استجابوا لنداء القاصي والداني، لأن مصالحهم الاقتصادية اصبحت في خطر هي ايضا، ولأنهم رغبوا في توسيع نفوذهم وترسيخه في البحر الاحمر والخليج العربي.

****

وهكذا يمكن ان نلخص اوضاع التجارة بين بحر الهند والبحر المتوسط واوضاع الدول الرئيسية المشرفة

عليها في مطلع القرن السادس عشر، بما يلي :

١ ـ حافظت مملكة هرموز على كيانها، وفدته بالمال : فدفعت اتاوة سنوية الى التيموريين (شاهرخ) لقاء حرية تصرفها، ثم الى الصفويين (شاه اسماعيل) بعدهم .

٢ ـ اكتفى شاه اسماعيل بقبض المال من مملكة هرموز وتركها وشأنها تتصرف بتجارتها وسيطرتها على مناطق نفوذها، وتفرغ للدفاع عن سلطنته ضد الشيبانيين في الشمال الشرقي وضد العثمانيين في الشمال الغربي .

٣ ـ كان المماليك ضعفاء ماليا وعسكريا، يتهيّبون غزو العثمانيين لسلطنتهم المتداعية، ويعجزون عن حماية مصالحهم الاقتصادية من تعدّيات البرتغاليين المتواصلة .

٤ ـ لم تكن للعثمانيين علاقة مباشرة بالتجارة بين بحر الهند والبحر المتوسط، وكان شغلهم الشاغل انتهاز الفرص للتوسع في الشرق والغرب والجنوب .

٥ ـ كان البرتغاليون يصولون ويجولون في بحر الهند والخليج العربي والبحر الاحمر مستفيدين من تفوقهم بامتلاك سفن متطورة واسلحة فتّاكة (بنادق ومدافع)، لم تصل بعد الى ايدي العرب المستضعفين او وصلتهم متأخرة وباعداد محدودة ونوعية رديئة .

القسم الثاني

التوسّع العثماني في الخليج العربي وأثره في تجارة المرور فيه

تغيّرت المعادلة الدولية كليا في الربع الاول من القرن السادس عشر، فالعثمانيون قضوا على دولة المماليك في سوريا ومصر وحلّوا محلّها، وابعدوا الصفويين عن العراق وبالتالي عن احد منافذ تجارة طريق الخليج، وحاولوا التغلغل في البحر الاحمر وفي الخليج العربي ذاته، فنشبت بينهم وبين البرتغاليين حروب عديدة في مواقع متباعدة وبعيدة فشلوا فيها كلها .

وتتجلى هذه الاوضاع الجديدة في النواحي التالية :

١ ـ قضاء العثمانيين على دولة المماليك وحلولهم محلها في السيطرة على منافذ تجارة بحر الهند على سواحل البحر المتوسط وفي موانىء البحر الاحمر لا سيما جدة والسويس .

٢ ـ ابعادهم الصفويين عن العراق ووصولهم الى البصرة والاحساء على الخليج العربي .

٣ ـ قيامهم بحملات بحرية بعيدة على متاجر البرتغاليين في الديو وفي الخليج العربي .

أولا ـ قضاء العثمانيين على دولة المماليك وحلولهم محلها

أ ـ العلاقات العثمانية المملوكية في النصف الاخير من القرن الخامس عشر :

كانت الازمات تتلاحق في دولة المماليك ، عندما كان العثمانيون يتوسعون بفتوحاتهم ويزدادون قوة . وطبّقت شهرتهم الآفاق بعد فتحهم القسطنطينية سنة ١٥٤٣ . واصبحت امبراطوريتهم في عهد السلطان سليم الاول احدى الدول الكبرى المسلمة الثلاث في العالم (العثمانيون ، الصفويون ، المماليك) ، بل اولاها ، واحدى الدول العظمى على مستوى اوربا ذاتها .

وكثيرا ما كانت تتوتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك وتنتهي بنشوب حرب بينهما ، ويظهر المماليك عليهم في نزاعاتهم المسلحة .

مع ذلك عندما خذل البنادقة المماليك حلفاءهم التقليديين في مطلع القرن السادس عشر ، نصرهم العثمانيون ووقفوا الى جانبهم من بعيد ضد البرتغاليين .

١ ـ الصراع البرتغالي ـ العربي المملوكي

ففي عام ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م ، نشب قتال في كاليكوت بين التجار المسلمين وبين البرتغاليين احرق فيه الافرنج عشر سفن مصرية ، فزاد العداء بين العرب والفرنج .

(١) تصاريح المرور البرتغالية : ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م

وفي العام التالي ، ٩٠٧ هـ ، قرر البرتغاليون منع العرب من الحصول على التوابل ، فاقاموا متاجر لهم في النقاط الرئيسية على ساحل شبه جزيرة الدكن الغربي ، واتخذوا اجراءات تقضي ان يحمل تصريح مرور كل تاجر يغادر احد البنادر الهندية والا وقع تحت طائلة عقوبة الاعدام او الاستعباد . ولا تعطي تلك التصاريح الى القاصدين البحر الاحمر تجارا كانوا ام سفنا . مع ذلك ، بقيت

السفن تنقل التوابل «تهريبا» الى البنادر العربية .

(٢) اعتراض البرتغاليين السفن الذاهبة الى البحر الاحمر : ٩٠٨ هـ/١٥٠٢ م.

وفي عام ٩٠٨ هـ/١٥٠٢ م، اخذ البرتغاليون يعترضون السفن الذاهبة الى البحر الاحمر ، واحتلوا البندر العربي في جزيرة كلوة على ساحل افريقية الشرقية ، وتحالفوا مع ملكي كننور وكشن ضد ملك كاليكوت . وفي عام ٩٠٩ هـ/١٥٠٣ م . ارسلوا اسطولا لمنع سفن المسلمين من دخول البحر الاحمر .

(٣) تهديد بندر جدة : ٩١١ هـ/١٥٠٥ م

وفي عام ٩١١ هـ/١٥٠٥ م ، توغل البرتغاليون في البحر الاحمر ، ووصلوا الى مستوى جدة . وشعر قانصوه الغوري بخطرهم على الاماكن المقدسة المسلمة ، وقرر محاربتهم .

(٤) احتلال جزيرة سقطرة : ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م

وفي عام ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م ، احتل البرتغاليون جزيرة سقطرة ، وبنو حصنا فيها ، وابقوا اسطولا في مياهها ، مهمته مراقبة السفن ومنعها من دخول باب المندب .

رغم جميع هذه الاجراءات ، ظلت التوابل تصل الى الشام والاسكندرية ، غالبا عن طريق الخليج العربي . فقرر البوكيرك سدّ هذا الطريق ايضا .

(٥) احتلال مملكة هرموز : ٩١٣ هـ/١٥٠٧ م

لذلك هاجم مملكة هرموز بلا مبرر ودون سابق انذار او اعلان حرب خلافا لجميع الاعراف الدولية . وبدأ باحتلال بنادرها الواقعة على ساحل خليج عمان لا سيما مسقط وصحار وخورفكان . ثم استولى على هرموز ، واغلق عمليا مدخل الخليج العربي في وجه السفن الذاهبة الى البصرة . فاصبحت الآمال معقودة على قانصوة الغوري وعلى حملته البحرية التي طال انتظارها .

٢. امتناع البنادقة عن مدّ يد العون الى المماليك

كانت البندقية الدولة المستفيدة الكبرى من المماليك والموزعة الرئيسية لسلع الهند والشرق الواصلة الى الاسكندرية . وكان مفروضا فيها ان تقف الى جانب حلفائها المماليك ضد البرتغاليين لأنها تضررت من تصرفات البرتغاليين مثلما تضررت مصر وسوريا . لكنها لم تفعل بل تخلت عنهم ، واتصلت بالصفويين عساها توفق بفتح طريق برية من فارس الى الامبراطورية العثمانية ، فساحل

البحر المتوسط .

٣ . حملة قانصوه الغوري البحرية على البرتغاليين : ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م

ادرك قانصوه بوضوح تام ان لا بد له من سحق البرتغاليين لتثبيت سلطته . فعزم على ملاحقتهم في بحر الهند ، ومنازلتهم هناك .

لكن اعترضت صعاب لا تحصى تجهيز حملته البحرية عليهم . فمالية دولته سيئة جدا تعجز عن دفع رواتب الجند ، والمماليك فرسان برّ لا أسود بحر . وكان لا بد من اعداد حوض جديد لبناء السفن في السويس لأن سفن البحر المتوسط لا تصلح لبحر الهند . وينبغي ايجاد خبراء صنع السفن والخشب وحديد المدافع والاشرعة وكل ما يلزم . وتخطى الغورى جميع هذه العقبات ، وبوشر ببناء ١٩ سفينة سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٦ م ، وظهر الاسطول المملوكي في بحر العرب سنة ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م . وانتصر في البدء ، ثم قضى عليه سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩ م .

ولم يثن هذا الفشل قانصوه الغوري عن عزمه . فاستنجد بالسلطان بايزيد الثاني ، لكن انطلق فرسان القديس يوحنا من قاعدتهم في جزيرة رودس ، واعترضوا السفن المملوكية ، واستولوا على شحنتها .

ولا تعني هذه اليد البيضاء العثمانية أن الصفاء والوّد سادا العلاقات العثمانية المملوكية . فالخلافات بينهما كانت عميقة ، والقضية قضية مصير ، واسباب الحرب كثيرة .

ب . اسباب الحرب بين العثمانيين والمماليك

اسهمت اربعة اسباب رئيسية في اشعال الحرب بين العثمانيين والمماليك :

١ - اولها انتزاع الاشرف قايتباى من رسول السلطان الهندي محمد البهمني معظم الهدايا المرسلة الى السلطان العثماني ، مما ادى الى نشوب حرب عثمانية مملوكية في عهد بايزيد الثاني ، توّسط ، حاكم تونس ، المولى عثمان الحفصي ، في انهائها ، وانهاها دون أن ينهي ما في القلوب .

٢ - ثانيها الخلاف المزمن على بلاد ذي القدرية ، الواقعة شمالي سوريا ، والفاصلة بين المماليك والعثمانيين . فقد ضاق السلطان سليم ذرعا بفتنها ودسائسها ، فاحتلها سنة ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م ، وقتل امراءها لا سيما الامير علاء الدولة .

٣ ـ ثالثها تحالف المماليك والصفويين ، واتفاق الشاه اسماعيل وقانصوه الغورى على التآمر ضد آل عثمان .

٤ ـ رابعها ايواء قانصوه الغورى الامير علاء الدين ابن شقيق سليم الاول ورفضه تسليمه الى عمّه العثماني .

جـ . المفاوضات والاحداث

١ ـ جهّز السلطان سليم الاول جيشا عظيما (١٥٠ الفا) سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦ م ، واتجه به الى الشرق وكأنه يريد استئناف الاعمال الحربية ضد الشاه اسماعيل . واخبر الشاه اسماعيل حليفه قانصوه الغورى ان الاعمال الحربية متواصلة بينه وبين العثمانيين ، وحرّضه عليهم . فاعدّ الغورى جيشا كبيرا ، وسار على رأسه الى حلب في ١٧ أيار سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦ م ، ونزل بها في ١٠ تموز سنة ١٥١٦ م .

٢ ـ ارسل سليم الاول الى قانصوه الغورى سفارة مؤلفة من مولانا ركن الدين وقراجا باشا ، عرضت عليه ، لتفادي الحرب ، التنازل له عن بلاد ذي القدرية ، فاشترط السلطان المملوكي عليها ارجاع القدرية الى نجل علاء الدولة وامتناع العثمانيين عن محاربة الصفويين ، فرفضت ، فسجنها . ثم بعث في وقت لاحق بمندوب عسكري عنه وكلّفه بتبليغ سليم الاول شروطه ، فاستقبل السلطان العثماني السفير المملوكي في البستان ، وقتل معاونيه ، وحلق ذقنه وشاربيه ، واركبه حمارا أعرج ، وردّه الى المماليك . فاصبحت الحرب حتمية بينهما .

٣ ـ وخرج قانصوه الغورى من حلب بقواته (٦٠٠٠٠ محارب ، منهم ١٦٠٠٠ فارس مملوكي والباقي جند مصريون وسوريون) الى مرج دابق ، يصحبه خير بك نائب حلب وسباهي نائب الشام . واتجه سليم الاول بجيشه الى حلب ايضا ، ومعه سنان باشا اعظم قواده والوزير يونس باشا .

٤ ـ وصدّت القوات المملوكية طليعة الجيش العثماني في البدء . الا انه كرّ عليهم ، واطلق عليهم نيران بنادقه بغزارة وقنابل مدافعه فارتعبت خيولهم وجفلت وعمّت الفوضى صفوفهم . وسارع خير بك نائب حلب الى خيمة قانصوه الغوري ، ونقل له ان العثمانيين دحروهم ، ثم انسحب الى حلب . وانتشر خبر

الهـزيمة بسرعـة فائقـة بين الجنود ، فولّوا الادبار ، وقتل السلطان المملوكي دهسا بين الهاربين ، ولم يعثر على جثته .

٥ ـ وآل النصر العثماني في مرج دابق (٢٦ رجب سنة ٩٢٢ هـ/ ٢٤ آب سنة ١٥١٦ م) الى خضوع باقي المدن سلميا ، والى الحاق سوريا ولبنان بالامبراطورية العثمانية اداريا وماليا وسياسيا . ونظم سليم الاول الملكية العقاريـة وجعلها اميرية وخاصة ، وحمى التجّـار ، وخفض الـرسـوم الجمركية من ٢٠٪ الى ٥٪ لتشجيع التجارة .

٦ ـ وامضى سليم الاول اربعة اشهر في بلاد الشام ، ثم استأنف مسيرته الظافرة ليفتح مصر . وفعل وهزم طـومان بـاى في الريدانية (٢٩ ذي الحجة سنة ٢٢ هـ/١٥١٦ م) ، ودخـل القاهرة واقام في جزيرة الروضة (٩٢٣ هـ/١٥١٧ م) . ولما القي القبض على طومان باى ، طيف به في شوارع القاهرة وشنق عند باب زويلة . وانتهت بشنقه دولة المماليك .

د. نتائج فتح العثمانيين سوريا ومصر

ترتب على فتح العثمانيين سوريا ومصر نتائج عالمية ، يهمنا منها ما يتعلق بالتجارة بين بحر الهند والبحر الاحمر :

١ ـ فقد اصبحت الدولة العثمانية تسيطر على طريق البحر الاحمر الـعـربيـة ، وعـلى منفـذي الاسكندرية وبلاد الشام . بـالتـالي ، تقتضي مصلحتهـا الاقتصادية العليا مرور السلع بأمان وبلا تعويق من مصادرها في الشرق الى اسواق استهلاكها في الشرق الادنى واوربا .

٢ ـ وصارت مصلحتها الاقتصادية العليا متوافقـة مع المصـالح العربية الاقتصادية ومتضاربة مـع المصـالـح الاقتصـاديـة البرتغالية . وهذا الوضع ينبغي ان يؤدي منطقيا الى التقارب بين العرب والدولة العثمانية والى محاربة الدولة البرتغالية في بحر الهند والبحر الاحمر والخليج العربي . وقد حصل .

ثانيا . ابعاد العثمانيين الصفويين عن العراق ووصولهم الى البصـرة والاحساء

قضى العثمانيون بتصفيتهم المماليك على اثنين من اعدائهم دفعـة واحدة ، امبـراطوريـة

المماليك وبلاد ذي القدرية . لكن نشأت عداوة جديدة لهم مع البرتغال عن فتوحاتهم في سوريا ومصر ، الى جانب عداوة الصفويين التقليدية ، وانهماكهم في حروب البلقان وجزر المتوسط وشاء القدر ان يتولى شئونهم في تلك الظروف التوسعية في جميع الجهات سلطانان عظيمان جدا ، اخذا على عاتقهما التوسع في الشرق على حساب الدولة الصفوية واقتطاع ما يقرب من نصف اراضيها وضمه الى امبراطوريتهما الشاسعة ، نقصد سليم الاول وسليمان القانوني . وتميّزت العلاقات بين الصفويين والعثمانيين بالتوتر الشديد على الدوام . وكانت اسباب نشوب الحروب بينهما كاملة تنذر بالانفجار في اي لحظة .

أ. اسباب الحروب بين العثمانيين والصفويين

اهمها اربعة :

١ ـ ارسال الشاه اسماعيل دعاة الى الامبراطورية العثمانية ومحاولاته اثارة الفتن على الحدود .

٢ ـ وايواؤه الامير مراد بن احمد شقيق سليم الاول ورفضه تسليمه الى العثمانيين .

٣ ـ اخيرا رغبة العثمانيين انفسهم بالتوسع باتجاه الشرق .

لذلك كله حدثت نزاعات مسلحة بينهما في ايام السلطان سليم الاول وفي ايام السلطان سليمان القانوني .

ب. الحروب العثمانية الصفوية في عهد سليم الاول والشاه اسماعيل

١ ـ في سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م ، عقد السلطان سليم اجتماعا في ادرنة ضمّ وزراءه وقوّاده، تم فيه التداول في اعلان الحرب على الصفويين ، فاقره المجتمعون ، وابلغ الى الشاه اسماعيل .

٢ ـ تلاقي الجيشان في جالديران في ناحية تبريز ، وتفوق خيّاله الصفويين في البدء على الجناح العثماني الايسر . لكن ضربهم العثمانيون بمدافعهم عندما انتقلوا الى الهجوم على الجناح العثماني الايمن ، ففرّقروا شملهم وتغلبوا عليهم ، وجرح الشاه اسماعيل ، وهرب جيشه وهربه . ولحق بهم العثمانيون ، واحتلوا مدينة تبريز .

٣ ـ ثم قرر سليم الاول اخضاع بلاد كردستان ، فوقف في وجه الجيش العثماني اميرها قره خان الذي نصبه الشاه اسماعيل ، ووقعت بينهما معركة حاسمة دارت رحاها قرب بلدة فوجحصار ،

انتصر فيها العثمانيون على جيش الشاه اسماعيل مرة ثانية ، وقتلوا قره خان ، فاعلن جميع الامراء الاكراد الطاعة لهم . عندئذ عاد السلطان سليم الاول الى الأستانه (٩٢١هـ/ ١٥١٥) تاركا بعض قواده في كردستان على ان يعود الى تصفية الصفويين في وقت لاحق .

٤ ـ الا انه انشغل بفتح بلاد الشام ومصر ، ثم رجع الى الاستانة ، وتوفي سنة ٩٢٦ هـ/ ١٥١٩ م وهو في طريقه الى ادرنة ، وخلفه نجله سليمان القانوني (٩٢٦ هـ/ ١٥١٩ ـ م - ٩٧٤ هـ/١٥٦٦ م).

جـ.الحروب العثمانية الصفوية في عهد سليمان القانوني وطهماسب الاول خليفة الشاه اسماعيل:

لم تتوقف الحروب بين الصفويين والعثمانيين بوفاة الشاه اسماعيل وسليم الاول ، بل تجددت لتجدد اسبابها .

فقد تحالف طهماسب الاول مع البرتغاليين ضد العثمانيين ، لأنه كان بحاجة لبنادقهم ومدافعهم ، ولأنهم كانوا بحاجة الى استبعاد العثمانيين عن النشاط الحربي في بحر الهند والبحر الاحمر والخليج العربي .

واستقبل سفارات شارل الخامس ملك اسبانية وامبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة وعدو العثمانيين في اثناء حصارهم مدينة فيينة سنة ٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩ م) ، ووعدوه بدعمه في حربه مع سليمان القانوني .

وتكررت غارات اكراد فارس الصفوية على الممتلكات العثمانية في دياربكر وولاية حلب . فاعلن سليمان القانوني الحرب على طهماسب .

١.احتلال سليمان القانوني بغداد وقبوله مفاتيح البصرة: ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م:

وسار على رأس جيش عثماني قاصدا الامبراطورية الصفوية وعاصمتها الجديدة . وفي اواخر خريف سنة ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م ، بينما كان يفتش عن موضع ينزل فيه وهو وجيشه لتمضية فصل الشتاء ، اذ جاءه موفد من محمد خان ، حاكم بغداد الصفوي ، يحمل رسالة بقي مضمونها سريا ، لكن ظهرت آثارها عندما اتجه العثمانيون الى بغداد . فقد غادرها محمد خان قبلهم . واستقبلت الجيش العثماني بالزينة والترحاب ، فدخلها بلا قتال . واعلنت المدن العراقية خضوعها الواحدة تلو الاخرى ، لا سيما البصرة التي قدّم اميرها راشد بن مغامس مفاتيحها للسلطان العثماني .

وامضى سليمان القانوني اربعة

اشهر في بغداد ، بنى في غضونها قلعة فيها ، وجعلها ولاية عثمانية ، ونظم الحكم المحلي فيها ، وعين سليمان باشا الالباني واليا عليها ، وترك له حامية تضم الفا من المشاة المسلحين بالبنادق والفا من الفرسان . وفرز ٣٢,٠٠٠ جندي لحماية الولاية ، ثم غادر بغداد في ٢ نيسان سنة ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ ، وذهب شمالا .

٢. ثورة البصرة الاولى سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦ واخمادها:

حكم يحيي رئيس احدى العشائر العربية البصرة بعد وفاة راشد بن مغامس ، وارسل السلطان سليمان القانوني في ايامه خرّم بك ليبني قلعة تراقب حصونا كانت قد اعطيت لبعض العرب مكافأة لا نضمامهم الى جانب العثمانيين . فاستاءوا ، واستنجدوا بيحيي حاكم البصرة ، فنجدهم بمائة سفينة . الا ان اويس باشا ، والي بغداد العثماني ، ارسل الفي جندي الى خرّم بك على وجه السرعة ، فهزم خرّم المتمردين .

لكن رفض يحيى ، حاكم البصرة ، الخضوع . فسّيرت بغداد جيشا ضده . ولحق بالجيش الاول جيش ثان بقيادة والي بغداد نفسه . وهوجمت البصرة من الجنوب والشمال ، وانتصر العثمانيون على العصاة الذين هربوا الى الاحساء .

ودخلوا البصرة في ١٥ كانون الاول سنة ١٥٤٦ م ، وعيّنوا بلال محمد بك حاكما جديدا لها . واسسوا فيها دار صناعة لها حوض احتفظ فيه بـ ١٥ سفينة لاستعمالها ضد البرتغاليين .

د. الاضطرابات في البصرة وبغداد في عهد السلطان العثماني سليم الثاني (٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦ـ ٩٨٢ هـ ١٥٧٤ م):

١ ـ ثورة البصرة الثانية سنة ٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦ م واخمادها

وفي عام ٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦ م ، في اوائل سلطنة سليم الثاني ، اوقف حاكم البصرة شيخا من بني عليان ، وحاول ان يقتصّ منه بسبب بعض الجرائم التي ارتكبها بعض افراد عشيرته . فهرب الشيخ ، وترقب الحاكم حتى توجه الى الاحساء ، فهاجمه وضربه . واستعدّ ٢٠,٠٠٠ بدوي لحصار البصرة من البر والماء . ونزلوا على اطواف نخيل في نهر دجلة ، وعجزت مدافع العثمانيين عن ايقافهم . ثم ترك العرب الاطواف ، واضرموا النار فيها ، ووجّهوها الى الحصون التركية ، وسبحوا هم الى الشاطىء يترقبون الحصون ويطلقون النار على كل جندي يبين . فاختنقت حامية احد الحصون بالدخان . كذلك اوقع العرب فرسان الترك في الشرك ، وامعنوا تقتيلا بهم . مع ذلك ، لما جاءت التعزيزات من بغداد ، انسحب

البدو سنة ٩٧٥ هـ/١٥٦٧ م ، وقبل ابن عليان ان يدفع ضريبة الى خزينة البصرة مقدارها ١٥,٠٠٠ ليرة ذهبية .

٢ - ثورة بغداد سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٨م وإخمادها :

وفى بداية عام ٩٧٦هـ/١٥٦٨م جمع الأمير الصفوى القاص ميرزا شقيق طهماسب ، ١٢٠٠٠ محارب من جيورجية والقفقاس والمنفيين ، وأخفاهم فى بعض الأودية القريبة من بغداد ودخل هو متسترا بثياب تاجر . وتسلل ١٥٠٠ من رجاله الى داخل المدينة . وكانت خطتهم تقضى بقتل الوالى وموظفيه وكل من يعترضهم . لكن وشى بهم أحد الخارجين على القانون ، وأبيد المتآمرون ، وهرب ميرزا مع ٣٠٠٠ من فرسانه .

هـ. نتائج إحتلال العثمانيين العراق :

وترتب على إنتصار العثمانيين نتائج كثيرة ، يهمنا بعضها فقط .

١ - فقد أتم العثمانيون بامتلاكهم العراق ، سيطرتهم على دروب القوافل فى العراق والشام ومصر ، وعلى منافذ الطريقين البحريين العربيين اللذين تسلكهما تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط .

٢ - وصارت مصلحتهم الاقتصادية العليا تقضى بإنعاش التجارة فى الأجزاء الجديدة من امبراطوريتهم ، لما تستوفى الدولة من رسوم على أصنافها وما توفر أعمالها من أسباب حياة لكثير من السكان .

٣ - وأصبحوا بالتالى ملزمين بتأمين الملاحة فى الخليج العربى والبحر الأحمر وبحر الهند ومقاومة البرتغاليين بحد السيف لمحاولتهم سد الطريقين العربيين وتحويل حركة النقل بالقوة الى الطريق الأطلسية .

وقضت هذه الاعتبارات أن يقوم العثمانيون بحملات بحرية بعيدة على البرتغاليين وعلى متاجرهم فى ساحل الدكن الغربى وفى الديو وفى الخليج العربى .

ثالثا. قيام العثمانيين بحملات بحرية بعيدة على متاجر البرتغاليين فى الديو والخليج العربى :

بلغ عدد الحملات الحربية البحرية أربع حملات ، جرت كلها فى عهد سليمان القانونى ، وأنطلقت اثنتان منها من ميناء السويس على البحر الأحمر ، واثنتان من مرفأ البصرة . فقد أدرك هذا السلطان العثمانى العظيم أن ازدهار العراق وسورية ومصر وبالتالى الأجزاء الجديدة والأساسية من الامبراطورية العثمانية الناشئة ، يتوقف على إعادة

النشاط الى المواصلات المائية بين بحر الهند والبحر المتوسط عن طريق الخليج العربى أو عن طريق البحر الأحمر أو عن كليهما . لذلك كان لابد من مجابهة البرتغاليين وحلفائهم الذين عرقلوا تلك المواصلات ، وحولوها الى الجهة الغربية عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان لابد من تلبية نداءات الاستغاثة الصادرة عن ملوك مصادر السلع فى الهند مثل ملك كاليكوت (٩٣٤هـ/١٥٢٧م وملك الديو ٩٣٩هـ/١٥٣٢م) وملك جوزرات (كمباية) الذى تعهد بدفع نفقات حملة عثمانية قوامها ١٠٠٠٠ جندى .

ورأى السلطان العثمانى أن الفرصة مواتية له ، فأمر سليمان باشا حاكم مصر بإعداد أسطول والذهاب لقتال البرتغاليين ، وكتب له ما يلى : عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك وحاجاتك ، وإعداد العدة .. للجهاد فى سبيل الله ، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة ، وجمع جيد كاف ، فعليك أن تخرج الى الهند ، وتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإذا قطعت الطريق ، وحاصرت السبيل المؤدية الى مكة والمدينة ، تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون ، وازلت رايتهم من البحر .

أ. حملة سليمان باشا الخادم الملقب بالوزير (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) ضد البرتغاليين :

١ ـ التعريف بسليمان باشا :

أصل سليمان باشا انكشارى يونانى من شبه جزيرة موره ، عمره ٥٠ سنة فيما قيل ، وهو قصير ، بدين ، ذميم ، قبيح الخلقة ، شر الاخلاق ، فتاك ، غدار ، لكنه جبان ، خوار ، خواف ، لم تعهد فيه شجاعة ولا اقدام .

٢ ـ إعداد الأسطول فى ميناء السويس :

وكانت السويس ، ميناء اعداد أسطول الحملة وانطلاقها ، قرية بائسة ، شبه محرومة من المياه العذبة منذ ٨ قرون بعد ترميل القناة التى كانت تصلها بنهر النيل ، تعيش من خدمات القوافل الذاهبة الى القاهرة ، ومن مرور الحجاج المسلمين الى مكة والمدينة ، والمسيحيين الى سيناء ، لكن نشاطها كان يزداد فى وقت اعداد الحملات البحرية فيها . وقد وصفها الايطالى ف. بيغافتا سنة ٩٨٤هـ/١٥٧٦م ، فقال : السويس بلدة صغيرة ، فيها القليل من المنازل المنخفضة الفقيرة ، يسكنها الأتراك وبعض العرب والمسيحيين واليهود المهتمين بالمكوس وبعض المرتدين من الايطاليين المغامرين . وتحوى عدة

حمامات وجوامع وسوق بيع كبيرة فيها المخازن والمؤن والسلع . ولدار الصناعة فيها حوض ماء كاف العمق ، يمكنه أن يستوعب ١٥ الى ٢٠ سفينة . وشاهد بيغافتا فيها ١٦ سفينة ، أربع منها فقط صالحة للعمل و ١٣ مدفعا لحمايتها . وتبنى دار صناعتها زوارق تجارية صغيرة لحساب السلطان ، تؤجر لبعض الناس لأن الباب العالى يحتكر الملاحة .

ولم يكن بناء الأسطول فيها ميسورا . فالخشب مفقود فيها وفى مصر وفى بلاد الشام ، ويؤتى به من خليج اياس الى الأسكندرية فى البحر ، ثم ينقل فى نهر النيل الى القاهرة ، ويحمل منها على ظهور الجمال الى السويس . واليد العاملة الخبيرة مفقودة أيضا ، فاستعين بمهندس بناء سفن من جينوة . والملاحون مفقودون ، فجىء بـ ٨٠٠ بندقى و ١٥٠٠ بحار من جميع أنحاء الأمبراطورية العثمانية .

لذلك تأخر اعداد أسطول حملة سليمان باشا الى ربيع سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م . ولما إنتهى بناؤه ، بلغ عدد سفنه ٧٠ غرابا و ٣٠ برشه حسب النهروالى و ٧٤ الى ٧٦ سفينة حسب المصادر البرتغالية . لكن لم تركب صواريها ولم تنصب مدافعها عليها فى السويس .

٣ ـ ذهاب أسطول الحملة الى الديو وهرموز : ٢٣ حزيران ١٥٣٨م/٩٤٥هـ :

وغادر أسطول الحملة السويس سنة ٩٤٥هـ/٢٢ حزيران ١٥٣٨ ، ومر بجدة وجزر كمران وعدن والشحر والديو وهرموز .

ففى جدة ، نصبت الصوارى والمدافع ، وأخذ سليمان باشا ١٠٠٠٠٠ أشرفى من حاكمها . وفى كمران رسا الأسطول واستعذب قبل أن يتجه الى باب المندب .

وعبر مضيق باب المندب ، وذهب الى عدن . وكان عامر بن داود من بنى طاهر ملكا عليها وقال النهروالى : لما بلغه وصول سليمان باشا للغزو فى سبيل الله وقطع جادرة الفرنج عن الاضرار بعباد الله ، فتح له باب عدن ، وأمر أن تزين ، وجمع له من البلاد ما أراد من الازواد ، وتوجه هو ووزيره للسلام عليه الى الغراب الذى هو فيه . فمجرد أن رأى سليمان باشا باب عدن قد فتح ، أمر عسكره بدخول عدن وأخذها . فلما وصل اليه عامر البسه ومن معه خلعا ، ثم أمر بصلبهم على الصارى فى الغراب الذى هو فيه ، ونهب العسكر داره ، وشرعوا فى نهب البلد .

وقد وصف عدن أحد البنادقة الذين اشتركوا فى الحملة ، فقال عنها : «عدن حصينة الى أقصى حد .

تقع على شاطىء البحر ، تحيط بها جبال عالية ، وتحميها قلاع وحصون . وليس من جهة البحر والبر سوى منفذين يتمثلان فى فتحتين عرضهما ٣٠٠ قدم . وتحرسهما حصون هلالية وأبراج وأسوار . ويمتد أمام شاطئها جبل رملى يأتى بعده ميناء جنوبى تحميه قلعة يقع عند أسفلها برج يحرس مدخل الميناء الذى يبلغ عمقه ١٢ باعا وينتهى بقعر ممتاز . ويقع فى شمالها مرفأ آخر أوسع بكثير من الجنوبى . ويتوفر الماء فيها رغم جفافها وجدب أرضها . ويأتى ماؤها من المطر ، ويجمع فى صهاريج عميقة جدا يسخن فيها ، ويبرد قبل شربه» .

وعدن مدينة تجارية ، تقصدها كل عام سفن كثيرة قادمة من الهند محملة بالتوابل التى تنقل الى القاهرة . وقد ترك فيها سليمان ثلاث سفن لحراسة الميناء و ٥٠٠ انكشارى .

ومر سليمان باشا بالشحر ، وأخذ من سلطانها ١٦٠ أسيرا برتغاليا و ٦ سفن ضمها الى اسطوله . وذهب بعدها الى الديو ، ووصلها سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ، وكانت أنباء غدره قد سبقته وبلغت مسامع سلطان جوزرات .

وكانت مدينة الديو ذاتها تابعة لملكة كمباية أو جوزرات . ويحكمها الخواجا صفر الملقب خداوندخان ، وهو مرتد إيطالى . ولا يسيطر البرتغاليون إلا على القلعة التى بنوها ووضعوا فيها حامية قوامها ٨٠٠ جندى بقيادة ف. باشيكو ، ومعهم ست سفن حربية .

ونزل سليمان باشا فى موضع إسمه مظفر أباد قرب الديو . ففتح له خداوندخان أبواب الديو ، فسلبها عسكره . رغم ذلك اضطر أن يتعاون معه فى حصار القلعة البرتغالية الذى دام خمسة أسابيع تقريبا . وأصيب فيه المدافعون والمحاصرون بخسائر فادحة : فقد شقت المدفعية العثمانية ثغرات فى أسوار القلعة ، هرب منها كثير من الجند وباشيكو نفسه . وأسروا . وأغرقت المدفعية البرتغالية عددا كبيرا من أحسن أغربة الباشا . ولم يكن الحصار محكما فدخلت تعزيزات بحرية برتغالية عديدة الى المرفأ . وفشل هجوم شامل لاحتلال القلعة قام به الأتراك وخداوندخان معا فى ٣٠ تشرين الأول وسنة ١٥٣٨ .

وخاف سليمان باشا من وصول أسطول برتغالى جديد بقيادة د. غرسيا دى نورونها من بحر الهند على حين غرة . وأوحى له خداوندخان أن البرتغاليين أوشكو ، مثلما اعترف رسل من قبلهم وقعوا فى أسره ، أن يفاجئوا الديو بأسطول ضخم ليفكوا الحصار عن قلعتهم . فترك سليمان باشا مدافعه الكبيرة لخداوندخان ، وركب أغربته ، وأبحر بإتجاه هرموز ،

عساه يلتقى فى طريقه بسفن برتغالية منفردة ليسيطر عليها . ولما لم يعثر على أى سفينة كر راجعا الى السويس . أما خداوندخان ، فوقع مع البرتغاليين إتفاقا يحدد حقوقهم دون أن يضطرهم الى إخلاء قلعتهم .

٤ ـ عودة أسطول الحملة الى القلزم : ٩٤٦هـ/ ١٦ آيار ١٥٣٩م :

ومر سليمان باشا على الشحر ، ووضع فيها حامية عربية ، لكن غرقت ثلاث من سفنه عندها وتوقف في عدن وقوى حاميتها فأنزل فيها ٢٠٠ انكشارى و ١٠٠ مدفع وذخيرة وأبقى فيها خمسة أغربة .

وغادر عدن ، وجاء الى مخا ، ونزل فى بندرها ، وخلع الناخوذه أحمد ، وأصر على مثوله بين يديه . فتهرب الناخوذة أحمد ، وذهب الى زبيد . فانتقل سليمان باشا بأسطوله الى جزر كمران (أخر كانون الثانى سنة ١٥٣٩م/ ٩٤٦هـ) ، وأبحر بسفن صغيرة الى البر ، وقصد زبيد ، ونصب خيامه عند أسوارها . وقطع رأس الناخوذة أحمد (٩٤٦هـ/ ٢٧ شباط ١٥٣٩) . ورجع الى أسطوله ، وعرج على جيزان التى انتزعها من شريف مكة ابى نمي بعد أن احتلها هذا الأخير ، ثم ذهب الى جدة ، وسافر منها الى مكة حاجا ، وعاد فمر بينبع ، وعبر منها الى القلزم بعد أحد عشر شهرا تقريبا من مغادرته السويس : ١٦ آيار سنة ١٥٣٩م ، وعاد سليمان باشا من مصر الى الاستانة ، وعزل بعد فترة وجيزة بعد اخذ ورد . وانتحر سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢ ـ ١٥٥٣م .

ب. حملة بيرى ريس : ٩٥٨هـ/١٥٥١م :

شغل بيرى ريس منصب قبودان أى أمير بحر فى مصر . فكلفه السلطان سليمان القانونى بقيادة أسطول عثمانى يضم ٣٠ سفينة تحمل ١٦٠٠٠ جندى من السويس الى الخليج العربى لقتال البرتغاليين .

وغادر السويس سنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م . وقطع البحر الأحمر ، وعبر باب المندب ، وتوقف فى عدن وعزز حاميتها ، ومر بالشحر ، وفقد بعض سفنه على شاطئها ، ووصل الى مياه مسقط فى مطلع ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م .

وكان جاوودى ليسبو قائد حامية مسقط فحاصرها بيرى ريس شهرا كاملا فاستسلمت له بعد أن أمن المحاصرين على حياتهم . لكنه أخذهم عبيدا ، واستولى على مدافعهم ، ومؤنهم ، وأجبرهم على التجديف فى مراكبه .

ثم ذهب الى هرموز ، وحاصر القلعة البرتغالية فيها شهرا أيضا ، وضربها بمدافعه ، والحق بها أضرارا كبيرة . إلا أنه يئس من احتلالها ، فنهب

ما استطاع من المدينة والجزيرة . وفرقت عاصفة شديدة أسطوله ، لكن نجت منه ١٥ سفينة ذهبت الى البصرة ، ولم يبق معه سوى ثلاث سفن تعاطى بها أعمال القرصنة فى الخليج العربى قبل أن يصل هو أيضا الى بندر البصرة . وقيل له فيه أن البرتغاليين يتعقبونه ، فحاول الخروج من الخليج بثلاثة مراكب ، فقد أحدها أمام البحرين ، وتمكن من التخلص من أعدائه بالمركبين الباقيين . وعاد بهما الى السويس ومنها الى القاهرةبغنائم جمة .

وهكذا فشلت حملة بيرى ريس فشلا ذريعا ، فحوكم بتهمة التقصير والسلب والنهب بناء على طلب والى البصرة العثمانى ، فحكم عليه بالاعدام ، ونفذ به سنة ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م .

ج ـ حملة مراد بك : ٩٦١هـ/١٥٥٣م :

عين مراد بك أمير بحر فى مصر سنة ١٥٥٤م خلفا لبيرى ريس . وكلف بإعادة السفن الى السويس . فذهب الى البصرة ، وأقلع بتلك المراكب فى شهر آب سنة ٩٦١هـ/١٥٥٣م . إلا أن البرتغاليين اعترضوه مقابل هرموز ، فأغرقوا أفضل سفينة عنده ، وخرج بباقى سفنه الى خليج عمان مجاريا صحار وقلهات . وهناك هاجمه أسطول برتغالى ثان مؤلف من ٣٢ سفينة بقيادة ف. دى نورونها . فكر راجعا الى البصرة ، وأبلغ الباب العالى بفشله .

د ـ حملة على بن الحسين الخليجية سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٤م :

لم يتخل السلطان سليمان القانونى عن محاربة البرتغاليين فى الخليج العربى . ففى عام ١٥٤٤م/٩٦٢هـ ، كان فى مدينة حلب ، فعين عليا بن الحسين أمير بحر . وكلفه بجلب السفن العثمانية من البصرة الى السويس . فذهب على بن الحسين الى شط العرب واستلم قيادته البحرية . وخرج بأسطوله الذى كان يضم ١٥ سفينة ، واتجه الى الجنوب . فمر ببوشير والبحرين وجزيرتى قيس والقسم ، وجلفار ورأس مسندم ، وأصبح في خليج عمان .

وهنا هاجمته قوة بحرية برتغالية أولى قوامها ٢٠ سفينة فى شهر آب سنة ١٥٥٤م . وتكبد بعض الخسائر ، لكنه أكمل طريقه مجاريا شاطىء صحار ومسقط وقلهات . فهاجمه أسطول برتغالى ثان مؤلف من ٣٤ سفينة . وقاومته الطبيعة أيضا ، إذ هبت عليه عاصفة عاتية ، بددت سفنه ، وقذفتها الى الشرق ، وساقتها رياحها نحو الديو وسرت ، واضطر القبودان أن يرمى مدافعه فى البحر لينجى مراكبه ، فأصبح عاجزا عن مجابهة البرتغاليين ، ولجأ الى مرفأ

دمن بعد ثلاثة أشهر من اقلاعه من البصرة . وتخلى عن سفنه الباقية الى خداوندخان الذى تعهد بإرسال ثمنها الى الاستانة .

ولما سمح له بالعودة الى بلاده ، استصحب معه ٥٠ من رجاله ، ورجع عن طريق البر الى تركيا ، ومر بالسند وما وراء النهر وخراسان وفارس . ووصل فى شهر نيسان سنة ١٥٥٧م الى اندرينوبل حيث استقبله السلطان سليمان القانونى . فقدم له كتابه المحيط المعروف . وتوفى على بن الحسين سنة ١٥٦٢م فى السنة التى أعدم فيها بيرى ريس .

وهكذا انتهت حملات سليمان القانونى البحرية على البرتغاليين الى الفشل مثلما أخفقت حملة قانصوه الغورى عليهم قبله بثلاثين عاما . لكن هذا لا يعنى أن الفرنج نجحوا فى إيقاف التجارة الدولية فى الخليج العربى أو البحر الأحمر على الدوام . فقد ظلت أوضاعهم مضطربة الى أن تغلب أهل الخليج أنفسهم على جميع اجراءاتهم ، وعادوا الى مزاولة نشاطهم التجارى ووساطتهم بين بحر الهند والبحر الأحمر ، مثلما كانوا يفعلون قبل مجىء فاسكو داغاما الى بحر الهند .

وعادت الأمور الى ما كانت عليه فى أقل من ربع قرن ، أى منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر .

القسم الثالث

استمرار وصول السلع إلى الخليج العربي وشحنها إلى البحر المتوسط وإلى بحر الهند

لم يؤثر فتح طريق رأس الرجاء الصالح على وصول التوابل والسلع الأخرى الى المياه العربية وبنادرها . وأثبت المؤرخون الألمان هذا الواقع قبل سواهم ، لأن البندقية لم تتوقف عن تموين بلادهم بالتوابل وسلع الشرق . وبالتالى لم تستطع البرتغال أن تقطع جميع مسالك التجارة الدولية وطرق وصول أصنافها الى البصرة فبغداد فحلب فطرابلس أو بيروت ، أو الى القاهرة فالأسكندرية ، ثم الى أوروبا الجنوبية والوسطى بسفن البندقية خاصة وسفن مدن أخرى كثيرة .

أولا : انقطاع شحن التوابل الى الأراضى العربية فى الربع الثانى من القرن الـ١٦ :

ولا شك أن نجاح البرتغال فى البدء فى الوصول الى مصادر السلع الشرقية وفى شرائها من منتجيها مباشرة ، أثار أزمة خانقة فى البنادر العربية فى الخليج والبحر الأحمر والبحر المتوسط وفى جمهورية البندقية خاصة لأن تجارها مالوا الى التشاؤم وأدركوا متأخرين نتائج السياسة التجارية البرتغالية ، وتوقعوا حصول كارثة اقتصادية فى مدينتهم بعد أن أخذت الأسعار تتعرض عندهم الى تقلبات مفاجئة مذهلة نشأت عن الاجراءات البرتغالية وعن ردود فعل البندقية سيدة الأسواق الأوروبية .

أ ـ الإجراءات البرتغالية :

وتلخصت التدابير البرتغالية فيما يلى :

١ ـ حدد الملك دون مانويل سعرا رسميا واحدا لبيع الفلفل سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م ، وحصر تجارة التوابل بالتاج البرتغالي وحده .

٢ ـ قطعت التوابل قطعا شبه كامل عن أسواق الأسكندرية وبيروت وطرابلس والأسكندرونه . ففى عام ١٥٠٢م . وجدت أربع بالات فلفل فقط فى بيروت ، ولا شىء البتة فى بيروت والأسكندرية سنة ١٥٠٤ و ١٥٠٦ . فتعذر العثور على حمولة توابل لأى سفينة فى تلك السنوات .

٣ ـ حلت لشبونة محل البندقية فى كثير من الأسواق الأوروبية ، فسيطرت البرتغال على سوق هولندة سنة ١٥٠١ ، وسوق انكلترة سنة ١٥٠٤ بعد وصول خمس سفن برتغالية مشحونة بـ ٣٨٠ طنا من الفلفل والتوابل من كاليكوت مباشرة ، وسوق ألمانيا الشمالية والوسطى سنة ١٥٠٧ ، وسوق فرنسة الغربية وقشتالة بعد سنة ١٥٢٤ .

٤ ـ وأخذت السفن البرتغالية ذاتها توزع التوابل على موانىء البحر المتوسط مثل جينوة (١٥٠٣) .

ب ـ ردود فعل البندقية :

حاولت البندقية أن تقاوم توسع البرتغاليين فى أسواق التصريف بشتى الوسائل .

١ ـ فسمحت فى شهر أيار سنة ١٥١٤ بنقل التوابل من مرافىء المشرق بسفن غير سفنها وأعفتها من الرسوم الجمركية عند دخولها الى أراضيها .

٢ ـ ولم تقف عند هذا الحد ، بل تقربت من البرتغال ، فجلبت سنة ١٥١٥ ما ينقصها من التوابل من لشبونة ذاتها .

٣ ـ وفى عام ١٥٢٧ ، عرض مجلس شيوخ البندقية على ملك البرتغال أن يشترى كل التوابل الواصلة الى لشبونة من الهند ، ما عدا الكمية اللازمة لاستهلاك البرتغال ، ويوزعها

فى أوروبة ، مما يدل على وضع البندقية الحرج وعلى احتلال لشبونة الأسواق الأوروبية على نطاق أوسع مع مرور الزمن . وقوبل العرض بالرفض البات .

لكن لم يدم النصر البرتغالى الأولى طويلا فسرعان ما عادت تجارة التوابل الى ما كانت عليه قديما ، وذلك منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر .

ثانيا : استئناف شحن التوابل الى الأراضى العربية فى النصف الثانى من القرن السادس عشر :

مع ذلك ، لا يجوز أن نتصور أن شحن التوابل وغيرها من السلع الى البنادر العربية انقطع إنقطاعا تاما فى وقت من الأوقات ، لأن آلاف الوثائق المصرية والأوروبية ، خاصة وثائق البندقية ومرسيلية ولشبونة ، تثبت وجود تنافس شديد بين التوابل المتوسطية أى الواردة عن الطريقين العربيين والتوابل الأطلسية أى الواردة عن الطريق العربية ، وإزدهار حركة التجارة الدولية فى المياه العربية فى الخليج والبحر الأحمر ، ودوام عبور السفن المحملة بالسلع فيهما بانتظام حتى نهاية القرن السادس عشر .

أ ـ التنافس بين التوابل المتوسطية والتوابل الأطلسية :

فلم يتوقف إرسال التوابل المتوسطية الى مرفأ انفرس وبلجيكا فى النصف الأول من القرن السادس عشر وربما بعد هذا التاريخ .

١ ـ ففى عام ١٥١٠ ، كانت إحدى السفن تنتقل بين الأسكندرية وانفرس حاملة التوابل .

٢ ـ وفى عام ١٥٤٠ ، اثرت التوابل المتوسطية فى أسعار سوق انفرس ففرض الايبيريون (البرتغال واسبانيا) حصارا «توابليا» على فرنسة . مما أدى الى تنشيط حركة مرسيلية التجارية بأنواع التوابل .

(١) بالفعل شحنت مرسيلية سنة ١٥٤٣ فلفلا الى مدينتى ليون وطولوز .

(٢) وتبادل الفرنسيون والانكليز شراء وبيع التوابل فى منتصف القرن السادس عشر ، لا سيما فى روان ولاروشيل وبوردو .

(٣) وفرضت قشتالة عام ١٥٥٩ ، رسوما جمركية مقدارها ١٠٪ من قيمة التوابل الداخلة الى أراضيها فتضرر الفلفل البرتغالى .

(٤) وفى عام ١٥٦٥ ، وصلت شحنات فلفل من مرسيلية الى روان (نورماندية) ونافست فى طولوز الفلفل البرتغالى الذى كانت تبيعه مدينة بوردو .

(٥) وارتفعت أسعار التوابل فى لشبونة عام ١٥٩١ لعدم وصول أى سفينة اليها من الهند ، وبقيت أسعار الفلفل ثابتة لأن البندقية تلقت كميات

كبيرة منه من المشرق (توابل سطحية) .
(٦) وتبين فى أخر القرن السادس عشر أن الفلفلين الأطلسى والمتوسطى يتنافسان دون أن يستبعد احدهما الآخر .

وتعنى هذه الوقائع المادية أن العرب استأنفوا تزويد منافذ البحر المتوسط بالتوابل عبر طريقيهم المائيين . وقد استفاد من هذا النشاط المستجد التجار الأوروبيون ، وفى طليعتهم البنادقة ، وبعدهم تجار مرسيلية وتجار راغوز فى صقلية . واستقر تجار البندقية فى الأسكندرية والقاهرة ودمشق وحلب ، واستغنوا عن الوسطاء اليهود المحليين الأثرياء . ويدل وجود التجار الأوروبيين فى منافذ التجارة الدولية على البحر المتوسط دلالة قاطعة على إزدهار التجارة الدولية بين الشرق والغرب عن طريق الخليج العربى فى معظم الأحيان وعن طريق البحر الأحمر أحيانا أخرى .

ب. إزدهار حركة تجارة المرور الدولية فى الخليج العربى والبحر الأحمر :

يتصور بعض المفكرين أن الطريقين العربيين ، طريق الخليج وطريق البحر الأحمر ، يتنافسان ويتزاحمان ، وأن انتعاش احدهما يستلزم الركود فى الأخر . والحقيقة أن الظروف الدولية هى التى كانت تفرض على التجارة الدولية اختيار هذا الطريق أو ذاك أو امكانية سلوكهما معا .

١ ـ فالحركة التجارية تباطأت فى الخليج العربى فى أثناء الحرب بين العثمانيين والصفويين فى عهد سليم الأول وفى عهد سليمان القانونى ، وفى أثناء الحروب البحرية البرتغالية العثمانية . وأدى ركودها الى توقف القوافل عن الذهاب الى حلب التى يرتبط نشاطها بنشاط مملكة هرموز . وقد يئس أحد التجار الراغوزيين من هذا الوضع ، فقال : فى شهر تموز سنة ١٥٥٧ : لا أظن أن السلع فقدت فى حلب مثلما فقدت فى هذه الأيام : فليس فيها سوى الصابون والرماد . وسعر العفص ١٣ الى ١٤ دوكا . وسوف تقفز الأسعار قفزا الآن لأن أربع سفن فرنسية وصلت الى طرابلس التى ترسو فيها أكثر من ثمانى سفن أخرى تشترى السلع بالسعر المعروض . وسوف ينكسر جميع التجار .

٢ ـ على النقيض ، أعلن سفير البندقية فى الاستانة فى شهر تشرين الثانى سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م أى بعد انتهاء الحروب البحرية البرتغالية العثمانية ، أن سفن البندقية الضخمة أقلعت من طرابلس الى أوروبة . وأشار تقرير من البندقية أيضا (٩٧٠هـ/١٥٦٢م) أن ٥٠٠٠

عامل يعملون فى الحياكة فى مدينة حلب . وتعبر هذه الأقوال عن انتعاش حركة التبادل التجارى عن طريق الخليج بعد زوال أسباب توقفها ، أى الحروب .

٣ ـ أخيرا إزدهرت الحركة التجارية فى البحر الأحمر فى أثناء الحرب العثمانية الصفوية في البر والحروب العثمانية البرتغالية فى البحر وعند مدخل الخليج العربى أو فيه .

وموانىء التجارة الدولية كثيرة فى البحر الأحمر ، منها جدة وسواكن والطور والسويس ، إلا أن أهمها جـدة . فمن جدة تنطلق السفن والزوارق محملة بالسلع الى الطور . وتنقل القوافل تلك السلع الى القاهرة فى غضون ٩ أو ١٠ أيام . ويصل ألف الى الفى طن من التوابل سنويا الى جدة فى شهر أيار وشهر تشرين الثانى ، وتشحن كلها الى القاهرة فـالأسكـنـدريـة حيث تبـاع الى الأوروبيين .

(١) ففى عـام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م ، اشترى البنادقة وحدهم ٦٠٠ بالة توابل أى ٣٠٠ طن أو ما يعادل نصف مبيعات مصر .

(٢) وبـين عامى ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م و ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م ، قدر تقرير أحد جواسيس البرتغال حركة بيع وشراء الفلفل ما بين ١٢٥٠ و ١٥٠٠ طن .

(٤) وفى شهر آيار سنة ١٥٦٥ ، ذكر تقرير سفير البندقية فى القاهرة أن ١٠٠٠ طن من الفلفل وصلت الى جدة ولابد أن يضاف اليها ما يأتى فى تشرين الثانى من جوزرات وكاليكوت .

ولا تتضمن هذه الأرقام ما يشحن عن طريق الخليج العربى فى أيام السلم . لذلك يستنتج العارفون أن نصيب الطريقين العربيين من شحن السلع يعادل ما يشحن عن طريق المحيط الأطلسى الى لشبونة ، بل يزيد عليه .

ولا تشتمل هذه الأرقام أيضا على العقاقير الطبية (الأفيون ، البلسم) والحرير والعطور والحجارة الكريمة واللآلىء وغيرها ، ولا على السلع المنقولة من البحر المتوسط الى بحر الهند .

ففى عام ١٥٦١ ، انطلقت سفينة اسمها كروس ، حمولتها ٥٤٠ طنا من البندقية الى المشرق مشحونة بالنحاس الخـام والأجـواخ والمنسـوجـات الصوفية والحريرية والمرجان والعنبر والطرف والورق والنقود ، وعادت بحمولة من الفلفل والزنجبيل والقرفة وجـوز الطيب والقرنفـل والبخور والصمغ العربى والسكر وخشب الصندل .

٤ ـ نتائج إزدهار تجارة الطريقين العربيين :

ترتبت على إزدهـار الطريقـين العربيين ثلاث نتائج كبرى .

(١) النتيجة الأولى : تضاءل وصول

الفلفل والتوابل الى لشبونة . ففى شهر تشرين الثانى سنة ١٥٦٠ قال السفير البرتغالى فى رومة : لا عجب إذا قلت كميات التوابل الواصلة الى لشبونة ، لأن مقادير هائلة منها وصلت الى الأسكندرية . وفى شهر نيسان سنة ١٥٦١ سر السفير الفرنسى فى البرتغال لندرة التوابل فى لشبونة ، وقال : إذا استمر شحن التوابل الى البحر الأحمر على هذا المنوال ، فسوف تفرغ مخازن ملك البرتغال الذى يخشى هذا الاحتمال بعد أن حارب مدة طويلة لملئها .

(٢) النتيجة الثانية : فقدت التوابل من الأسواق التى تتعامل مع البرتغال . وأخذ تجارها يفتشون عن مصادر تموين فى لشبونه .

(٣) النتيجة الثالثة : فى أواخر سنة ١٥٦٣ ، جرت مفاوضات صلح بين البرتغال والسلطان سليمان القانونى الذى عدل عن التورط فى التوترات السائدة بين الهنود والبرتغاليين فى الهند ، فخلع خلعا على السفراء البرتغاليين مع الباب العالى . وطلب منه حق إدخال السلع الهندية الى القاهرة والأسكندرية وسورية عن طريق البحر الأحمر معفاة من الرسوم . فرفض طلبه ولم يمنح هذا الامتياز . فهل كان فى نية البرتغاليين العدول عن سلوك الطريق الغربية ؟

ج ـ دوام عبور السفن المحملة بالسلع فى الخليج والبحر الأحمر :

مهما يكن ، بقي الطريقان العربيان ، طريق الخليج العربى وطريق البحر الأحمر ، يستقبلان السفن المحملة بشتى السلع من عام ١٥٨٠ الى آخر القرن السادس عشر ، ويستدل على ذلك من الوثائق التى تتحدث عن النشاط التجارى فى منافذ البحر المتوسط ، التابع لنشاط الطريقين .

١ ـ انتعاش تجارة بلاد الشام تبعا لانتعاشها فى الخليج العربى :

(١) فوثائق مرسيلية لصيف عام ١٥٧٨ تذكر شراء جوز الطيب من سورية .

(٢) وتشير احدى رسائل تاجر من تجار حلب ، محررة فى شهر كانون الثانى سنة ١٥٧٩ ، الى شحن سفينتين كبيرتين من سفن البندقية بالسلع من طرابلس الشام ، فى حين تتاهب سفينة كبيرة ثالثة لترسو فى بندرها فى الشهر ذاته . وانخفضت أسعار الأجواخ فى طرابلس لكثرة ما وصل اليها من أوربة .

(٣) ونصت رسالة من تاجر حلبى آخر تاريخها ١٢ آيار سنة ١٥٧٩ ، على وصول قافلة جلبت ٢٠٠ حمل من الحرير و ٢٥٠ حملا من التوابل يصحبها تجار فرس ومسيحيون .

(٤) وفى ٤ تموز ١٥٧٩ أيضا ، ورد فى

قائمة سلع مشتريات سفن توسكانية : ١٧ قطعة أبنوس (٢٠٥ ليبرة) ، سكر (٩٣٦ ليبرة) ، بالة حرير صغيرة (١٠٢ ليبرات) ، بخور (١١٨٥ ليبرة) ، جوز طيب (٢٣٦ ليبرة) ، فلفل (٧٧٠٦ ليبرات) ..

(٥) وفى شهر آب سنة ١٥٧٩ ، أعلن قنصل البندقية فى سورية عن سفر سفينتين كبيرتين بندقيتين ، مشحونتين بالحرير والتوابل الى بلاده .

٢ ـ أزمة نشاط تجارى عابرة فى بلاد الشام :

لكن حصلت أزمة تجارية فى عامى ١٥٨٢ و ١٥٨٣ .

(١) ففى كانون الأول سنة ١٥٨٢ ، تتحدث إحدى رسائل حلب عن صغر حجم الأعمال التجارية وعن خسائر عقودها الفادحة ما عدا الحراير .

(٢) وفى شهر تموز سنة ١٥٨٣ ، ساءت الأعمال حتى فقدت رؤوس الأموال ٨٪ من قيمتها . ولوحظ وجود الأزمة ذاتها فى الأسكندرية .

٣ ـ تجدد النشاط التجارى فى بلاد الشام :

إلا أن الأوضاع تبدلت بعد سنة ١٥٨٣ ، وعاد النشاط التجارى الى سابق عهده .

(١) فقد قال أحد تجار مرسيلية المقيم فى حلب ، فى شهر نيسان سنة ١٥٨٣ ، أن أسعار الفلفل إرتفعت كثيرا رغم وجود كميات كبيرة منه .

(٢) وذكر جوهن الدريد سنة ١٥٨٣ أن التجار الأوروبيين يقصدون طرابلس بكثرة ، وأن حلب مزدحمة بالسكان .

٤ ـ النشاط التجارى فى البصرة والأسكندرية :

وشاهد جوهن الدريد نفسه فى العام ذاته ١٥٨٣ ، ٢٥ غرابا عثمانيا فى البصرة ، وقال أن عدة سفن تأتى اليها من هرموز شهريا ، تتراوح حمولتها بين ٤٠ و ٦٠ طنا ، محملة سلعا هندية تشمل التوابل والعقاقير والنيلة وأقمشة كاليكوت . وعندما رجع الى حلب ، سافر فى قافلة مؤلفة من ٤٠٠٠ جمل تنقل التوابل والسلع الأخرى . كذلك كان بالامكان الحصول على جميع أنواع التوابل من الأسكندرية .

٥ ـ النشاط التجارى فى هرموز :

وبين سنة ١٥٨٤ و ١٥٨٧ ، رفع تقرير الى فيليب الثانى ملك أسبانية والبرتغال وخليفة شارل الخامس ، وصف أوضاع هرموز فى أواخر القرن السادس عشر على الوجه التالى :

«تستقبل هرموز جميع المهاجرين ، وتتعاطى جميع أنواع التجارات والتهريبات . ويأتى اليها البنادقة والأرمن والعثمانيون والبرتغاليون المرتدون ، ويذهبون الى الأمبراطورية العثمانية حيث تخدم معارفهم الثمينة

عن الهند تجارة التهريب وتجارة التوابل واللؤلؤ والراوند وصمغ جاوه وخشب الصندل باتجاه الغرب ، والسلع المهربة كالذخائر والأسلحة الحديثة بإتجاه الشرق» .

٦ ـ النشاط التجارى فى البحر الأحمر : جدة :

ويبدو أن نشاط التجارة فى البحر الأحمر كان لا يقل عن نشاطها فى الخليج العربى ، خاصة فى بندر جدة .

(١) ففى سنة ١٥٨٦ ، بلغت الرسوم الجمركية ١٥٠٠٠٠ دوكا نصفها للسلطان ونصفها لشريف مكة . وكانت ٤٠ الى ٥٠ سفينة ترسو فى جدة سنويا ، وتجلب اليها التوابل .

(٢) وفى سنة ١٥٨٧ ، كانت سفن شمطرة تسافر مباشرة الى جدة .

(٣) ثم انتقل التجار الذين كانوا يتعاملون مع جدة وهرموز من الديو وجو الى شيول وكان ذلك سنة ١٥٩٠ .

خاتمة

فشل قانصوه الغورى وسليمان القانونى فى ابعاد البرتغاليين عن الخليج العربى والبحر الأحمر فى القرن السادس عشر . لكن نجحت أعمالهم الحربية والسياسية فى إنهاك الفرنج ماديا ومعنويا رغم محافظتهم على مراكزهم فى الخليج العربى .
وعجز البرتغاليون عن منع تدفق السلع الشرقية على منافذ البحر المتوسط عبر الطريقين العربيين .
ومع اطلالة القرن السابع عشر ، سادت أوضاع دولية جديدة فى بحر الهند وفى الخليج العربى . شكلت خطرا حقيقيا على المصالح الاقتصادية العربية ، بل مثلت بداية الاستعمار الأوروبى .
فقد جاء الانكليز والهولنديون الى الخليج ، وتحالفوا مع شاه فارس عباس الأول وقضوا على البرتغاليين ، فساعدوا الشاه الفارسى على احتلال هرموز ، وصفوا مواقعهم الأخرى .
وثبت العثمانيون هيمنتهم على العراق ، وقسموه الى ولايات عثمانية ، منها ولاية البصرة التى شملت عشرين سنجقا ، وامتدت نظريا حتى رأس مسندم

ولعبت عمان دورا أساسيا فى الاجهاز على المواقع البرتغالية فى أراضيها .
وهكذا طوى التاريخ الحقبة البرتغالية ، وبدأت الحقبة الأوروبية وإقامة ركائز الاستعمار الأوروبى فى المحيط الهندى وفى أنحاء العالم .

مراجـــع مختـــارة

مراجع عربية

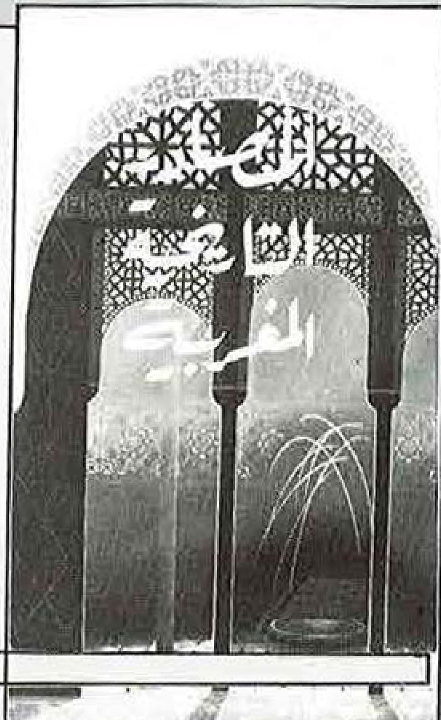
أحمد ، محمد عبد العال ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، نصوص جديدة ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ .
الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد ، تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ١٩٨٠ .
البازعريني ، المماليك ، بيروت ، ١٩٦٧ .
سرهنك ، اسماعيل ، تاريخ الدولة العثمانية ، بيروت ١٩٨٨ .
قلعجي ، قدرى ، الخليج العربى ، بيروت ، ١٩٦٥ .
النهروالى ، قطب الدين محمد بن أحمد ، غزوات الجراكسة والأتراك فى جنوب الجزيرة المسمى البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، الرياض ، ١٩٦٧ .

مراجـع أجنبية

Braudel, F., La Me´diterrane´e et le Monde Me´diterrane´en a` l'e´poque de Philippe II, Paris, 1982.
Da mes, M.L., The Book of Duarte Barbosa, Nendeln, 1967.
Kammerer, A., La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite´, 3 vols., Le Caire, 1947-1949.
Mills, J.V.G., The Overall Survey of the Ocean's Shores (1433), Cambridge, 1970.
Planhol, Xavier de, Les Fondements Ge´ographiques de l'Histoire de l'Islam, Paris, 1968.
Yule, Sir Henry, Cathay and the Way Thither, Nendeln, 1967.

وَأحداث الخـ

في ظل الحُـ



أتناول في دراستي هذه نقطتين رئيسيتين هما :

أولا : معالجة بعض المصادر التاريخية الخليجية لموضوع عوامل انهيار الاحتلال البرتغالي بالخليج العربي في ظل الحكم العثماني.

ثانيا : أوضاع الخليج العربي في مطلع القرن التاسع عشر كما جاء في مصدر تاريخي مغربي معاصر.

أولا : معالجة بعض المصادر التاريخية الخليجية لموضوع عوامل انهيار الاحتلال البرتغالي بالخليج العربي في ظل الحكم العثماني :

ان القاء نظرة عامة على الادوار الرئيسية التى قام بها جناحا الوطن العربي في المشرق والمغرب عند مطلع العصور الحديثة بوجه خاص، تؤكد لنا الحقائق التالية :

١ ـ لأول مرة يرتبط الجناحان مباشرة عن طريق الرحلات البحرية التى قام بها الرحالة الاوربيون والبرتغاليون والاسبانيون بصفة خاصة.

٢ ـ لقد تعرض جناحا الوطن العربي في المغرب والمشرق لاخطار خارجية بسبب الموقع الجغرافي وغنى المنطقة واستهدفت

...ليج العربي
...كم العثماني

بقلم: الدكتور
عبدالكريم
كريم (المغرب)

الحملات العسكرية البرتغالية عند احتلال مدينة سبته سنة ١٤١٥م ومهاجمة الخليج العربي سنة ١٥٠٨م التوغل في قلب الوطن العربي لاستغلال الارض واستعباد السكان وتهديد المنطقة في مقوماتها الدينية والروحية والقومية.

٣ ـ ظلت جبهتا الوطن العربي قلعتين حصينتين في مواجهة التحديات الاستعمارية الخارجية وبذلتا من التضحيات بالنفس والمال والأهل والولد ما خلده تاريخنا العربي في صفحات مشرقة ناصعة.

٤ ـ لقد أفسد صمود الجبهتين العربيتين في المشرق والمغرب على الغزاة كل محاولة للتدخل والتمركز والاحتلال، فكان ان نجا الوطن العربي من اخطار كانت تهدده في وجوده ومصيره.

٥ ـ نجاح المجاهدين المغاربة في القضاء على الحملة البرتغالية التى قادها الملك البرتغالي (دون سباستيان Don Sibastian) بوادى المخازن قرب مدينة القصر الكبير يوم الاثنين ٣٠ جمادى الاولى عام ٩٨٦ هـ الموافق ٤ اغسطس ١٥٧٨ م اراح الخليج العربي والجزيرة العربية من عدو خطير ظل يتوعد المنطقة ويهددها طوال ثلاثة ارباع القرن السادس عشر ومكن المجاهدين في الخليج العربي من القضاء على قواعد احتلاله وتصفية وجوده.

والمؤرخ المغربي المعاصر عبدالعزيز القشتالي في كتابه «مناهل الصفا في موالينا الشرفا» خير من يتحدث لنا عن معركة وادى المخازن وأهم نتائجها وكيف انتهى الأمر بعد القضاء

على الحملة البرتغالية ومقتل الملك البرتغالي بتدخل الملك الاسباني فيليب الثاني خال الملك البرتغالي على رأس حملة عسكرية وضم الامبراطورية البرتغالية وتوحيد شبه جزيرة ايبريا عام ١٥٨٠م. كان لمعركة وادى المخازن صدى كبير في المشرق العربي، وقد دون الرحالة المغربي المعاصر أحمد بن القاضي في مخطوطه «المنتقى

المقصور» جانبا من ذلك : «ومما شاهدته من سيرة أهل المشرق بأهل قطرنا حينئذ لما انتهى اليهم خبر الغزوة العظيمة مايكل عن وصفه اللسان قائلين : هذا من أهل الغزوة المشهورة بما لا يدركه الا من شاهد ذلك، وصار لنا بذلك بينهم حظ عظيم» (ص ١٠١). ويضيف قائلا :

«أن أمرها عظيم على الترك (العثمانيين) جدا غيرة منهم أن يكون مثلها على يد أمير عربي فامتلأوا منها غيظا وامتلأ العرب منها فرحا وسرورا» (ص ١٠١). ومن جهة أخرى فقد سجل أحد الشعراء المعاصرين بالمغرب الكثير من هذه الاحداث السياسية والأمال التى اصبح عرب المشرق يعلقونها على الخليفة المولى أحمد المنصور السعدي بطل معركة وادى المخازن :

١) ان شرق البلاد يرجوك شوقا مثلما يرتجى طلوع الهلال
فادرك مصر والعراق ويمم حرم الحي الكم خير ال

(الشاعر عبدالعزيز القشتالي: مناهل القشتالى ص ١٥٧)

٢) وهذي الشام وهذى العراق ستمسي لكم وهي دار القرار

(الشاعر علي بن أحمد المسفيوى: مناهل الصفا ص ١٦١)

٣) وتخفق بالوادى المقدس راية عليك وتلوى فيه الوية حمر

(الشاعر محمد علي الهوزالي: مناهل الصفا ص١٤٢)

٤) ومما يؤكد صدى معركة وادى المخازن في الخليج العربي البيت الشعري التالي للشاعر المغربي عبدالعزيز القشتالي يخاطب الخليفة المنصور السعدى :

فكم هنات ارض العراق بك العلا ووافت بك البشرى لاطراف عمان

ان الدافع الذي جعلني اتعرض لذكر معركة وادى المخازن ونتائجها والصدى الذي احدثته في الشرق العربي خلال الربع الاخير من القرن السادس عشر، هو اننى وقفت على مصدرين تاريخيين يتحدثان عن الاحتلال البرتغالي للخليج وعوامل انهياره : الأول لصديقنا الاستاذ الدكتور مصطفى عقيل الخطيب الاستاذ بجامعة قطر وعنوانه «التنافس الدولي في الخليج العربي» وقد أهدانى اياه عندما حضر «ندوة

الملك محمد الخامس الدولية» في الرباط بالمغرب (نوفمبر ١٩٨٧).

والثاني للاستاذة بالمملكة العربية السعودية نوال حمزة يوسف، نالت به درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي وعنوانه «النفوذ البرتغالي في الخليج العربي».

جاء في كتاب «التنافس الدولي في الخليج العربي» (ص ٤٥ ـ ٤٦) عند التحدث عن اسباب تحرير هرمز ذكر للعوامل التى أدت الى نهاية الامبراطورية البرتغالية في الشرق بصفة عامة، منها: «ان الشعب البرتغالي كان محدود العدد.. وان شعوب المستعمرات كانت تكن لهم الكراهية.. وان عامل الوقت لعب دورا هاما في انهيار الامبراطورية الشرقية.. ومنها ان البرتغال فقدت استقلالها عام ١٥٨٠ وانضمت الى العرش الاسباني».

فكيف فقدت البرتغال استقلالها، وما اسباب ذلك ؟ انها معركة وادى المخازن. وبالنسبة لمؤلف الاستاذة نوال «النفوذ البرتغالي في الخليج العربي» (ص ١٨١) عند التحدث عن «بداية التنافس بين القوى الاوربية للسيطرة على تجارة الخليج العربي» أوردت مراحل هذا التنافس وكيف ظهرت قوى جديدة اوربية منافسة للبرتغال في الخليج دون تعليل اسباب ضعف الوجود البرتغالي في الخليج «ففي سنة ٩٨٨ هـ ١٥٨٠ م استولى فيليب ملك اسبانيا على البرتغال بعد وفاة ملكها هنري» فما الاسباب التي جعلت الملك الاسباني يستولي على البرتغال ويوحد الامبراطوريتين الاسبانية والبرتغالية ؟ إنها مرة ثانية معركة وادى المخازن التي تحطمت فيها القوات العسكرية البرتغالية وقتل فيها الملك البرتغالي دون سباستيان والألاف من وجهاء القوم في البرتغال. والملك هنرى هو الكاردينال هنرى عم دون سباستيان الذي تركه نائبا عنه في لشبونه عند قيادته للحملة العسكرية ضد المغرب.

ثانيا : أوضاع الخليج العربي في مطلع القرن التاسع عشر كما جاء في مصدر تاريخي مغربي معاصر :

من المصادر التاريخية المغربية التى انفردت بتدوين معلومات هامة عن الخليج العربي في مطلع القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى كتاب :

١ ـ الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا.

٢ ـ مخطوط (الترجمان المعرب على دول المشرق والمغرب) ـ دار الوثائق بالرباط (د ٦٥٨) وهما لابي القاسم الزياني (١١٤٧ ـ ١٢٤٩ هـ) (١٧٣٤ ـ ١٨٣٥ م).

فقد ساعدته الظروف كسفير للسلطان محمد الثالث لدى السلطان العثماني في اسطنبول على الوقوف على كثير من اخبار المشرق العربي ومنطقة الخليج العربي بوجه خاص وهو يقول : «واعتمدت فيما سطرت على ما طالعته من مصادر التاريخ.. وعلى ما طالعته بالقسطنطينية العظمى أيام سفارتى لها من سلطات المغرب بحضرة السلطان العثماني عبدالحميد رحمة الله عليه.. فقد أمر الوزير قيمها ان يفتح لي الباب ويطلعني على دفتر الكتب وكل كتاب تعلقت به همتي ينزله لي أطالع فيه واقيد.. وقد طالعت منها تواريخا متعددة كل واحد يشتمل على عدة مجلدات». (الترجمان ص ٢ ـ ٣).

يضاف الى ذلك مشاهداته وما سمعه ممن التقى بهم من الحجاج في موسم الحج حيث يقول : «وانما رسمت فيها ما شاهدته في الاقاليم التى بلغتها وغيره نقلته ممن اجتمعت بهم بالحرم الشريف ومكة». (الترجمانة ص ٣٣).

فما أهم المعلومات التى دونها المؤرخ الزياني عن الخليج العربي في مطلع القرن التاسع عشر ؟ يمكننا ان نرتب هذه المعلومات كالتالي :

١ ـ معلومات عامة عن طبيعة المنطقة.
٢ ـ وصف عام لعمرانها وعناصر سكانها وبعض مذاهبهم.
٣ ـ جوانب اقتصادية.
٤ ـ الاوضاع السياسية.

١. طبيعة المنطقة :

كان الخليج العربي يعرف بالخليج الاخضر، وكان ينقسم الى بحار داخلية عديدة تحمل اسماء المناطق التى تجاورها الابلة ومكران وكرمان الى ان ينتهى الى الابلة حيث عبادان فهناك ينتهي آخره ثم ينعطف راجعا الى جهة الجنوب فيمر ببلاد البحرين واليمامة ويتصل بعمان.. وهناك اتصاله بالبحر الهندى وطول هذا البحر اربعمائة فرسخ واربعون فرسخا) (١).

وهذا الخليج (بحر مبارك كثير الخير دائم السلامة وطي الظهر قليل الهيجان بالنسبة الى غيره) ويتميز بكثرة الجزر (وفيه جزائر كثيرة معمورة مسكونة) (٢).

وبارتفاع الحرارة (مدينة البحرين كثيرة المياه شديدة الحر كثيرة الرمال) (٣).

كما توجد به مناطق تتصف بالخصب وغزارة المياه (مدينة لار وهي حسنة كبيرة كثيرة المياه والبساتين) (٤).

ومدينة (قيس وهي المسماة سيرآن.. مدينة عظيمة ذات بساتين ومزارع.. ثم مدينة هجر.. وهي كثيرة الانهار والاشجار) (٥).

٢. عمران منطقة الخليج العربي :

وصف المؤرخ الزياني حوض

الخليج العربي واورد ذكر عدد من المدن الواقعة على ضفافه فقال :

«وقاعدة أرض عمان مدينة نزوا.. ومن مدنها مدينة هرمز على ساحل البحر ويقابلها في البحر جزيرة هرمز الجديدة وبها حرون يسكنها سلطان عمان.. وبعد مدينة هرمز مدينة جنح بال على ساحل البحر ايضا.. وبعدها مدينة قيس وهي المسماة سيرآن مدينة عظيمة.. ثم بعدها مدينة البحرين.. وبعدها مدينة القطيف.. ثم مدينة هجر وتسمى اليوم الاحساء [٦].

ويضيف في مكان أخر عند حديثه عن العمران في الخليج العربي :

«ثم مدن جزيرة العرب أولها الاحساء ثم مدينة الاحقاف ثم مدينة أصحاب الاخدود.. ثم مدينة ارم ذات العماد ثم مدينة اراص.. ثم مدينة البحرين ثم مدينة جوهي اليمامة ثم مدينة الحجر.. ثم مدينة حارك بها مدن ايضا ثم مدينة الخط قرب عمان ثم مدينة الرس قرب جلاجل ثم مدينة سليمان ثم مدينة سلجين ثم مدينة سويقة ثم مدينة الشحر بعمان ثم مدينة هجر قرب عمان». [٧].

وعن اجناس السكان بالخليج العربي أكد الزياني عروبة المنطقة[٨] حين قال : «فهذه عمائر جزيرة العرب من اليمن الى القادسية ومدائنها وهي باب العرب» [٩].

«مدن جزيرة العرب أولها الاحساء..» [١٠]. مدينة هجر يسكنها عرب بني حنيفة وهي بلدهم من قديم الزمان» [١١]. «بمدينة قيس.. العرب هم الذين يغوصون على اللؤلؤ فيما بينها وبين البحرين» [١٢]. كما أورد عنصر التركمان والعجم «ومدينة جنح بال على ساحل البحر ايضا وسكانها تركمان وهم الذين يعمرون تلك المفاوز وهم أهل شجاعة وقسوة» [١٣]. «ومدينة قيس.. سكانها عجم وبها بعض العرب» [١٤].

ومن بين هؤلاء السكان من هو على مذهب الاباضية «وقاعدة ارض عمان مدينة نزوا وأهلها اباضية». «ومدينة القطيف يسكنها العرب». [١٥]. وهذه البلاد كلها تسودها السلفية [١٦].

٣ ـ الناحية الاقتصادية :

وصف ابو القاسم الزياني في «الترجمانة الكبرى» ما حبته الطبيعة من خيرات لمنطقة الخليج العربي، فهو «بحر مبارك كثير الخير دائم السلامة.. به مغاص اللؤلؤ الذي خرج منه الحب البالغ الكبير وربما وقعت الدرة اليتيمة التى لا نظير لها» [١٧].

«وفي جزائره معادن أنواع الياقوت والاحجار الملونة النفيسة ومعادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والسنبادج والعقيق وأنواع الطيب والأفاويه[١٨] «وفي جزيرة هرمز الجديدة.. معدن الملح الاندراني في سباخ بها» [١٩] وعن الظروف التى يتكون فيها الدر اللؤلؤ بمياه الخليج العربي ذكر :

«يزعم البحرينيون ان الصدف الدرى لا يكون الا في بحر تصب فيه الانهار العذبة فاذا اتى الربيع كثرت هبوب الريح في البحر ورفعت الامواج ويضطرب البحر فاذا كان الثاني عشر من نيسان خرجت الاصداف من قعور هذه البحار ولها اصوات وقعقعة وبوسط كل صدفة دويبة صغيرة وصفاقتى الصدف لها كالجناحين وكالسور تتحصن بهما من عدو متسلط عليها وهو سرطان البحر.. وفي اليوم الثاني عشر من نيسان لا تبقى صدفة في قعور هذه البحار المعروفة بالدر واللؤلؤ الا صارت على وجه الماء وتفتحت حتى يصير وجه الماء ابيض كاللؤلؤ وتأتى سحابة بمطر عظيم ثم تنقشع السحابة وقد وقع في جوف كل صدفة ما قدره الله تعالى واختار.. وافضل الدر المتكون في هذه الاصداف القطرة الواحدة والاثنتان والثلاثة وكلما قل العدد كان اكبر جرما واعظم قيمة والمتكونة من القطرة الواحدة هي الدرة اليتيمة التى لا قيمة لها» (٢٠).

ويبدو ان الولاة كانوا يتعاطون تجارة اللؤلؤ : «وعندهم مغاصات اللؤلؤ تحت حكم سلطانها» (٢١).

وفي المجال الاقتصادي نجد ايضا اشارات الى بعض المزروعات في المناطق الخصبة : «مدينة قيس وهي المسماة سيرأن.. مدينة عظيمة ذات بساتين ومزارع» (٢٢). «مدينة هجر.. كثيرة الانهار والاشجار بها من التمر الأن محجي» (٢٣). والى المبادلات التى كانت تتم بين مناطق الخليج «جزيرة هرمز الجديدة.. يجلب لأهلها التمر من عمان والبصرة لأكلها مع السمك» (٢٤).

٤ ـ الأوضاع السياسية في الخليج العربي :

من دراستنا لما ورد في الترجمانة الكبرى للزياني نلاحظ :

١ ـ وجود وحدات سياسية مثل سلطنة عمان (ومن مدنها مدينة هرمز على ساحل البحر ويقابلها في البحر جزيرة هرمز الجديدة وبها حرون يسكنها سلطان عمان (٢٥).

٢ ـ قيام بعض الجماعات المحلية بفرض نفوذها (مدينة جنح بال على ساحل البحر وسكانها تركمان وهم الذين يعمرون تلك المفاوز وهم أهل شجاعة وقسوة. (٢٦). ومدينة القطيف (٢٧).

٣ ـ سيطرة السلفيين على مناطق واسعة من البلاد «وأما اقليم الشرق من سواد الى العراق الى مغايص الفرات إلى البحرين الى عمان الى نجران الى اليمامة الى حدود اليمن فقد تبعت السلفية (٢٨).

٤ ـ ضعف السلطان العثماني في

منطقـة الخليج العـربي «ولما زاحمتهم الروم ببلاد الشمال وحاربوها.. وضعفت دولتهم عن مقاومة اجناس الروم وشغلوا بحربهم استبد على السلطان العثماني ملوك العجم وكل واحد منهم ضبط اقليمه وقطع نظره عن العثماني وعن الباشا الذي يأتي من عنده، ولم يبق الا ذكره في الخطبة ورسمه على السكة.. والممالك البحرية وممالك العرب وكل الممالك التى ذكرنا في بلاد العجم فقد خرجت عن ملكهم» (٢٩).

٥ ـ تحريض السلطان العثماني لوالي مصر محمد علي على محاربة السلفيين: «قلت وهذه البلاد كلها استتبعت السلفية.. وقد بلغنا ان والي مصر من امراء الدولة العثمانية تصدى لهذا المسمى وقام له بخيله ورجله ومهد درب الحجاز وعمر الحرمين بجنده وهيأ له جرائد من العساكر تبعده الى اقصى بلاده واخرجوه عن قرار عزمه والامور مستمرة على ذلك» (٣٠).

الهوامش

١ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٢٩٣
٢ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٢٩٧
٣ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٤ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٥ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٦ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٧ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٤٩٢
٨ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٩ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٠ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١١ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٢ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٣ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٤ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٥ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٦ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٤٩٤
١٧ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٢٩٧
١٨ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٢٩٧
١٩ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٠ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٣٤٦
٢١ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٢ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٣ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٤ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٥ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٦ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٧ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٨ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٣٥٥
٢٩ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٣٥٥
٣٠ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٣٩٤

عدن
والمطامع البرتغالية في القرن

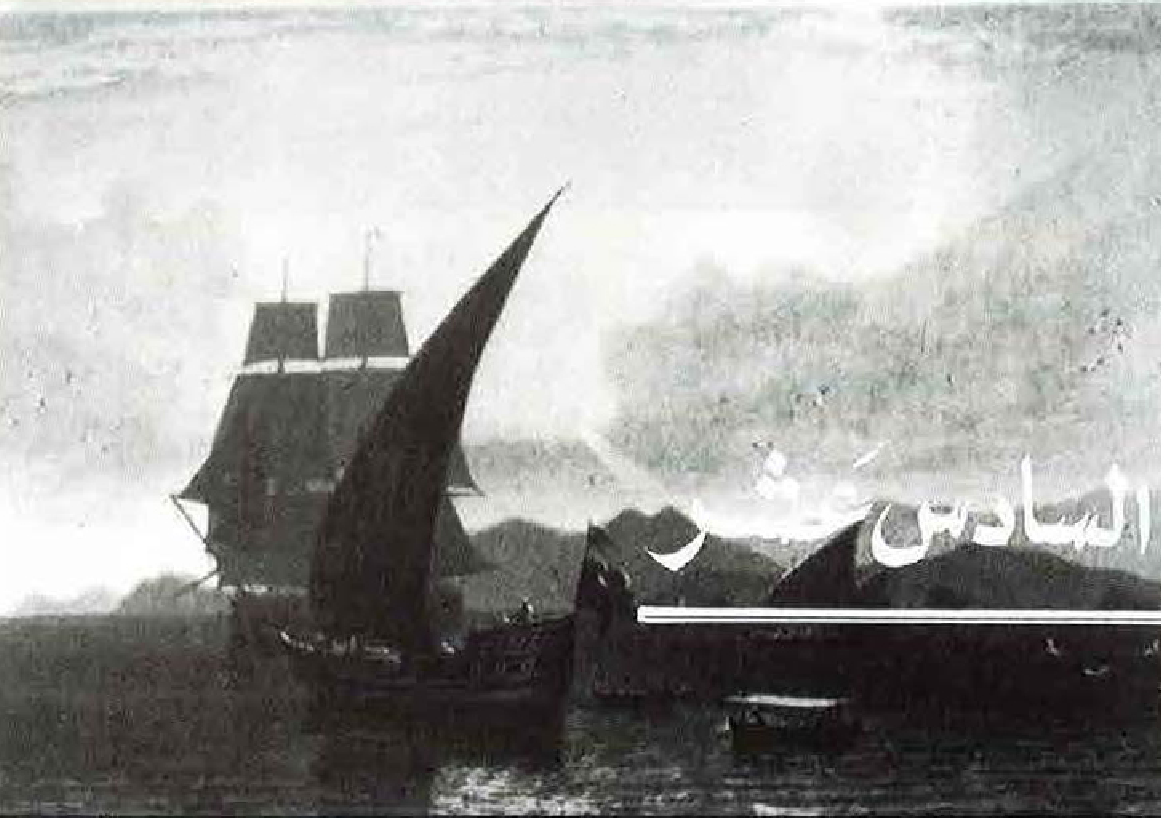
بقلم : محمد عبدالحسين عبود الحلي ـ العراق

كان نجاح الاسبان والبرتغاليين فى حروبهم الصليبية التى شنوها على العرب المسلمين فى الاندلس خلال القرن الخامس عشر والتى انتهت بتصفية معاقلهم فى تلك البلاد حافزا لمتابعة حربهم الصليبية ضد المسلمين لا فى الاندلس وشواطىء المغرب العربى فحسب بل فى معاقلهم البعيدة فى الشرق. لتنفيذ مخططهم الصليبي الذى كان يهدف الى الوصول لمملكة القديس يوحنا المسيحية فى شرق افريقيا ويعنون بها الحبشة ـ للتعاون معها فى شن حرب على المسلمين فى تلك المناطق وطعنهم من حيث لا يتوقعون(١) .

ويمكن القول ان البرتغال كانت من اوائل الدول الاوروبية التى مخرت سفنها عباب البحر الاحمر والخليج العربى فى طريقها الى الهند موطن الثراء مستهدفين القضاء على توسط المسلمين والبنادقة فى نقل التجارة منطلقين الى تأسيس امبراطورية استعمارية فيما وراء البحار مدركين ان ذلك لا يتم الا بالقضاء على النفوذ الاسلامى فى البحار الشرقية(٢) .



ومنذ ان تم لهم اكتشاف الطريق الجديد الى الهند عبر رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٢م فقد عززوا احتكارهم لتجارة الشرق لسيطرتهم على العديد من الجزر الواقعة على امتداد شواطىء افريقيا واسيا وخاصة بعد ان برزت لهم اهمية ميناء عدن كقاعدة هامة على الطريق البحرى الى الهند، وافضل نقطة استراتيجية يمكن من خلالها السيطرة على حركة المرور فى البحر الاحمر(٣) .



تعرضت عدن خلال النصف الاول من القرن السادس عشر لكثير من الضغوط الاستعمارية البرتغالية التى استهدفت احتلالها والسيطرة عليها لما كانت تتمتع به من اهمية استراتيجية وتجارية واصبح امر السيطرة على عدن وانهاء دورها جزءا من مخططات السياسة البرتغالية المقبلة(٤) والظاهران البحر الاحمر كان اكثر اغراء للبرتغاليين لانه يؤدى الى الاماكن الاسلامية المقدسة ولتثبيط همة المقاومة الاسلامية فى الهند ومن جهة اخرى كان البرتغاليون يريدون ان يقطعوا سبيل الاتصال ما بين مسلمى الهند ودولة المماليك فى مصر لاسيما وان المماليك لحقهم ضرر اقتصادى نتيجة اكتشاف رأس الرجاء الصالح(٥).

ادرك المصريون خطورة تسرب النفوذ البرتغالي فى الهند وفى نفس الوقت كانت تراودهم نفس الاطماع التى كانت تراود البرتغاليين فى احتلال عدن وشعروا بالمنافسة البرتغالية على تجارتهم(٦). وخاصة بعد وصول البرتغاليين الى عدن فى سنة ١٥٠٣م واستمروا يترددون على المدينة يدرسون ويحللون احوالها السياسية والاقتصادية والعسكرية. وفى سنة ١٥٠٤م وصلت الى ميناء عدن عدة سفن حربية برتغالية واسرت سفينة عربية وقتل البرتغاليون بحارتها بطريقة قاسية(٧) وفى سنة ١٥٠٥م تمكن البرتغاليون من تثبيت اقدامهم على سواحل الهند حينما اسسوا بها حكومة يرأسها نائب الملك (دلميدا) فى سنة ١٥٠٥(٨).

وفى سنة ١٥٠٦ نجح البوكيرك فى الاستيلاء على جزر كوريا موريا وجزر هرمز وبعض موانىء الخليج العربى مما جعل

الملك (عمانوئيل) يسند الى البوكيرك منصب نائب الملك فى الهند سنة ١٥٠٩[٩] وصارت الامدادات ترد عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين اسرا ونهبا ويأخذون كل سفينة غصبا الى ان كثر ضررهم على المسلمين وعم اذاهم على المسافرين[١٠] .

ويقول ابن الديبع عن اعمالهم تلك قويت شوكة المفسدين فى (قطع) طرق المسلمين فى البحر بطريق الهند وهرمز وكان اعظمهم ضررا طائفة لافرنج (البرتغاليون) فانهم فعلوا بالمسلمين الافاعيل واخذوا كل سفينة غصبا واستحلوا دماء المسلمين واموالهم ونساءهم واولادهم وفعلوا المنكر عيانا واستمروا على ذلك زمانا فبعث اهل مدينة عدن الخبر الى السلطان (قانصوه الغورى) يستغيثون على الفرنج[١١] كذلك بعث مظفر شاه سلطان كجرات الى السلطان يطلب المساعدة منه ويطلب العدد والالات والمدافع لدفع ضرر الافرنج ولم يكن.. اهل الهند اذ ذاك يعرفون المدافع والبندقيات يومئذ)[١٢] .

فاراد المماليك الدخول فى معركة حاسمة مع البرتغاليين لاثبات وجودهم فى البحر الاحمر والمحيط الهندى وادرك المصريون انه لابد لهم من مراكز تجارية وعسكرية لتعزيز حملاتهم المنتظرة مع خصومهم البرتغاليين والمركز الذى كانوا يرمقونه هو (عدن) وخاصة بعد تسرب النفوذ البرتغالي اليه[١٣] .

وضع المماليك خطتهم فى مواجهة البرتغاليين على اساس يهدف الى القضاء على المراكز البرتغالية فى الهند، باعتبار ان القضاء على تلك المراكز سيؤدى الى تهاوى المواقع البرتغالية الاخرى وقد وضعت الخطة موضع التنفيذ بالتعاون مع الامراء الهنود واستطاع الاسطول المصرى من احراز انتصار جزئى على البرتغاليين فى عام ١٥٠٨م وظلت الحرب سجالا بين الطرفين الا ان المصريين لم يكونوا فى مستوى البرتغاليين من حيث القوة العسكرية والدراية البحرية، حيث تمكنت القوات البرتغالية من ان تحقق انتصارا بحريا هاما على المماليك فى معركة (ديو) المشهورة عام ١٥٠٩ ونقل البوكيرك مقره من (كنانور) على الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الهند الى (جوا) على ساحل (مليبار) المطل على بحر العرب لينظم القرصنة البرتغالية ضد الملاحة التجارية العربية[١٤] . فراح البرتغاليون يطاردون السفن العربية فى المياه الافريقية وجعلوها غير قادرة حتى على الحركة فى الخلجان الافريقية الصغرى. وكان نصيب السفن اليمنية الجنوبية من تلك المطاردة العنيفة اكثر من نصيب السفن العربية الاخرى[١٥] .

واستمر البرتغاليون باخضاع السواحل الهندية الغربية فبأنقضاء سنة ١٥١٠م كانوا قد احتلوا اقليم (كوهين) واقليم (كاليكوت) بعد ان نهبوا واحرقوا المدينة واقليم (جوا) التى كانت تحكمها اسرة هندية مسلمة وقد قتل البرتغاليون جماعة من المسلمين كانت تؤدى صلاة الجمعة فى جامع (جوا) وابتدأوا يعدون العدة لغزو (عدن) التى كانت خاضعة للدولة الطاهرية اليمنية

على عهد الملك الظافر عامر بن عبدالوهاب (الطاهرى) وكان حاكم عدن هو (مرجان الطاهرى) وهو نائب بنى طاهر[١٦] .

وفى سنة ١٥١٣م عاود البرتغاليون الكرة بادئين بالبحر الاحمر ولكنهم كانوا يصطدمون دائما بالبحرية المصرية وفى تلك الاثناء حدث اتصال بين الحبشة والبرتغال بهدف ايجاد جبهة متحدة ضد المسلمين وبخاصة ضد المماليك[١٧] .

فتحركت من ميناء (جوا) الهندية عشرون سفينة برتغالية وهندية تحمل ألفا وخمسمائة جندى برتغالي وثمانمائة جندى تحت قيادة البوكيرك وهاجمت تلك القوة عدن ولكنها وجدت مقاومة عنيدة[١٨] . ووجدوا ان مرجان الطاهرى قد ركز دفاعه على طول السور المواجه لشاطىء (صبرة) واقام المدافعين على الحصون والابراج والاسوار، ومضى يومان دون ان تعرف عدن النوم وصمم اهلها على الدفاع واختلط اهل عدن بالبرتغاليين والتحموا معهم فى معركة هائلة، فاضطر البوكيرك الى الانسحاب وامر جنوده بالعودة الى السفن وكانت مذبحة من اعظم ما عرفت شواطىء عدن، سالت فيها دماء البرتغاليين بغزارة[١٩] وعند خروج البوكيرك من ميناء عدن حاول اطفاء نار الهزيمة المتأججة فى صدره باحراق اربع سفن عربية كانت راسية فى ميناء عدن[٢٠] .

ويصف ابن الديبع ما فعله البرتغاليون بعدن واهلها حيث يقول (وضربوا المدافع ونشروا الاعلام وفتحوا الحرب على مدينة عدن ولم يقعوا على طائل لتحصين البلاد وخبرة اهل عدن بالحرب فضربوا المدافع على عدن وصدعوا بعض البيوت وقتلوا جماعة فى الاسواق واحرقوا ما جاورهم من المراكب بالساحل ثم نزلوا الى الساحل ليلا وقد استعد اهل عدن بسلاحهم ورجع الافرنج بالجرحى منهم الى مراكبهم فمات اكثرهم وانقطع رجاهم على المدينة وكانت مدافع المسلمين تتلف لهم كل يوم سفينتين او ثلاثة فابتعدوا بعد ذلك الى حيث لا تصلهم مدافع المسلمين ثم توجهوا الى طرق الهند مكسورين مخذولين مدحورين[٢١] .

لقد كان انتصار أهل عدن ضربة شديدة لهيبة البرتغاليين البحرية والعسكرية فى المنطقة اذ كانت هزيمتهم فى عدن اول هزيمة كبرى يمنون بها منذ انتصاراتهم المتلاحقة على حكام الاقاليم الصغيرة فى شرق افريقيا والهند .

ولكى يمسح البرتغاليون عار الهزيمة او يخففوا على الاقل وقعها فى نفوس الهنود والعرب راحوا يعززون من مراكزهم العسكرية والتجارية فى المنطقة تأكيدا لقوتهم ونفوذهم . [٢٢] .

وعلى الرغم من ان السيطرة على التجارة الشرقية ومصادرها قد تمت لهم فان البرتغاليين كانوا يشعرون باهمية عدن فراحوا يعدون العدة للانتقام من عدن والعدنيين وكانت عيونهم طوال الوقت مفتوحة على ما كان يجرى فى عدن وفى المناطق المجاورة لها. وقد ازداد خطرهم بعد وفاة البوكيرك عام ١٥١٥ وتحالفوا مع الحبشة لاعلان الحرب المشتركة ضد المماليك فقاموا بهجوم على ميناء جدة التى اصبحت قاعدة المماليك فى البحر الاحمر[٢٣] .

وفى سنة ١٥١٦م وصلت الى عدن قطع من الاسطول المصرى بقيادة سليمان باشا الخادم بناء على رغبة السلطان (قانصوه الغورى) لاحتلال عدن، وتوالى وصول سفن الاسطول المصرى الى عدن إلى ان بلغ عدد قطعة سبعا وعشرين سفينة ولكن قلعة عدن صمدت امام هجمات المصريين فتراجع المصريون امام صمود العدنيين وبفضل المدد العسكرى الذى تلقاه الامير مرجان الطاهرى من تعز ومن الشحر ولكن تحصينات عدن العسكرية تعرضت لتخريب ليس بالهين، كما قتل جنود كثيرون من حاميتها من جراء الحملة المصرية(٢٤) .

ويقول النهروالى عن تلك المعركة (لقد رموا حصن المدينة بالمدافع ورموا اكثر دوره) ولم يقدروا على اخذه وخرج اهل عدن ووقعت معركة كبيرة جرح فيها سليمان باشا ثلاث جراحات ثم وقعت حروب اخرى وكانت الحرب سجالا فوصل من (تعز) اخو عامر بن عبدالوهاب بعسكره ودخل عدن فايس العسكر المصرى من اخذ عدن فاخذوا ما وجدوا حول عدن من المراكب وركبوا سفائنهم(٢٥) .

وفى نفس العام تقدم البرتغاليون بقيادة (سواريز) من الممتلكات البرتغالية فى الهند باسطول حربى الى البحر الاحمر يتكون من سبع وعشرين سفينة تحمل الفا ومائتى برتغالي وستمائة هندى فاتجه الى عدن فوجد مواقعها الدفاعية قد تخربت بعد المحاولات المصرية لغزوها ولما راي الامير مرجان الطاهرى انه عاجز عن مقاومة البرتغاليين اغتبط القائد البرتغالي لذلك ولم يشك فى نوايا الامير مرجان فى السماح باتخاذ عدن قاعدة للبرتغاليين لحين عودته من مطاردة الاسطول المصرى ولما عاد (سواريز) لعدن وجد ان الامير مرجان قد اغتنم فرصة انشغال البرتغاليين مع المصريين فجدد تحصين عدن(٢٦) واستمرت الحرب عنيفة بين المصريين وبين الطاهريين من جهة وبين المصريين والبرتغاليين من جهة اخرى، مما اضعف قوة المماليك وجعلهم يتراجعون امام العثمانيين نحو البحر الاحمر حتى تمكنوا من دخول مصر سنة ١٥١٧(٢٧) .

هنا بدأت صفحة طويلة من الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين وبدأت الدولة العثمانية تتجه الى البحار الشرقية لانها كانت تشكل بالنسبة لها منطقة استراتيجية هامة لكونها منطقة متصلة بحدود دولتها الجنوبية(٢٨) وحاول كل طرف الاستيلاء على جنوب اليمن (عدن) ليفرض كلمته على الشرق وينفرد باستغلال موارده(٢٩) .

فالموقع الاستراتيجي لليمن من العوامل التى برزت اهميتها فى تحقيق الاهداف العثمانية الدفاعية والتوسعية. فلقد جعلها هذا الموقع الممتاز وتلك الحدود التى تطوق جنوب الجزيرة العربية منطقة دفاع هامة عن حدود الامبراطورية العثمانية فى الجنوب، فسيطرتهم على اليمن جعلتهم يحافظون على سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز والتحكم فى البحرين (الاحمر والعربى) وامتلاك موطىء قدم صالح للوثوب على البحرية البرتغالية فى البحار الشرقية وتطويق اعدائهم الصفويين فى ايران من الجنوب وتحقيق احلامهم بمد سيطرتهم شرقا الى اقاصى العالم الاسلامى(٣٠) .

وازداد التنافس حدة في البحر الاحمر خاصة والبحار الشرقية عامة بعد ان اصبح العثمانيون ورثة الحكم المملوكي بكل مشكلاته وظهرت روح التنافس واضحة من خلال ما اعلنه حكام كل من الدولتين من تصريحات واضحة فقد اكد الملك البرتغالى (عمانوئيل الاول) انه أسد غينيا والفتوحات والملاحة والتجارة في الحبشة والجزيرة العربية وايران والهند «كما اعلن السلطان (سليم الاول) بعد الاحتلال العثماني لمصر سنة ١٥١٧ : (والان فان كافة مناطق مصر وحلب وسورية ومدينة القاهرة ومصر العليا والحبشة واليمن والحجاز ومدن مكة والمدينة والقدس وجميع الاراضى حتى حدود تونس قد اضيفت الى الامبراطورية العثمانية)[٣١] .

على ان البرتغاليين واصلوا جهودهم لتنفيذ خططهم في البحر الاحمر فقد هاجموا ميناء جدة سنة ١٥٢٠م وفي هذه السنة مات الملك عمانوئيل، وتوفى ايضا الامير مرجان الظاهرى حاكم عدن واستمر البرتغاليون بالاغارة على المناطق العربية . ففى سنة ١٥٢١م قاموا بهجوم على عدن وكذلك قاموا بمهاجمة ميناء الشحر اليمنى عام ١٥٢٣م ثم ضربوا عدن بالمدافع عام ١٥٢٥ وهم في طريقهم الى ميناء (مصوع) ولكن لم يتحقق للبرتغاليين اى هدف في ذلك الحين[٣٢] .

ولهذا فضل البرتغاليون اخيرا عقد معاهدة جديدة مع حاكم عدن عام ١٥٣٠ ونصت هذه المعاهدة على اعتراف عدن بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الجزية السنوية لهم وذلك نظير اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة لسكان عدن ولكن بشرط عدم توجههم الى جدة ولكي يضمن البرتغاليون تنفيذ هذه المعاهدة تركوا في ميناء عدن احدى سفنهم وقوة قوامها اربعون برتغاليا ليشرفوا على الميناء وعلى ايراداته المالية[٣٣]

وقد اثارت هذه المعاهدة غضب اليمنيين على حاكم عدن، غير ان حجته تركزت دائما في حرصه على عدم تعرض عدن للاحتلال الكامل من قبل البرتغاليين المتفوقين حربيا من جهة وفي خشية هجوم العثمانيين عليها من داخل اليمن او من ناحية البحر من جهة اخرى[٣٤] .

المراجع

١ ـ وليد محمد جرادات : الاهمية الاستراتيجية للبحر الاحمر بين الماضي والحاضر ط ١ ، دار الثقافة ، ١٩٨٦ ، ص ٨٩ .

٢ ـ د . طارق نافع الحمداني : دور مصر واليمن في مقاومة الغزو البرتغالي للبحر الاحمر والمحيط الهندى في اوائل القرن السادس عشر مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد الثاني عشر، بغداد ، ١٩٨٣، ص ٢١٨ .

٣ ـ حمدى لطفى : الثورة جنوب اليمن ، ص٦٨ ، كذلك انظر جرادات مصدر سابق ، ص ٩٥ .

٤ ـ الحمدانى : عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين خلال النصف الاول من القرن السادس عشر، مجلة دراسات الخليج العربى، العدد الثانى والاربعون، السنة الحادية عشرة، ١٩٨٥، ص ١٦٩ .

٥ ـ د . مصطفى العقاد : التيارات السياسة في الخليج العربى، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص١٤ .

٦ ـ محمد عبدالقادر بومطرف : الشهداء السبعة، دار الحرية للطباعة، بغداد ، ١٩٧٤، ص٥٠ .

٧ ـ حمزة على لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة القاهرة، ١٩٦٠، ص١١٥ .

٨ ـ العقاد : مصدر سابق، ص١٦ .

٩ ـ نفس المصدر والصفحة. كذلك لقمان : مصدر سابق، ص١٠٩

١٠ ـ قطب الدين محمد بن احمد النهروالي : البرق اليمانى في الفتح العثمانى، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٧، ١٨٥ .

١١ ـ عبدالرحمن بن على بن محمد بن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد في اخبار زبيد، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، الكويت، ١٩٨٣، ص٢٠٣ .

١٢ ـ النهروالى : مصدر سابق، ص١٩

١٣ ـ بومطرف/ مصدر سابق، ص٥٠

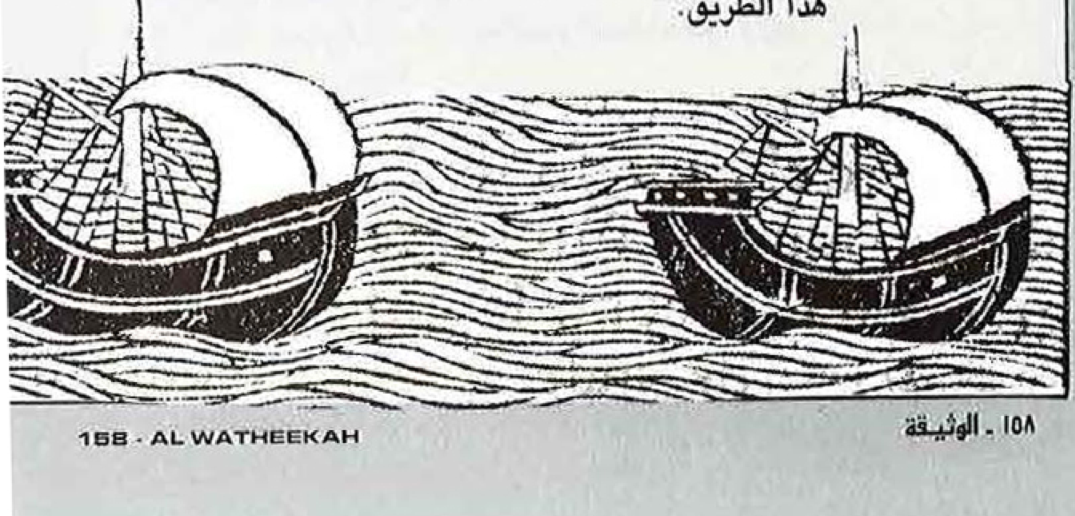
١٤ ـ العقاد : مصدر سابق، ص١٧

١٥ ـ بومطرف : مصدر سابق، ص٤٧

١٦ ـ نفس المصدر والصفحة
١٧ ـ العقاد : مصدر سابق ص١٨
١٨ ـ بومطرف : مصدر سابق، ص٥١
١٩ ـ لقمان : معارك حاسمة من تاريخ اليمن، ط١ ، مركز الدراسات اليمنية صنعاء، ١٩٧٨، ص١١٢ ..
٢٠ ـ بومطرف : مصدر سابق ، ص٥١
٢١ ـ ابن الديبع : مصدر سابق، ص٢٦٤
٢٢ ـ بومطرف : مصدر سابق، ص٥٢
٢٣ ـ د. فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر (١٨٣٩ ـ ١٩١٨) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦ ، ص٤٦
٢٤ ـ بومطرف : مصدر سابق، ص٥٤
٢٥ ـ النهروالي : مصدر سابق : ص٢٥
٢٦ ـ لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، ص١٢٣ ، كذلك انظر لقمان : معارك حاسمة من تاريخ اليمن ، ص١٢٣.
٢٧ ـ عبدالوهاب القيسي : موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية، مجلة الخليج العربي، م١٢ ، العدد الاول، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة ١٩٨٠ ، ص٤٥ .
٢٨ ـ مصطفى عقيل الخطيب : التنافس الدولى في الخليج العربى (١٦٢٢ ـ ١٧٦٣) بيروت، ١٩٨١ ، ص٢٨ .
٢٩ ـ جلال يحيى : العالم العربى الحديث، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦ ، ص٨٢ ،
٣٠ ـ فاروق عثمان اباظة : الحكم العثمانى في اليمن (١٨٧٢ ـ ١٩١٨) القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص١٢ .
٣١ ـ القيسى : مصدر سابق، ص٤٧
٣٢ ـ اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر، ص٤٧
٣٣ ـ نفس المصدر : ص٤٨
٣٤ ـ نفس المصدر : والصفحة .

الرّحالة البرتغاليّون في خلال القرنين السّادس عشر

ظل العرب والمسلمون يسيطرون على التجارة ما بين الشرق والغرب حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، وذلك عبر طريقين رئيسيين هما: طريق البحر الاحمر ومصر، وطريق الخليج العربي وبلاد الشام، وكلاهما كان تحت هيمنة العرب. وكانت المشكلات والخلافات السياسية التى تنشب احيانا تؤدي الى اغلاق احدهما او كليهما، وحينما يغلق الطريقان في وقت واحد فان مدد البضائع الشرقية كان ينقطع عن اوربا الا بالقدر الذي يمكن فيه سلوك طريق وعر غير مأمون عبر آسيا الوسطى. (١) وكانت المدن الايطالية، بخاصة جنوا والبندقية، هي اكثر الدول الاوربية استفادة من تجارة الشرق، اذ كانت تحتكر توزيعها في مختلف أنحاء القارة الاوربية، مما جعل أسعارها تتزايد باطراد، فكثف ذلك الجهود لاكتشاف طريق غير مطروق يصل الى الهند، وكانت دولة البرتغال الصغيرة الواقعة على المحيط الاطلسي هي الدولة التي كرست نفسها في البحث عن مثل هذا الطريق.



الخليج العربي والسّابع عشر



الرحّالة البرتغاليون الأوائل وأهداف السّياسة البرتغالية

بقلم: الدكتور طارق نافع الحمداني

اتجهت انظار البرتغاليين نحو الشرق منذ أوائل القرن الخامس عشر، الا أن اندفاعهم بنجاح ناحيتي الشرق والغرب لم يتم الا في اواخر هذا القرن، وذلك على أيام ملكهم المسمى جون الثاني ١٤٨١ ـ ١٤٩٥. إذ كان هذا الرجل متشوقاً لنشر المسيحية

وتوسيع رقعتها، وارتياد طريق تجاري جديد نحو الهند، واكتشاف الاراضي التى يجلب منها الفلفل والقرفة وشتى انواع التوابل [٢] وعلى اساس هذه الاعتبارات ارسل ملك البرتغال العديد من الحملات البحرية والبعثات السرّية، وكانت اولى تلك الحملات ما قام به بارثلوميو دياز عام ١٤٨٦، والتي دار فيها حول الطرف الجنوبي من افريقيا، واعقبتها حملة فاسكودي جاما عام ١٤٩٧ التي قادت البرتغاليين الى الهند. وما أن حل القرن السادس عشر حتى كان البرتغاليون يسيطرون على الطرق التجارية البحرية ما بين الشرق والغرب دون منازع، وانتهجوا في هذا المضمار الاساليب المختلفة لاحتكارها. من ذلك أن البرتغاليين أصبحوا يأملون بعد افتتاح الطرق البحرية الى الهند، مروراً برأس الرجاء الصالح، أن تتحول مجمل التجارة الشرقية الى ايديهم. وكانت الخطوة الاولى التي قاموا بها هي التمركز في سواحل الهند، ومن ثم قرروا القيام بمراقبة حركة النقل التجارية في الخليج العربي، حيث انشأوا عدداً من القلاع الحربية في هرمز والبحرين وعمان، كما حاولوا اغلاق مدخل البحر الاحمر للغرض نفسه [٣] وبعد ان اطمأن البرتغاليون الى استحواذهم الكامل على طرق التجارة البحرية، راحوا يعملون على إعاقة حركة النشاط التجاري عبر الطرق البرية التي كانت ما تزال قائمة بين بعض المراكز التجارية في الخليج العربي والبحر الاحمر وتلك الواقعة على البحر المتوسط، بطرق برية بحرية مشتركة. [٤]

ومن الطبيعي فان هذه السياسة التجارية الهادفة الى تقوية حركة النقل التجاري بحراً باتجاه لشبونة، على حساب الموانىء الموجودة في الشرق العربي، سببت معاداة القوى القائمة آنذاك، ونقصد بذلك المماليك ومن بعدهم الاتراك العثمانيين. وقد جعلت هذه العداوات امكانية استمرار الترحال عبر الاراضي العربية أمراً محفوفاً بالخطر خلال القرن السادس عشر. [٥]

وساندت الجهود البحرية البرتغالية جهوداً اخرى اتسمت بالسرية لجمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق، وطرق هذه التجارة عبر الاراضي العربية، وانواع البضائع الشرقية واسعارها وما الى ذلك. وقد وكل الملك باحدى هذه البعثات بدرو دي كوفلهام Covilham والفونسو دي بايفا وكان كوفلهام هذا يجيد عدة لغات ومنها اللغة العربية منذ أن كان أسيراً فى المغرب وحدد الملك مهمة هذين الرسولين فى ثلاث نقاط هى : جمع المعلومات عن الحبشة التى كانت تعرف فى أوروبا حينئذ باسم مملكة القديس جون أو يوحنا Prester John، ومعرفة المصادر الاصلية للتوابل، ومعرفة طرق التجارة عبر الاقطار العربية حتى تصل الى البندقية. [٦] وقد اقلع هذان الرجلان سنة ١٤٨٧ عن طريق برشلونة، نابولي، ورودس الى القاهرة بعد ان إرتديا زي التجار، وهناك تمكنا من ان يندسا بين جماعة من التجار المغاربة الذاهبين الى الطور على البحر الاحمر، واتجها نحو سواكن وعدن. وفي عدن انفصل كوفلهام وبايفا عن بعضهما البعض، حيث اتجه الثاني الى الحبشة ولكنه توفي بعد قليل، بينما واصل كوفلهام سيره نحو الهند فوصل الى كنانور وكلكتا وغوا (جوا) مستقصياً أينما حلّ عن التوابل. ومن هناك سافر كوفلهام مع طائفة من التجار العرب إلى هرمز - كبرى المستودعات لتجارة الشرق. وبعد أن أحيط علما بالتجارة التي تجري في هذا

الميناء المزدحم بالاعمال ابحر الى عدن ثم زيلع فسفالا ومنها عاد الى القاهرة. (٧)

وبينما كان كوفلهام على وشك الرحيل الى البرتغال توجه لمقابلته يهوديان (٨) هما ابراهام دي بيا ويوسف لاميجو، وقد سلماه تعليمات جديدة من حكومة البرتغال عن مهمته الجديدة. وسلم هو احدهما تقريره الطويل عن رحلته السرّية لتوصيله الى البرتغال، بينما اصطحب الثاني الى هرمز ليكتب بدوره تقريرا آخر عنها نظرا لاهميتها التجارية الكبيرة، على أن يتوجه بعدها الى الحبشة لكتابة تقرير خاص عنها. ونجح كوفلهام في القيام برحلة جديدة، فاتجه الى هرمز مع زميله الجديد ثم عاد الى جدّة، ومكة والمدينة، فسيناء، وعن طريق الطور ابحر الى عدن ومنها الى زيلع ثم توغل داخل الحبشة حيث قابل النجاشي، الا انه حكم على كوفلهام بأن يبقى في الحبشة طيلة حياته، إذ لم يسمح له بمغادرتها بعد مقابلة النجاشي وذلك طبقا لخطة الحذر الحبشية بحجز من يزورها من الاجانب. (٩)

وهكذا استطاعت هذه البعثة الحصول على البيانات الخاصة بالتجارة الشرقية من حيث حجمها وفئاتها وما الى ذلك. ويبدو انها حصلت على خرائط عربية عن المحيط الهندي ومعلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية في هذا المحيط، وليس أدل على ذلك مما جرى اثناء مقابلة كوفلهام لفرانسيسكو الفاريز الذي مثل بلاده في الحبشة من ١٥٢٠ إلى سنة ١٥٢٦، حيث استفسر من الاخير عما إذا كان للخرائط التي أرسلها مع المبعوث اليهودي المشار اليه أعلاه من ثمانية وعشرين سنة بعض الفضل في تحقيق ما حققه فاسكودي غاما. (١٠) وبدون شك فان المعلومات والخرائط البحرية التي قدمها الرحالة كوفلهام ومن معه الى السلطات الحاكمة في لشبونة، كانت نعم المعين في تقدير الموقف والمضي قدماً في ايفاد الحملات الكشفية الجغرافية ابتغاء تحقيق الهدف الاساسي وهو الوصول بحراً الى الهند.

ومما يلفت النظر أن الرحالة البرتغاليين، المبكرين منهم او المتأخرين، قد جاءوا الى الشرق اما برفقة الاساطيل البرتغالية حيث قدموا ليشهدوا استقرار النفوذ البرتغالي، كما هو الحال بالنسبة لبيريز وباربوسا، أو انهم اوفدوا ضمن سفارات دبلوماسية الى بلاط بعض الملوك في الشرق، كما هو الحال بالنسبة لالفاريز وتنيريرو، وكان ذلك كله في العقود الاولى، من القرن السادس عشر، أما بعد ذلك فانه لم يرد اي ذكر لرحالة برتغالي. ولا تختلف الرحلات البرتغالية الى الشرق في القرن السابع عشر عن نظيرتها في القرن السابق من حيث طبيعة واشكال وفودها الى المنطقة حيث جاءت بصحبة الاساطيل البرتغالية او ضمن سفارات دبلوماسية، ولكنها اختلفت من حيث أهدافها العامة وذلك لاختلاف بنية الامبراطورية البرتغالية نفسها. ففي الوقت الذي جاء فيه الرحالة البرتغاليون الاوائل في ذروة قوة واستقرار النفوذ البرتغالي في الشرق، وكان عليهم ابراز هذا الجانب في مدوناتهم، فان الرحالة المتأخرين قد قدموا في فترة اضمحلال النفوذ البرتغالي بسبب منافسة قوى اوربية عديدة لهم، وتطلب منهم ذلك دراسة أسباب هذا التدهور والاضمحلال من ناحية، وتوجيه تقارير مستعجلة الى المسئولين البرتغاليين عن وصول اي دولة اوربية جديدة الى الشرق من ناحية اخرى.

وبناء على ذلك، فاننا سنقوم بدراسة

الرحالة البرتغاليين على الاسس المذكورة اعلاه، وفقا للترتيب الزمني، مبينين اهداف كل رحالة ورحلته وقيمة المعلومات التي تركها عن منطقة الخليج العربي.

تومي بيريز . Tome Pires

يعد تومي بيريز شخصية متواضعة بالمقارنة مع بعض الرجال الذين برزوا في تاريخ البرتغال بالشرق خلال النصف الاول من القرن السادس عشر. فعلى حين نال البعض شهرة لكونهم قادة عسكريين لامعين كالبوكرك، وآخرين كمحاربين وملاحين او مكتشفين، وحتى ككتاب عالميين مشهورين مثل باربوسا ـ الذي انتهى من تأليف كتابه بعد سنوات قليلة من كتاب «سوما اورينتال The Suma Oriental» لبيريز فان الاخير لم ينل شيئا من ذلك، وحتى مؤلفه قد طبع بدون أن يذكر اسمه عليه. (١١)

كاد مؤلف بيريز ان يندثر في طي النسيان، وان ينسى كونه سفيرا برتغاليا الى الصين، حيث توفي عام ١٥٤٠، بيد أن مساهمته في المعرفة المبكرة عن الشرق كانت ذات اهمية كبيرة. وبيريز نفسه كان شخصية تدعو للاهتمام، فمؤلفه «سوما اورينتال» كان قد احتوى على رواية مفصلة عن الشرق كتبت من أصل برتغالي وكان أول أوربي أيضا يكتب عن ماليزيا، وان التفصيل الذي ذكره في هذا المجال لم يبزه فيه، من عدة وجوه، اي مؤلف آخر لاكثر من قرن او قرنين. وعلاوة على ذلك، فقد كان بيريز مراقبا متشوقا ووصافا لا يمل ولا يتعب، ومع أن اسلوبه الادبي كان ضعيفا، إلا أن بيريز استطاع أن يحتل مكانا لائقا بين الكتاب الاوربيين الاوائل في الشرق. (١٢)

ووفقا لسياسة السرّية في مسألة الاستكشافات التي تابعها العرش البرتغالي منذ النصف الاول من القرن الخامس عشر، فان المعلومات المهمة عن جزر التوابل في الهند الشرقية لم يكن يسمح لها بأن تتسرب الى أي جهة أجنبية. وعلى الرغم من أن اسبانيا قد كفت عن القيام بأي ادعاءات او مطالبة بما لقا في الثاني والعشرين من نيسان عام ١٥٢٩، فان الاسبان لم يتخلوا ابدا، كما أن جواسيسهم لم ينقطعوا محاولين الحصول على معلومات حول هذا الجانب حتى عام ١٥٨٠، عندما بدأت الفترة غير السعيدة في تاريخ البرتغال، والتي اصبحت فيها تحت هيمنة الاسبان لمدة ستين سنة، باندماج العرش البرتغالي بالعرش الاسباني. ولهذا فان المعلومات التي تركها بيريز في «سوما اورينتال» قد اصبحت معروفة، ولم يعد في مخطوطة لشبونة اي شيء من المعلومات السرّية غير المعروفة. (١٣)

إن ما نعرفه عن حياة بيريز، منذ وصوله الى الهند حتى وفاته ليس أمرا نادرا، رغم انه ليس متكاملا، ولكن بالنسبة لنشأته في البرتغال فإن هناك عدداً من الاشارات القليلة الغامضة. وكل ما نعرفه عنه من معلومات قد جاء من خلال كتابه «سوما اورينتال» وعدد من الرسائل التي كانت تحمل اسمه وتوقيعه.

كان بيريز ابن شخص يمارس الصيدلة، وقد كان في الاربعينات من عمره حينما شرع بالسفر الى الهند، التي وصلها عام ١٥١١، وبقي في كنانور في الهند في السنوات التالية، وأوفد الى الصين في بعثة دبلوماسية عام ١٥١٦. (١٤)

على الرغم من أن الجزء الاعظم من «سوما اورينتال» قد كتب في مالقا، فمن المحتمل أن بيريز كان قد بدأه واتمه في

الهند. وعلى أية حال، فان «سوما اورينتال» عبارة عن تقرير بعثه بيريز الى الملك البرتغالي عمانويل، وربما هو جزء من المهمة التي كلف بها قبل رحيله الى لشبونة.

أسلوب الكتاب بعيد عن الوضوح، وقد يكون مرتبكا ومشوشا عندما يكتب المسميات والمعاني الاجنبية، بحيث يذكر أحيانا كلمات بدون معنى، بخاصة عندما تتعلق الكلمات بالاسماء او التعبيرات المحلية. على أن الصفة المميزة لكتاب «سوما اورينتال» هي انه كان مكرسا في الغالب للقضايا الاقتصادية، ولهذا فانها لم تعط الكاتب فرصة لاظهار مقدرته الأدبية. ولكن، وعلى الرغم من ان المؤلف كان يفتقر بصورة عامة الى الاسلوب الابداعي، فقد أظهر بيريز معرفة حضارية جيدة بالمنطقة التي كتب عنها وكانت له لمحات مشرقة ينطلق بها قلمه. (١٥)

تعد معلومات الكتاب ذات أهمية كبيرة لاقطار الشرق الاقصى عامة خاصة وان المؤلف كان قد عاش لمدة سنتين ونصف هناك. واذا وضعنا جانبا روايات الرحالة الاوروبيين عن المنطقة في العصور الوسطى، فان «سوما اورينتال» يعد اول كتاب يحتوى على معلومات مهمة عن تلك الاقطار والجزر الواقعة بين البنغال في الهند واليابان. وتعتبر المعلومات التي أوردها عن المناطق التى زارها بنفسه اكثر اهمية بالطبع من المعلومات الاخرى التى حصل عليها. ويعني هذا ان معلوماته عن الهند والصين اكثر اهمية من تلك التى أوردها عن الجزيرة العربية ومصر وفارس الى حدود كامبي في الهند، رغم مروره بتلك البلدان في أثناء رحلته من البحر الاحمر الى الصين. وليس هناك حاجة للتأكيد على القيمة الكبيرة للمعلومات التاريخية والجغرافية والتجارية عن جميع الاقطار والناس الذين تعرض لهم، لان هذا الامر واضح من المعلومات الغزيرة التي احتواها المؤلف.

يحتوي «سوما اورينتال» في القسم الاول منه، على معلومات مهمة عن مملكة هرمز، ونشوء الدولة الصفوية، وكل الجزر الواقعة في الخليج العربي. كما أنه يؤكد على ناحية أساسية تتعلق بهرمز، أوردها الرحالة الذين أتوا من بعده «وهي أن الماء الموجود في المدينة يأتيها في جرار من مناطق أخرى، واذا لم يأت الماء اليها، فان هرمز لاتخلو من عدد من الآبار، ولكن نوعية الماء الموجودة غير مستساغة لكثير من الناس». (١٦)

ويتطرق بيريز الى البحرين حيث يصف أنواع اللؤلؤ الموجودة فيها بقوله: «ان الجزيرة الرئيسية في الخليج هي البحرين وتمتاز بتوفر افضل انواع اللؤلؤ فيها حيث ليس له وجود في مناطق أخرى غيرها، ويشكل جزءا مهما من تجارة هرمز، ذلك لان هذا النوع من اللؤلؤ يمتاز بأنه أنصع بياضا واكثر استدارة من غيره». (١٧)

دورات باربوسا Durate Barbosa

عمل المؤلف في خدمة الحكومة البرتغالية في الهند كاتبا ومترجماً منذ عام ١٥٠٠ الى عام ١٥١٦ او ١٥١٧. وموهبته الفذة لم تكن في الترجمة فحسب بل تعدتها - كما نرى - الى الكتابة عن شعوب الشرق وممالكه.

صدر كتابه باللغة الايطالية لاول مرة في مدينة البندقية عام ١٥٦٣، وباللغة البرتغالية عام ١٨١٢. بينما صدرت اول نسخة باللغة الانجليزية بعنوان «كتاب باربوسا The Book of Durate Barbosa» وذلك في عام ١٨٦٥ من قبل مؤسسة

هاكلايت مترجمة عن النسخة الايطالية، وصدرت نسخة محققة أخرى من قبل المؤسسة المشار اليها سنة ١٩١٨، وهي النسخة التي نقوم بعرضها في هذا البحث. وتكمن قيمة الكتاب في انه أول المؤلفات البرتغالية بعد سنوات قليلة من دخولهم الى المحيط الهندي.

كان باربوسا من أسرة غير مشهورة ، وقد سافر عمه عام ١٥٠٠ الى الهند مع اسطول برتغالي وبقي هناك ، وتبعه والد باربوسا الى الهند في السنة التالية ، وربما يكون باربوسا قد صحب عمه في رحلته الأولى ، أو والده في رحلته الثانية[١٨] ومن الأدلة على سفر باربوسا مع جابرال Pedro Alraves Gabral ، وهي الأكثر احتمالا ، ان الاخير نزل على الساحل الشرقي لافريقيا في سفالة ، موزمبيق ، مومباسا ، مالندي ، ثم جزيرة سوقطرة ، ومدخل البحر الأحمر فهرمز والخليج العربي حيث جاء في مؤلفه «انه وصف كل ما شاهده في هذا الفصل» واخيرا وصل الى الهند[١٩] .

لقد عمل باربوسا مع البوكيرك بصفة مترجم ، وكان مع الأخير اثناء مقابلته لراجا كنانور . كما كلف من قبل البوكيرك بالاشراف على بناء سفينتين كبيرتين في كاليكوت ، حيث كان من المفروض ان تستخدم هاتان السفينتان في الحملة البحرية المقترحة الى البحر الأحمر بعد زيارة هرمز ، ولكن البوكيرك لم يعش لينفذ تلك الخطة . ولهذا فانه من المحتمل ان يكون باربوسا قد رافق هاتين السفينتين عند شروعهما بالرحيل من الهند الى هرمز ، وربما نزل في المدينة الاخيرة ليتعرف على انباء الحوادث الاخيرة في المنطقة[٢٠] .

عاد باربوسا الى البرتغال عام ١٥١٧ ، ومن المحتمل انه انهى مخطوط كتابه ، وربما أضاف اليه بعض المعلومات خلال عامي ١٥١٧ - ١٥١٨ . ولكن يظهر ان باربوسا لم ينل الترقية التي كان يأملها مقابل خدمته لذلك التحق بخدمة الاسبان ولاقى حتفه في احدى المهمات الى جزر الفلبين في الحادي والعشرين من نيسان ١٥٢١[٢١] .

يحتل كتاب باربوسا مكانة متميزة بين المؤلفات البرتغالية ، ذلك لأن مؤلفه عاش في اواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، وهي فترة مليئة بحركة الكشوف الجغرافية . وقد ارتحل بروح ملؤها التحري عن كل المناطق الجديدة ، ووصف المدن الرئيسية والموانيء ابتداء من رأس الرجاء الصالح وحتى الهند .

كتب باربوسا مقدمة دقيقة عن الدوافع لرحلته وغرض تأليفه الكتاب والطريقة التي جمع ودوّن فيها معلوماته ، حيث يقول : «انني رجل من مدينة لشبونة ، وقد قضيت الجزء الأكبر من حياتي في الابحار في البحار الشرقية ، واكتشفت باسم صاحب الجلالة (أي ملك البرتغال) ، كما سافرت على اليابسة وعبر مناطق عديدة مختلفة تقع على تلك البحار ، وقد رأيت وسمعت اشياء لم يسمعها أحد من اسلافي ، وقد اعتزمت كتابتها لأجل ان تكون لصالح كل الناس ، رغم انني ارى تلك الاحداث واعلمها يوما بعد يوم ، محاولا ان اباشر في كتابي هذا بالمدن وحدود تلك الممالك التي زرتها أو التي علمت عنها من اشخاص موثوقين ، مبينا ما

هي الممالك الاسلامية وما هي عاداتها وتقاليدها .

كما لم انس تجارة تلك الاقطار وكل انواع التجارة الموجودة فيها ، والأماكن التي تنتج بها ، والى أي المناطق تُحمل .

وفضلا عن تلك الاشياء التي شاهدتها ، فقد كان لدى الرغبة في ان استطلع الأمور من المسلمين والمسيحيين فيما يتعلق بعادات وتقاليد تلك الاقطار الذين هم أعرف بها ، وقد قارنت بصورة دقيقة الروايات بعضها بالبعض الآخر حتى خرجت منها بمعلومات وثيقة ، والتي لم يكن حتى الرؤساء من ذوي الشأن راغبين في ان يُكتب حول مثل هذه القضايا ، ولكن لما كنت مقتنعا بأن اعمل لاكتشاف الحقيقة ، فسوف لن أفشل في ذلك ، وقد انهيت كتابة هذا الكتاب في عام ١٥١٦»[٢٢] .

ويظهر ان قيمة كتاب باربوسا بصورة رئيسية في الوقت الحاضر هي جغرافية وبشرية ، تناولت اوصاف البلاد والأجناس التي مر بها وتعرف عليها ، اما اشاراته التاريخية فهي على جانب كبير من الاهمية ، ولكنه كان قد اعلن بصورة محددة بأن هدفه ليس ان يكتب تاريخا ، بقدر ما يتعرض لوصف الناس والبلاد ومنتجات الاقطار التي شاهدها[٢٣] .

لكتاب باربوسا اهمية كبيرة لشبه الجزيرة العربية عامة ولموانئها على البحر الأحمر والخليج العربي بصفة خاصة ، كما ان معلوماته عن التجارة في هذه الموانىء قد دونت بمعرفة شخصية ، وعكست بصورة واضحة طبيعة السياسة البرتغالية تجاهها ، حيث اشار اثناء حديثه عن عدن قوله : «وتتدفق هذه التجارة (أي التجارة الشرقية) الى البحر الأحمر حيث تجد طريقها عن طريق القوافل الى الاسكندرية ، ومن هناك الى ايدي السلاطين المماليك ، ولكن قدر لها خلال سنوات قليلة ان تقع بيد الاتراك ، الذين كانوا قد سيطروا على حلب ، المركز التجاري لتوزيع بضائع الخليج العربي . ولم يتمكن البرتغاليون ان يوقفوا هذه التجارة بصورة تامة كما عملوا في الخليج العربي عن طريق امتلاكهم لهرمز ، ولكنهم كانوا قادرين فقط في السيطرة وتقييد هذه التجارة الى حد ما بصورة تدريجية ، مما أفقد الاتراك واحدا من مصادر مواردهم التقليدية[٢٤] .

ولا تقل اهمية الكتاب في تعرضه لمدن الخليج العربي وموانئه . فقد اشار الى قريات بقوله : «وفيها تجارة مزدهرة ، وهنا ـ كما هو الشأن في المناطق الاخرى ـ توجد مواد غذائية كثيرة ، فضلا عن الخيول الممتازة في نوعيتها ، حيث كان التجار في هرمز يقدمون لشرائها وتصديرها الى الهند»[٢٥] .

أكد باربوسا توفر الاسماك بصورة كبيرة في مسقط ، حيث ان هناك تجارة رائجة فيها ، لانه يصطاد بشكل واسع ، ويصار الى تمليحه وتجفيفه ، ويتعامل اهل هذه البلاد بهذه المادة مع عدد من الاقطار[٢٦] وقد تطرق الى الموانىء الاخرى في الخليج حيث ذكر جلفار ـ رأس الخيمة ـ حيث يقول : «وفيها يستقر اشخاص يمتلكون اموالا كثيرة ، فضلا عن وجود ملاحين ماهرين وتجار جملة . ويوجد هناك اسماك كثيرة وكميات هائلة من اللؤلؤ ، حيث تؤلف

موردا كبيرا للبلاد نتيجة حملها الى الهند والمناطق الأخرى[٢٧] .

واشار باربوسا الى راس الخيمة بالاسم ، واورد اسماء بعض المناطق الاخرى التي تليها - ولكن بصورة غير مضبوطة ، مؤكدا ان سكانها من العرب ، وكانوا يؤكدون وجودهم خلال مطالبتهم لسكان القرى بدفع الأموال لهم ، وهم في حالة ثورة متكررة ضد ملكها (أي ملك هرمز على ما يبدو)[٢٨] .

كما تعرض بابو سا لمدينة البصرة ، وبخاصة تجارتها ، والى وجود كميات كبيرة من السلع والبضائع فيها كالتوابل والملابس القطنية التي يتم الحصول عليها مقابل كميات كبيرة من الحنطة والشعير[٢٩] ولكن من الواضح ان الأوصاف التي اطلقها باربوسا على البصرة لم تكن بصفة شاهد عيان ، وانما استمدت من أقوال مسموعة ، فلم يكن هو ولا أي برتغالي آخر ، قد زار البصرة أنذاك ، رغم ان السفن قد وجدت طريقها الى مصب شط العرب[٣٠] .

على ان اهم ما تضمنه الكتاب من معلومات هو ما اورده لنا باربوسا عن مملكة هرمز ، والمناطق التي كانت تشملها . اذ جاء عنها وعن تجارتها بحدود اربعين صفحة مطبوعة ، وتعد المعلومات عنها أكثر تكاملا حتى مما ذكره عن عدن . ويظهر بأن معلومات باربوسا عن هرمز قد استمدت من ملاحظاته الشخصية ، وهي مع ذلك ناقصة - كما سنرى - بالنسبة لمناطق الخليج العربي فيما يلي مضيق هرمز[٣١] .

على الرغم من ان باربوسا قد ادعى في مقدمة كتابه بأنه «يعمل لاكتشاف الحقيقة» ، فإنه ظل يعبر عن وجهة النظر البرتغالية الاستعمارية شاء أم أبى . ففي اثناء حديثه عن قدوم الاسطول البرتغالي الى هرمز عام ١٥٠٧ بقيادة البوكيرك ، يقول : «وقد رغب (أي البوكيرك) ان يسود السلام معهم (أي مع سكان المنطقة) في جميع القضايا ، ولكنهم لم يرضوا مما دعا البوكيرك الى شن حرب على هذه المملكة ، وبخاصة على الموانيء البحرية ، حيث تسبب في الحاق خسائر كبيرة بهم[٣٢] . فالسلام اذن من وجهة نظر باربوسا هو استسلام شعوب المنطقة لمشيئة البوكيرك ، والا فانهم لا يعبرون عن رغبة في السلام .

ويتغافل باربوسا عن بعض الحقائق التي تمس سمعة البرتغاليين من ذلك مروره السريع على حقيقة تخلي البوكيرك عن العمل في بناء قلعة هرمز الذي كان مرتبطا بخيانة بعض قادته العسكريين بخاصة جواو دانوفا Jaoo da Nova ، في حين ان الرواية التي وضعها باربوسا تضع اللوم في هذه القضية على سكان المنطقة مما دعا البوكيرك الى توجيه المزيد من التدمير للمدينة ، وذبح عددا من سكانها ، واجبرهم على الخضوع للسيطرة البرتغالية[٣٣] .

وعلى الرغم من اهمية معلومات باربوسا عن الخليج الا ان ما يتعلق منها باسماء المناطق لم يكن دقيقا وغير معروف للقاريء . من ذلك ما ذكره بالنسبة للبحرين حيث وضعها على الساحل الفارسي للخليج مع انها تقع على الساحل العربي ، وان كان قد وصف المنطقة بصورة مفصلة[٣٤] . كما لم يرد ذكر الاحساء على الشاطيء العربي في خريطة باربوسا . وهي مكان ذو اهمية كبيرة

انذاك ، في حين ان مثل هذه المناطق قد ظهرت على خريطة ريينيل Reinel التي وضعت عام ١٥١٧[٣٥] .

كما ان ضعف المعرفة الشخصية قد انسحب على رواية باربوسا حول مملكة هرمز في فارس ، اذ تضمنت قائمته بعض الاسماء التي تقع على الشاطيء العربي من الخليج ، والقائمة بمجموعها مضطربة ، وعلى غرار تلك التي تظهر في الخرائط المعاصرة يبدو انها وضعت بدون معرفة شخصية ، وان عددا قليلا منها فقط هو الذي يمكن معرفته أو تحديد مواقعه[٣٦] . فعلى سبيل المثال ، فإن باربوسا اورد اسماء بعض المناطق على الساحل الفارسي للخليج بصورة محرفة ، من ذلك Ly ma ، والمحتمل انه قصد بها Linga، وهو الميناء الذي يقع على الساحل غرب جزيرة قشم ، و Arman ، وعنى بها جمبرون أو بندر عباس وcorgam واراد بها جزيرة خارج أو خرج وما الى ذلك[٣٧] .

الفاريز وتنريرو

إذا كان بعض الرحالة البرتغاليين قد اصطحبوا الأساطيل البرتغالية مثل بيريز وباربوسا لاداء خدمات معينة ، فإن البعض الاخر منهم قد اوفدوا لاغراض دبلوماسية كما هو الحال بالنسبة لفرانسيسكو الفاريز وانطونيو تنريرو . فالاول ارسل في سفارة برتغالية الى الحبشة نزلت في مصوع ـ على الشاطيء الغربي للبحر الاحمر ـ في نيسان عام ١٥٢٠ ، ثم عادت بعد ست سنوات من ذلك ، وهي تمثل اول بعثة معروفة في اوربا تصل الى بلاط الحبشة وعادت بسلام . ذلك لان مثل هذه السفارات لم يكن يسمح لها في الغالب بالعودة الى بلادها مرة أخرى[٣٨] كما حدث لكوفلهام عام ١٤٨٧ إذ بقي في الحبشة مدة ثلاثين سنة وتوفي فيها . وقد التقى الاخير بالفاريز في الحبشة وقص عليه اخباره .

لقد ذكر الفاريز ـ كما أورد ذلك في سبب تأليفه للكتاب ـ بأنه اوفد في سفارة من قبل الملك البرتغالي عما نويل ، وقرر بانه سيدون كل ما يحدث له اثناء رحلته ، والاقطار التي يمر بها وعادات الناس وتقاليدهم وممارستهم . ولما كان الفاريز قد بقي في الحبشة ست سنوات لذلك فان ما كتبه عنها ـ كما يقول ـ قد جاء عن مشاهدة واقعية في حين ان القسم الآخر جاء عن طريق السماع من اشخاص موثوقين[٣٩] .

وفي الثامن والعشرين من نيسان عام ١٥٢٦ توجه الفاريز الى الخليج العربي على ظهر احدى السفن البرتغالية فوصله بعد شهر من اقلاعه ، حيث اقلته هذه السفينة الى ميناء مسقط مع خمس سفن برتغالية أخرى ، وذكر عند حديثه عن هذه المدينة ارتباطها بالبرتغاليين . على أن أهم ما في هذا المؤلف من معلومات ما أورده عن السفن البرتغالية في الخليج وتحركاتها ما بين مسقط وهرمز ، وبين الخليج والبحر الاحمر[٤٠] .

اما بالنسبة لانطونيو تنريرو Antonio Tenreiro ، فهو برتغالي يهودي ، أرسله الحاكم البرتغالي في الهند ، في بعثة دبلوماسية الى البلاط الفارسي بحدود عام ١٥٢٠ ، لرفع الشكوى عن بعض حالات النهب التي تتعرض لها التجارة البرتغالية في هرمز ، ومتى وصل الى هذه المدينة عن طريق البحر في مدينة غوا (جوا) في الهند[٤١] . بقي تنريرو في هرمز حوالي خمس اوست سنوات ، وفي نهاية تلك الفترة أرسل من قبل حاكم هرمز دى مندوزا de Mendoza

Christopher الى ملك البرتغال برسائل هامة عام ١٥٢٨(٤٢) .

من المعروف بأن تنريرو لم يترك رواية مكتوبة عن رحلته ولكن هناك ناحيتين أساسيتين بالنسبة له وهما :

١ ـ أنه أول رحالة اوربي استعمل الطريق الصحراوي البري (طريق البصرة ـ حلب) ، ولهذا فقد حمل معه رسالة من حاكم البصرة ، يطلب فيها الى الاخير أن يؤمن لتنريرو عبوراً أمناً عبر الطريق الصحراوي ، وقد فعل حاكم البصرة هذا بالفعل حيث وصل تنريرو الى حلب ، ومنها سافر الى طرابلس ومن هناك اقلع على ظهر سفينة ، حيث وصل الى البرتغال عن طريق ايطاليا(٤٣) .

٢ ـ يبدو أن استخدام تنريرو للطريق الصحراوي البري كان يمثل جزءاً من السياسة البرتغالية آنذاك فعلى الرغم من أن السياسة البرتغالية كانت تقوم على احتكار الطريق التجاري البحري الى الشرق وجعله مقصوراً على السفن البرتغالية ، وعرقلة النقل عبر الطرق البرية لاغراض التجارة ، الا أن البرتغاليين وجدوا أن هذا الطريق هو اكثر الطرق ملاءمة للوصول الى ممتلكاتهم في الهند وفي الخليج العربي ، باعتبار انه اقصرها واكثرها سرعة وهكذا بدأ الرسميون البرتغاليون والرحالة والتجار والمبعوثون برسائل خاصة يتخذون طريق البصرة ـ حلب عندما يتطلب الامر مواصلات سريعة(٤٤) .

الرحالة البرتغاليون المتأخرون وطبيعة السياسة البرتغالية

حدث تغير كبير في ظروف البرتغاليين في الشرق في الربع الاخير من القرن السادس عشر ، وبالتالي ظهر ذلك فيما كتبه الرحالة البرتغاليون آنذاك . إذ تعد هذه الفترة من الفترات الحرجة في تاريخ البرتغاليين في الشرق ، ذلك لأنه في عام ١٥٨٠ فقدت البرتغال استقلالها وضمت الى عرش اسبانيا في عهد الملك فيليب الثاني . ومع أن حكومة مدريد تركت للبرتغاليين ادارة ممتلكاتهم فيما وراء البحار كما كانت من قبل ، الا ان هذا الحدث شكل نقطة بداية حقيقية لأفول مجد البرتغاليين في الشرق(٤٥) .

لقد ذعر البرتغاليون من وصول قوى أوربية جديدة الى الشرق إذ كان عليهم ان يواجهوا المنافسة الحادة على الصعيدين التجاري والسياسي من جانب الهولنديين والانكليز . إذ كان الهولنديون (سكان الاراضي الواطئة) تابعين لعرش اسبانيا ، وحينما حاول فيليب الثاني سحق التجارة الهولندية باتخاذ اجراءات مشددة لوقف كل تعامل تجاري بين البلدين ، بالقاء القبض على السفن الهولندية الموجودة في المياه الاسبانية ، لم يكن للهولنديين مع الهند والشرق الا تجارة غير مباشرة من خلال لشبونة . لقد كانت سياسة فيليب أن يستثني الهولنديين من التعامل مع المستعمرات البرتغالية في الشرق ، وبدلاً من أن يحطم هذا المنع روح المغامرة لدى الهولنديين الذين ادركوا حقيقة الارباح الكبرى التي حصل عليها البرتغاليون من تجارة التوابل بوجه خاص ، أدى ذلك الى تحفيزهم على أن يقوموا باتصال مباشر مع الشرق(٤٦) . وعلى هذا الاساس أبحر الهولندي جان هيوجين فان لنشوتن Jan

Huyghen Van Linschoten الى جزر الهند الشرقية عام ١٥٨٣ ، وبقي هناك مدة تقارب ثلاثة عشر عاماً ، وجمع قدراً كبيراً من المعلومات فيما يختص بالمنتجات ذات القيمة التجارية ووسائل النقل وطرق التجارة . وحينما عاد عام ١٥٩٢ نشر ذلك واضاف دليلاً عملياً للملاحين وصف فيه الطريق من لشبونة الى الشرق والتيارات والرياح التجارية والمرافيء والجزر وما شاكلها في البحار الهندية ، مع خرائط ورسوم بيانية(٤٧) .

على ان القيمة الأساسية لما نشره لينشوتن ، هي أتاحة الفرصة للاطلاع على فساد الاستعمار البرتغالي ، ذلك الفساد الذي استغلته القوى الناشئة ، الهولندية والانكليزية ، للقضاء على البرتغاليين في الخليج والشرق الاقصى . وعندما نشرت الترجمة الانكليزية لاعمال لينشوتن عام ١٥٩٨ ، كانت بمثابة «نفخة بوق»(٤٨) لتأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية عام ١٦٠٠ ، وحملت في طياتها الدعوة لمشاركة الانكليز في مضمار التجارة ومد النفوذ الى الربوع الهندية . وعلى ذلك فقد كان لدى حاكم هرمز البرتغالي تعليمات خاصة على اثر وصول الانكليز الى منطقة الخليج في اواخر القرن السادس عشر ، تدعو لحماية المدينة من الخطر الجديد ، ذلك لان الخليج ـ على حد قوله ـ «هو المنفذ الرئيسي الذي يودون دخوله»(٤٩) .

انعكست هذه الوضعية في اعمال الرحالة البرتغاليين والمهمات التي أنيطت بهم خلال القرن السابع عشر ، فعلى سبيل المثال ، عندما أراد تكسيرا ان يعود الى البرتغال عام ١٦٠٠ ، قرر أن يعود عن طريق جزر الفلبين . ذلك لان القائد العام في مالقا كان يعتزم ارسال إحدى السفن الى الحاكم الاسباني في الفلبين تحذيراً من قدوم الهولنديين الى تلك المنطقة وبحارها(٥٠) . ومثل ذلك نجده في رحلة غودينهو عام ١٦٦٣ حيث وضع اللوم على الهولنديين لقضائهم على البرتغاليين ، عن طريق استبعادهم من سيلان ومالقا ، وحرمانهم نهائياً من تجارة التوابل . واضاف أن الضربة القاضية التي وجهت لهم ـ اي للبرتغاليين ـ كانت من قبل الانجليز الذين هاجموهم في القارة ، وساعدوا الفرس في الاحتلال النهائي لهرمز(٥١) .

بيدرو تكسيرا . Teixeira

لا يعرف إلا القليل عن بيدرو تكسيرا وذلك مما ذكره هو عن نفسه . ومن هذا القليل يبدو انه ينتمي الى احدى الأسر اليهودية البرتغالية التى كانت مستقرة على الاغلب في لشبونة ، ولكنه لم يكن يجرؤ على التصريح بديانته ، وربما لم يترب على العقيدة اليهودية . ولعله بامكاننا الاستنتاج مما رواه ، بأنه خلال الجزء الاعظم من حياته ، ومن خلال رحلاته ، كان مسيحياً ، وربما كاثوليكياً ورعاً(٥٢) . ويبدو ان تكسيرا ، وعلى غرار تتريرو الرحالة البرتغالي اليهودي السابق في القرن السادس عشر ، كان يتظاهر لبعض الوقت بأنه مسيحي لأن ذلك كان يلائم ظروف السفر في الاقطار الشرقية اكثر(٥٣) .

اما بالنسبة لوالديه ، ولادته ، وحياته المبكرة ، فيقف تكسيرا صامتاً عن ذكر اي شيء عنها ما عدا قوله بأنه في شبابه قد

كرس نفسه لدراسة التاريخ[٥٤] . أما الحرفة او التجارة التى كان يمارسها تكسيرا في اثناء ذهابه الى الشرق فهو أمر غير معروف ، ولكن يبدو بأنه كان طبيباً ومضاربا وتاجراً للجواهر ، وهو بجانب ذلك كان مؤرخاً . وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كان تكسيرا افضل بكثير في كتابة يوميات رحلته ، واعطاء الانطباعات الشخصية عنها ، مما هو في أي شيء آخر[٥٥] .

لم يذكر لنا تكسيرا أيضاً سبب توجهه الى الهند او السنة التي أبحر فيها من أوروبا الى أسيا . ولكن يستنتج مما ورد من اشارات بأنه غادرها عام ١٥٨٦ ووصلها في السنة التالية على ظهر احدى سفن الاسطول البرتغالي . ذلك لان الاسطول البرتغالي في البحر الاحمر وشرق افريقيا كان قد عانى من اندحار على يد الاتراك العثمانيين ، فأراد البرتغاليون أن يثأروا لذلك عن طريق ارسال اسطول قوي لمواجهتهم مرة أخرى . ولما علم تكسيرا بأن هذا الاسطول سيتوجه نحو هرمز ، بعد إنجاز مهمته ، حيث كانت الاوامر الصادرة الى قائد ذلك الاسطول أنذاك تدعوه لبناء قلعة في مسقط للمحافظة عليها من الاتراك لذلك قرر تكسيرا بأن يستغل هذه الفرصة لمرافقته حيث ربما لا تتاح له فرصة أخرى ، وقد حصل على أذن بذلك فاصطحب الحملة التي خرجت عام ١٥٨٧[٥٦] . وبعد انتهاء هذه الحملة توجه الاسطول البرتغالي الى الخليج العربي وألقى مراسيه في مسقط حيث أبدى تكسيرا أعجاباً كبيراً بكمية الاسماك الكثيرة التي كان يجري اصطيادها هناك ، ثم أبحر الى هرمز ولكن باستثناء ما ذكره تكسيرا عن مسقط فإنه يتغاضى عن هذه الحملة ولا يذكر شيئا عنها ولا عن مسقط ، كما هو الحال في اثناء مروره بها عام ١٦٠٤[٥٧] .

لقد ارتحل تكسيرا كثيرا في الشرق ، وعاش في الهند لمدة طويلة . لهذا يبدو ـ من استنتاجات عرضية في كتابه بأنه كان قد قضى عام ١٥٩٣ ، في الهند ثم تركها نحو هرمز حيث استقر هناك حتى عام ١٥٩٧ . ومهما يكن غرض الزيارة ، فيبدو من الواضح بأن تكسيرا كان قد كرس معظم وقته للقضايا التي تتعلق باللغة الفارسية ، ودراسة تاريخ فارس وهرمز ، والترجمة بصورة مختصرة لحوليات ميرخواند في كتابه «وصفة الصفا» ولطوران شاه في كتابه «ملوك هرمز» . وفيما يتعلق بهذا الامر ، يخبرنا تكسيرا في المقدمة التمهيدية لهذا الكتاب ، وفي اشارات اخرى في كتابه انه كان شاهد عيان للاحداث في هرمز والتي وقعت خلال إقامته فيها . كما انه ، وفي كتاب ملوك هرمز أيضاً ، يعطينا وصفا مختصراً عن الجزيرة كما بدت عليه أثناء اقامته فيها . وفي نفس هذه السنة غادر هرمز الى الهند ، وذلك بصحبة الاسطول البرتغالي الذي كان يتجه الى الشرق الاقصى على اثر توارد الانباء من الهند عن هجوم هولندي متوقع على الممتلكات البرتغالية في الشرق الاقصى[٥٨] .

عاد تكسيرا الى بلاده عام ١٦٠٠ ، وقبل أن يغادر مالقا في الهند ، كان قد عهد الى بعض أصدقائه بمبلغ كبير من المال من اجل ايصاله الى البرتغال عن طريق السفن البرتغالية الذاهبة من الهند الى البرتغال . ولكنه اصيب بخيبة أمل عند وصوله الى لشبونة وذلك لعلمه بعدم وصول المال ،

ولهذا فقد بقي هناك في انتظاره لمدة سنة ونصف دون نتيجة ، وعلى ذلك قرر العودة الى الشرق مرة أخرى ، حيث ابحر على متن أحدى سفن الاسطول الذاهبة الى الهند في الثامن والعشرين في آذار ١٦٠٤ ، فوصلها في تشرين الاول من السنة نفسها(٥٩) .

في خلال أقل من أربعة أشهر من وصوله الى الهند ، قرر تكسيرا العودة مرة اخرى الى بلاده . وبعد ان ضجر من الاسفار البحرية ، والرغبة في أن يرى مناطق جديدة ، قرر ان يقوم برحلة برّية الى اوروبا عن طريق الصحراء . ولذلك ترك جوا في التاسع من شباط ١٦٠٤ ، مبحراً على احدى السفن البرتغالية الى الخليج ، حيث وصل هرمز في السابع عشر من آذار ، ومن ثم توجه الى البصرة ، ولما كان النهر غير قابل للملاحة في هذا الوقت قرر أن يصطحب احدى القوافل الذاهبة بواسطة الطريق الصحراوي الى حلب ، هذا الطريق الذي استمر يستخدام من قبل ممثلي الوكالات السياسية البرتغالية ، القادمين من جوا الى لشبونة(٦٠) ومن سواحل بلاد الشام الى فينيسيا ، ومنها الى مدينة انتويرب ، حيث كانت نهاية رحلته . وهناك طبع كتابه عن أصل وتسلسل ملوك فارس وهرمز ، حيث تناول الجزء الاخير تاريخ مملكة هرمز وملوكها حين احتلال البرتغاليين لها ويذكر ملوكها من ١٥١٥ ـ ١٦٢٢ وعلاقتهم بالبرتغاليين . كما كتب رحلته من الهند الى ايطاليا ، وكانت وفاة تكسيرا في منتصف القرن السابع عشر على اليهودية(٦١) .

لرحلة تكسيرا التي نشرها و . ف . سنكلير وطبعتها مؤسسة هاكلايت في لندن عام ١٩٠٢ أهمية خاصة عن تاريخ الخليج ، ذلك لان الرجل مرّ بالمنطقة عدة مرات برفقة الاسطول البرتغالي . ومع ان المعلومات التي تركها هذا الرحالة عن الموانيء العربية على الخليج قليلة ، كمسقط مثلا التي مر بها ، كما ذكرنا ، الا أنه أشار الى ناحية مهمة آنذاك وهي أن أغلبية السكان على الساحل الشرقي في الخليج كانوا من العرب . واظهر كيف ان جزر «نخيلو» و«ريق» وغيرهما ، وكلها مأهولة بالعرب ، كانت ممتعضة من البرتغاليين ، وتتحين الفرصة للثورة ضدهم ، إذ قال : «ان رجال ريق لم يكونوا على صلح مع البرتغاليين ، ذلك بسبب المظالم التي كانوا ينزلونها بهم»(٦٢) .

تبرز اهمية رحلة تكسيرا في وصفة المركز للمناطق العراقية الواقعة على الطريق الصحراوي ما بين البصرة وحلب . فبالنسبة للبصرة ، المدينة الخليجية ، ترك لنا اوصافا مفصلة عن هذه المدينة والحكومة القائمة بها آنذاك ، واسطول البصرة وحاميتها ، وعن الحالة العمرانية فيها(٦٣) كما تحدث عن اسواق المدينة ، والمنتجات الرئيسية فيها ، وعن تجارتها مع مناطق الخليج العربي الاخرى(٦٤) ، وهي معلومات قلما تتوفر بمثل هذه الدقة في المصادر المحلية المعاصرة .

مانوئيل غودينهو Godinho

عاش الاب مانوئيل غودينهو ـ وهو يسوعي برتغالي ـ ما بين ١٦٣٠ ـ ١٧١٢ ، وهي الفترة التي تمثل نهاية عصر النهضة في اوروبا وبداية العصور الحديثة . واذا كان

لهذه الفترة من تأثير ، فانها قد جعلت منه ، على عكس الرحالة الأوائل شخصا يمتاز بروح حديثة ، فظهر كاتبا ذا ذكاء بارع يمتاز بالوضوح والرؤية الفلسفية الشاملة لحركة التاريخ ، ولعل هذا ما يمكن أن نلمسه في رحلته الأصلية بالبرتغالية المعنونة :

«Relations of the new route Father Mannel Godinho took from India to portugal in the year 1663»(٦٥) .

يفتتح غودينهو كتابه بمقالة رائعة عن اضمحلال الامبراطورية البرتغالية ، حيث يقول :

«ان الامبراطوريات مثل الامبراطورية الرومانية قد مضت للزوال ، والان فان الامبراطورية البرتغالية تمضي في نفس الطريق . وان الهند تقع الان في يد الهولنديين ، والى حد ما بيد الانكليز ... ان قصة الامبراطورية البرتغالية لم تنته هنا ، ولكن عصر الاستكشافات البرتغالية قد جاء الى نهايته ... لقد استطاعت امبراطوريات أخرى أن تبنى امبراطوريات اكبر من الامبراطورية البرتغالية ، ولكن يعود للبرتغاليين الفضل في الاكتشاف اكثر من اي امبراطورية أخرى تعتمد على القوة البحرية»(٦٦) .

على اية حال ، فقد قام الاب غودينهو عام ١٦٦٣ برحلة برية من الهند الى البرتغال . ولعل من المعتاد بالنسبة لغودينهو كرحالة أن يعطينا غرض رحلته ، ولكنه نكص عن ذلك ، على أساس طبيعتها السرية ، ولكنه اكد لنا بأنه «في خدمة جلالته اي الملك البرتغالي» ، والله والبشر ، وانها تتعلق بخلاص الاف من الارواح ، والابقاء على القوة البرتغالية في الهند»(٦٧) . أذن يبدو بأن رحلة غودينهو لم تكن رحلة عادية ، وان الرجل كان يحمل الى بلاده وثائق سرية هامة جداً ، ويجب أن تكون ذات أهمية سياسية ، وان لم يبح غودينهو بذلك . على ان المعلومات الاخرى التي ذكرها الرحالة في كتابه حول الاماكن التي مرّ بها قد قدمت بصورة واضحة وبارعة الايجاز ، ومن الجلي بأنها قد وضعت لغرض الاستفادة منها من قبل الحكومة البرتغالية(٦٨) .

باشر غودينهو رحلته من الهند فمر بسورات حتى وصل الى الخليج العربي . وبعد ذلك واصل رحلته الى كمبرون وكنج ومنها على ظهر سفينة الى البصرة . وكان من المفروض أن يسافر عن طريق النهر الى بغداد ، ولكنه وجد بأن ذلك يحتاج الى الانتظار لبعض الوقت ، فدفعه حماسه في إيصال الرسائل السرّية الهامة المستعجلة الى البرتغال والتي عهد اليه بنقلها ، الى اتخاذ الطريق الصحراوي والمار بالنجف والحلة وبغداد وعانة فحلب ، ومن ثم سافر الى مارسيلية فلشبونة حيث وصلها في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٦٦٣(٦٩) .

تلقى رحلة غودينهو لنا الضوء على معلومات مهمة بالنسبة لمنطقة الخليج العربي وعلى التطورات الجارية فيه . فعندما يتحدث عن كمبرون يشير الى انها تمثل مركزاً رئيسياً في الخليج ، ويحاول الفرس ان ينقلوا اليها تجارة هرمز الفخمة (٧٠) وان اكثر ممثلي الوكالات الاوروبية في المدينة هم الانكليز

والبرتغاليون، ولكن بالنظر لان الانكليز كانوا قد ساعدوا الشاه في احتلال هرمز ، فانهم يتمتعون بالاستثناءات من الضرائب الثقيلة(٧١) .

اتيحت لغودينهو اثناء بقائه هناك الفرصة لان يلقي نظرة على ما تبقى من مدينة هرمز ، حيث سرد لنا كيف أصبح البرتغاليون سادة في المدينة منذ عام ١٥١٤ ، واصبحت هرمز تحتل المكانة الثانية بعد جوا من حيث القوة والمنعة بالنسبة للبرتغاليين ، الى أن سقطت بيد الشاه عباس عام ١٦٢٢ ، وذلك بمساعدة الانكليز ، حيث قام الطرفان بطرد البرتغاليين منها ومن كل جزر وموانيء الخليج العربي ، الاخرى . كما قام الشاه عباس بتهديم كل المنشآت البرتغالية ، وأجبر الرعايا على الهجرة ولم يترك في الجزيرة غير حامية فارسية مؤلفة من ثمانمائة شخص(٧٢) .

أما بالنسبة للبصرة فقد قال عنها بأنها أعظم مركز تجاري في تلك البحار . وهي تضم حوالي مائة الف شخص من مختلف الاجناس ، وعددا هائلا من التجار ، حتى إذا جاءت مائتا سفينة الى مينائها فإن بامكانهم تفريغ حمولتها في خلال شهر على ان الحاجة الملحة بالنسبة لهذه المدينة هي الاخشاب ، إذ لا يتوفر فيها الاخشاب الصالحة لبناء السفن لافيها ولا في الساحل الفارسي للخليج ، ولهذا فان البصرة تستوردها باسعار عالية من الهند . أما حكومة البصرة ، فانها تحكم من قبل أمير عربي وراثي ، نادراً ما يدفع الضريبة والولاء للباب العالي (٧٣).

وهكذا تعكس لنا هذه الصفحات صورة عن اهم الرحالة البرتغاليين الذين زاروا منطقة الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . كما تعكس لنا صورة حية عن كثير من الوقائع التاريخية والجغرافية والبشرية للمنطقة ، التي قلما نجد لها نظيراً في المصادر المحلية . وفضلا عن ذلك فانها تكشف لنا طبيعة التطورات التي مرت بها السياسة البرتغالية خلال هذين القرنين ، وعلاقتها بمنطقة الخليج ، وحالة التدهور والانحلال التي آلت اليها ، والصور التي كان يظهر بها الرحالة البرتغاليون في تمثيلهم لتلك السياسة ، وهذا ما يعطي القيمة الحقيقية لرحلاتهم .

الهوامش

(١) ج. ج لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، طبع بمطابع علي بن علي، الدوحة، قطر، د. ت، ج١ ص ٩

(٢) المصدر نفسه، ج١ ص ص ١٠ ـ ١١ .

(٣) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، نقلة الى العربية قدري قلعجي، منشورات الفاخرية، الرياض، د. ت، ص ص ٥٧ ـ ٥٨ : انظر ايضا C.F. Beckingham, some early travels in Arabia, Journal of the Royal Asiatic Society (1946), P. 146.

(٤) Douglas Carruthers, the desert route to India (Printed in 1928 and reprinted in 1967), P. XIII.

(٥) Beckingham, OP. Cit, P. 165.

(٦) الدكتور السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥، (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٤، ص ٤٨ .

(٧) للتفاصيل انظر سونيا. ي. هاو، في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت (مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧) ص ص ١٣٦ ـ ١٥١ : ارنولد ت. ويلسون، الخليج العربي، نقله الى العربية وقدم له الدكتور عبدالقادر اليوسف (مكتبة الامل، الكويت، د. ت) ص ٢٠٣ .

(٨) من الملاحظ ان عدداً كبيراً من الرحالة البرتغاليين، كانوا من اليهود ويعود سبب ذلك لمعرفتهم باللغة العربية .

(٩) سالم، المصدر السابق، ص ٤٨ ؛ هاو، المصدر السابق، ص ص ١٥٣ ـ Beckingham, Op. Cit, P. 158

(١٠) هاو، المصدر السابق، ص ٢٢٦ .

(١١) Tome pires, the suma oriental of Tome pires an account of the East, from the Red Sea to Japan written in Malacca and India in 1512-1515, translated from the Portuguese by Armando Cortesao, London, Hakluyt Society, 1944), Vo. I, P. XVIII.

(١٢) Ibid, PP. XVIII - XIX.

(١٣) Ibid, PP. LXVII - LXVIII.

(١٤) Ibid, PP. XIX - XXI.

(١٥) Ibid, P. LXXIII.

(١٦) Pires, OP Cit, P. 19.

(١٧) Ibid.

(١٨) Durate Barbosa, the book of Durate Barbosa An account of the countries bordering on the Indian Ocean about the year 1518 A.D., translated from the Portuguese text by Mansul longworth Dames (London, Hakluyt Society, 1918), Vol. 1, P. XXXIV.

(١٩) Ibid, Vol. I, P. XXXV.

(٢٠) Ibid, Vol. I, PP. XLIV - XLV.

(٢١) Ibid, Vol. I, P. XLIX. انظر ايضاً «مجلة الوثيقة» البحرينية، العدد الاول، السنة الاولى (يوليو ، ١٩٨٢) ، ص١١٤ حيث يرد تعريف موجز باسماء بعض الرحالة البرتغاليين ورحلاتهم .

(٢٢) Barbosa, OP. Cit, Vol. I, PP. 1-2.

(٢٣) Ibid, Vol. I, P. LVIII.

(٢٤) Ibid, Vol. I, P. LXI.

(٢٥) Ibid, Vol. I, P. 70.

(٢٦) Ibid, Vol. I, P. 71.

(٢٧) Ibid, Vol. I, P. 73.

(٢٨) Ibid, Vol. I, P. 74.

(٢٩) Ibid, Vol. I, P. 89.

(٣٠) Ibid, Vol. I, P. 90 "note of the translator".

(٣١) Ibid, Vol. I, P. LXII.

(٣٢) Ibid, Vol. I, P. 101.

(٣٣) Ibid, Vol. I, P. 101.

(٣٤) Ibid, Vol. I, P. 81.

(٣٥) Ibid, Vol. I, P. 76.

(٣٦) Ibid, Vol. I, P. 75.

(٣٧) Ibid, Vol. I, P. 77.

(٣٨) Francisco Alvares, the Prester John of the Indies, being the narrative of the Portuguese embassy to Ethiopia in 1520, ed. by C.F. Beckingham and G.W.B. Huntingford, Cambridge, Hakluyt and Society, 1961, Vol. I, PP. 1-2.

(٣٩) Alvares, OP. Cit, PP. 38-9.

(٤٠) Ibid, Vol. II, P. 473.

(٤١) Hugh Murray, Historical account of discoveries and travels (Edinburgh, 1820) Vol I, P. 367.

(٤٢) Ibid, P. 379; See also C.P. Grant, the Syrian desert (A. & B Black Ltd, London, 1937), P. 83.

(٤٣) Murray, OP. Cit, P. 379.

(٤٤) Carruthers, Op. Cit, P. XVI; Grant, Op. Cit, P. 83.

(٤٥) مصطفى عقيل الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ ـ ١٧٦٣، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٠) ص٢٥ .

(٤٦) ويلسون، المصدر السابق، ص ٢٧١ .

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٢ .

(٤٨) المصدر نفسه .

(٤٩) Carruthers, Op. Cit, P. XIV.

(٥٠) Pedro Teixeira, the Travels of Pedro Teixeira, translated and annoted by William F. Sinclair (London, Hakluyt Society, 1902), P. XVIII.

(٥١) Murray, Op. Cit, P. 385.

(٥٢) Teixeira, Op. Cit, P. I.

(٥٣) Grant, Op. Cit, P. 85.

(٥٤) Teixeira, Op. Cit, P. II.

(٥٥) Grant, Op. Cit, P. 85.

(٥٦) Teixeira, Op. Cit, P. V.

(٥٧) Ibid, P. VII, 18.

(٥٨) Ibid, PP. XVI - XVII.

(٥٩) Ibid, P. XVII.

(٦٠) Grant, Op. Cit, P. 87.

(٦١) Teixeira, Op. Cit, P. XXIV.

(٦٢) Ibid, P. 24.

(٦٣) Ibid, PP. 25-9

(٦٤) Ibid.

(٦٥) Charles David Ley, (ed.), Portuguese Voyages 1498-1663 (J. M. Bent & Sons, London, 1947), P. XX.

(٦٦) Ibid, PP. XX-XXI.
(٦٧) Murray, Op. Cit, Vol I, P. 384.
(٦٨) Ley, Op. Cit, P. XX.
(٦٩) للتفاصيل انظر : Murray, Op. Cit, PP. 385-408.
(٧٠) Ibid, Vol. I, P. 393.
(٧١) Ibid, Vol. I, P. 393.
(٧٢) Ibid, Vol. I, P. 394.
(٧٣) Ibid, Vol. I, P. 395-6

موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي



بقلم الدكتور : يوسف بن علي بن رابع الثقفي ـ السعودية

ان دراسة موضوع بهذا العنوان «موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي» تتطلب تحديد الفترة الزمنية للدراسة نظرا لاختلاف الفترات التاريخية لكل من دولة المماليك ودول الخليج العربي . فدولة المماليك انتهى دورها في التاريخ كدولة مستقلة عام

٩٢٣هـ/١٥١٧م بسقوطها امام الدولة العثمانية في معركة مرج دابق ، وبذلك فان مزامنتها لدول الخليج العربي في مقاومة النفوذ البرتغالي خلال القرن السادس عشر الميلادي لا تتعدى تلك السنوات الـ ١٧ الأولى من ذلك القرن . ومراعاة للمزامنة بين الطرفين (المماليك ودول الخليج العربي) فإن موضوع البحث سيقتصر على موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي خلال الخمسة عشر عاما الأولى من القرن السادس عشر الميلادي .

ان هذه الفترة الزمنية القصيرة تتميز بتطور دولة البرتغال في مجال الاكتشافات البحرية والتي كان لها أثرها العظيم على البلدان الاسلامية خاصة دولة المماليك ودول الخليج . ولو نظرنا الى جذور التطور البرتغالي في مجال الاكتشافات واسباب ذلك لادركنا سر ذلك التأثير ، فقد كانت الدولة البرتغالية يوما من الايام تحت حكم المسلمين قبل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي(١) ، ثم انها تطورت في المجال البحري مما ساهم في تنفيذ مخططها في الانتقام من العالم الاسلامي ، فأول ما بدأت بتعقب المسلمين في الاندلس وشمال افريقيا حتى اصبحت ذات نفوذ على الشمال الافريقي واصبحت وريثة مدينة جنوة الايطالية في مجال الكشف وارتياد البحار(٢) .

ويتمثل حقد البرتغال على المسلمين في شخص هنري الملاح (١٣٩٤هـ - ١٤٦٠م) الذي أحرز للبرتغال استقلالها بانتصاره على المسلمين ، والذي غذى منذ طفولته بلبان التصوف المسيحي ببغضه المرير للاسلام . فكان أول ما قام به هو شن حملة على سبتة الاسلامية والتي دخل الاسلام منها الى اسبانيا عام ٩٢هـ/٧١١م(٣) ، ثم وضع خطته لتطويق العالم الاسلامي فأسس اول مدرسة نظامية للملاحين والبحارة حتى انه في عام ٨٥٨هـ/١٤٥٤م حصل على تفويض من البابا نيقولا الخامس بأن له الحق في جميع الكشوف التي يكتشفها حتى بلاد الهند ، ومن ذلك التفويض نورد الكلمات التالية :

«ان سرورنا العظيم ان نعلم ان ولدنا هنري أمير البرتغال ، اذ يترسم خطى والده العظيم الملك يوحنا واذ تلهمه الغيرة التي تملأ الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح ، قد دفع بسم الله الى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال عملنا كما دخل بين احضان الكاثوليكية الغادرين من اعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة(٤)..

ومن هذه الالفاظ يتضح لنا أهداف الروح الصليبية العميقة ضد العرب والمسلمين . وبذلك تكررت الحملة البرتغالية الى الشرق الواحدة تلو الاخرى هادفين من ذلك الوصول الى الموانىء الساحلية في الهند والخليج العربي لتطويق العالم الاسلامي وانشاء مراكز تجارية تخدم اهدافهم الاستعمارية ، ومما يظهر النوايا الصليبية

الخبيثة ضد الاسلام والمسلمين ما تحدث به البوكيرك * في خطابه الذى القاه على جنده بعد وصوله الى ملقا حيث قال : «ان ابعاد العرب عن تجارة الأفاوية هو الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون اضعاف قوة الاسلام[٥] وفي نفس الخطبة يقول البوكرك كذلك : «الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وباطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب .. وذلك لأني على يقين اننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من ايديهم (يعني المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك[٦]».

مما تقدم يظهر لنا بوضوح ان العامل الديني كان المحرك الأول للاكتشافات الجغرافية البرتغالية بهدف الالتفاف حول العالم الاسلامي ، ويأتي في الدرجة الثانية العامل الاقتصادي كمؤثر فعال في سير الكشوف البرتغالية ، فقد كان لاكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٧م بواسطة فاسكو دي جاما ووصوله الى الهند عن طريق الطواف حول القرن الافريقي أثره العظيم على نمو وازدياد الحركة التجارية البرتغالية[٧]. فقد حقق البرتغاليون تطورا اقتصاديا جديدا بسبب ايصال منتجات الشرق الأقصى للأسواق الاوربية دون الحاجة الى توفيرها عن طريق مصر أو بواسطة تجار جنوه والبندقية ذوى الامتيازات التجارية في مناطق العبور التجارية بالشرق والغرب[٨] . وبذلك كان تحويل الخط التجاري عن مناطق العبور العربية الاسلامية عاملا فعالا لتحقيق الهدف الأول وذلك لما للمجال الاقتصادي من أثر في اضعاف القوة الاسلامية التي زعزعت اوربا قرون طويلة . ومن جهة أخرى فقد كان عاملا ادى دوره الايجابي في التأثير على اقتصاديات العالم العربي وبخاصة الدولة المملوكية . فهناك حقيقة لا يمكن انكارها وهي ان الطريق التجاري الجديد ادى الى انقلاب مفاجيء في التجارة العالمية ، فقد اصبح الأوربيون يحصلون على المنتجات الشرقية دون التعرض لما يفرضه المماليك من ضرائب على تلك التجارة العابرة اليهم عن طريق مصر . فقد كانت مصر خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ـ قبيل الاكتشافات البرتغالية ـ غنية لموقعها التجاري بين آسيا واوربا وافريقيا[٩] ، ولتحكمها في فرض الرسوم على المنتجات العابرة منها الى اوربا ، وعلى سبيل المثال كانت النظم التجارية عند المماليك تفرض رسوما على التوابل عند وصولها الى ميناء السويس ، وعند اعادة شحنها في الاسكندرية تزيد في ذلك حتى وصل ثمن حمل الفلفل الى ١٢٠ أو ١٣٠ دينارا فإذا ما وصلت الى اوربا تكون

* إفونسو دي البوكيرك قائد بحري برتغالي والمؤسس الحقيقي للامبراطورية البرتغالية في الشرق . رحل الى الهند عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣ ، واستولى عام ٩١٢هـ/١٥٠٧م على هرمز ، وفي عام ٩١٧هـ/١٥١١م ابحر الى ملقا واستولى عليها وبذلك وضع جنوب شرق آسيا في دائرة النفوذ البرتغالي وقد مات بمدخل ميناء جوا عام ٩٢١هـ/١٥١٥م. (الموسوعة العربية الميسرة ١٩٧٢م ص١٩٦) .

اسعارها قد زادت بكثير[١٠] ولكن تحول الخط التجاري عن طريق رأس الرجاء الصالح قلل من أهمية مصر التجارية كمنطقة عبور عالمية ، ومما يدلل على ذلك ان سفن البندقية لم تستطع ان تحمل في عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م من موانىء مصر والشام سوى نصف الكمية التي تعودت ان تحملها من قبل[١١].

وأكثر ما زاد الوضع تفاقما زيادة النشاط البرتغالي في نقل منتجات الشرق الى الغرب ـ وذلك بتنظيم الرحلات البحرية لسفنهم والعمل على الحيلولة دون وصول السفن العربية الى الهند[١٢] اضافة الى ان ميناء جدة الذي كان الوسيط في نقل البضائع الشرقية الى مصر قد تأثر هو الآخر بالتحول التجاري الى طريق رأس الرجاء الصالح مما ساعد البرتغاليين على اضعاف الدولة المملوكية والهيمنة على ما كان يتمتع به العرب من امتيازات تجارية ، وبالتالي محاربة الدين الاسلامي كما اشرنا الى ذلك سابقا . ولم تكن المناطق الاخرى في العالم العربي أقل أهمية من ميناء جدة ، ففي الخليج العربي وفي بلاد الشام وعلى البحر الأحمر وعلى البحر المتوسط كانت هناك مناطق متعددة تقدم دورا هاما كمعابر للتجارة الشرقية الوافدة من الهند والصين واندونيسيا . فعلى سبيل المثال كانت الاسكندرية ودمياط على البحر المتوسط تعجان بالحركة التجارية مع رواد التجارة الغربيين . وكانت المراكز التجارية في بلاد الشام حافلة بأنواع التجارة العابرة عن طريق الموانىء الخليجية الى الغرب . هذه الحالة الاقتصادية الجيدة في المناطق العربية بدون شك تأثرت بتحول الطرق التجارية عنها مما ساهم في تدهور الأوضاع عند الدولة المملوكية في مختلف جوانبها[١٣].

أما فيما يتعلق بالتوسع البرتغالي في الشرق ومدى ما وصلوا اليه ، وموقف كل من المماليك والدول الخليجية فسنناقشه فيما يأتي . فكما ذكرنا سابقا كان العامل الديني هو العامل الاساسي وراء تقدم البرتغاليين نحو الشرق ، ولكن جل ما يخدم اهدافهم الدينية توفر الجانب المادي والذي يتمثل في سيطرتهم على منافذ التجارة . فبعد ان تم عبور رأس الرجاء الصالح والذي كان يسمى سابقا رأس العواصف وسمي برأس الرجاء الصالح تفاؤلا[١٤] ، ادرك البرتغاليون انه لا يمكن تنفيذ مخططهم الاستعماري الصليبي الجديد الا بالتحكم في مركزين اساسيين لهما شأنهما العظيم في التحكم التجاري عبر البلاد العربية . هذان المركزان هما جزيرة هرمز ، التي تتحكم في طريق التجارة عبر الخليج العربي ، وباب المندب وعدن ، ذلك المكان الذي يتحكم في الطريق التجاري الى البحر الأحمر[١٥]. وبالوصول والتحكم في هذين المركزين سيحقق البرتغاليون اهدافهم الرئيسية التي منها ضرب العالم الاسلامي من الخلف تحقيقا لأهدافهم الدينية المتعصبة ضد الاسلام والمسلمين الذين حكموهم عدة قرون في شبه الجزيرة الايبيريه (اسبانيا والبرتغال) ، وكذلك سيتمكنون من قطع عصب الاقتصاد الاسلامي وتحقيق هدفهم النهائي في بناء حضارة مسيحية[١٦].

وبدأ تحقيق الأطماع البرتغالية في المناطق العربية عندما وضع إفونسو دي

البوكيرك في عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م مشروعا ضخما للابحار والتجارة والغزو في البحار الهندية وتحقق له أمله عندما ولاه ملك البرتغال عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م أمور الشرق وأعطاه حرية التصرف كيفما شاء. ومما جاء في المذكرات الخاصة به ان عليه ان يخرب هرمز وان يجتث التجارة الاسلامية في البحار الاسلامية من جذورها[١٧] وعلى الرغم من ان الدون فرانسيسكو دي الميدا - نائب ملك البرتغال على الممتلكات البرتغالية في الهند السابق - كان يرى تأسيس وكالات تجارية في الهند للمحافظة على العلاقات التجارية مع المراكز التجارية، الا ان خلفه البوكيرك كان يرمي الى انشاء امبراطورية برتغالية في الشرق، وبناء القلاع حيثما أسس وكالة، لا لحماية التجارة ولكن للسيطرة على الحكام الوطنيين واجبارهم على الاعتراف بالبرتغال كسلطة مسيطرة[١٨].

ونظرا لأهمية جزيرة سقطرة فقد بدأ البوكيرك عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م بالاستيلاء عليها خاصة وهي تمثل موقعا نموذجيا بالنسبة لأهداف الخطة البرتغالية. فهي تقع في مواجهة الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب وفي منتصف الطريق تماما بين الخليج العربي والبحر الاحمر[١٩]. ونظرا لعدم جدوى هذه الجزيرة بسبب فقرها من الموارد الطبيعية فقد فكر البرتغاليون في الاتجاه نحو عدن بهدف قطع الاتصال بين الهند والدولة المملوكية خاصة وأن المماليك كما يقول العقاد: استعدوا لمقاومة البرتغاليين في المحيط الهندي لما لحقهم من أضرار اقتصادية نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح[٢٠] ورغم تمكن البوكيرك من الحاق الضرر بجزيرة بريم عند مدخل البحر الاحمر الا انه لم يتمكن من الوصول إلى عدن، فرأى ان يتجه شطر منافذ الخليج العربي وأهمها قريات ومسقط وقلهات وصحار وخورفكان وهرمز والبحرين والقطيف والبصرة[٢١].

وبسبع سفن وأربعمائة وستين محاربا وصل البوكيرك الى قلهات التابعة لحاكم هرمز، وقبل وصوله اليها اجتاز اسطوله جزر كوريا موريا ورأس الحد حيث وجد ثلاثين أو اربعين سفينة صيد فأحرقها والقى الرعب في قلوب سكان تلك الجزر وفي قلهات طلب البوكيرك من أهلها التسليم والتبعية للبرتغال فتم له ذلك خوفا على انفسهم من تدمير مدينتهم[٢٢].

ثم بعد ذلك أبحر نحو قريات وهناك استقبله الأهالي استقبالا سيئا فاقتحم المدينة وسط مقاومة عنيفة انتهت بانتصاره فأحرقها واحرق عددا من السفن الراسية في مينائها. ثم اقلع منها الى مسقط - ميناء عمان الرئيسي - والتي كانت محروسة حراسة جيدة لما بلغ اهاليها ما لحق بسكان قريات من تدمير وتعذيب شديدين. وعند وصوله مسقط اتاه نبيلان مسلمان نيابة عن الأهالي وحاكم المدينة وتوسلا اليه الا يلحق الاذى بالمدينة وعبرا له ان يصبحوا تابعين لملك البرتغال وان يدفعوا له ما كانوا يدفعونه لحاكم هرمز. غير ان تلك المفاوضات لم تجد نفعا. ورغم المقاومة الباسلة من رجالها الا انهم لم يستسلموا لبعض شروطه فأمر بتدمير المدينة واحراق المنازل وتعذيب الشيوخ والنساء والاطفال[٢٣].

وبعد سقوط مسقط اتجه البرتغاليون الى

صحار التى بدورها لم تستطع المقاومة فما كان منها الا التسليم ودفع ضريبة سنوية. أما خورفكان فقد قاومت الاعداء حسب الاستطاعة ولكن النهاية كانت مريرة حيث لاقت قدرها كغيرها من المناطق السالفة الذكر، بل انها نهبت ثلاثة ايام وعمل البرتغاليون على تشويه أهاليها ثم أحرقوها(٢٤) .

وتأتى النقطة الحاسمة فى التقدم البرتغالى نحو المرافىء الخليجية ويأتى دور هرمز تلك الجزيرة التى كانت بالنسبة لمعظم المناطق الخليجية العاصمة الاولى وهى مقر التجار والوكالات التجارية ومهبط السفن التجارية من كل صوب. فحاكمها عربى واسمه سيف الدين يبلغ من العمر ١٢ عاما تحت وصاية خوجه عطار الرجل السياسى والمحنك(٢٥) .

علمت هرمز بما أصاب المرافىء الخليجية الاخرى من وبال وتدمير من قبل البوكيرك وأتباعه، وعلمت أنها سوف تنازل البرتغاليين دون ريب. وبذلك أعدت العدة للعدو المشترك باشتراك الكثير من رجال البحرين والمرافىء الخليجية الأخرى . ورغم ما أبداه بعض المؤرخين المتعصبين من التقليل من أهمية المقاومة العربية للبرتغال في هرمز مثل لوريمر * وفاريا دى سوسا البرتغالى الا ان الحق لا يمكن ان يغيبُ، فقد كتب ويلسون فى كتابه « الخليج العربى » يقول : كان البرتغاليون فى خشية وتردد لعظم طبيعة الواجب الذى عليهم القيام به، لانهم حينما وقفوا فى النقطة التى رأى فيها القباطنة عظمة المدينة وعدد الرجال الفرسان المجتمعين على الشاطىء والسفن الكثيرة الرابضة فى الميناء والمجهزة بالرجال والسلاح، أصيبوا بالخيبة والأسى. وفى غضون تلك الحالة النفسية جاءوا الى مقربة من سفينة إفو تسودى البوكيرك وحذروه من مغبة ما هو مقدم عليه، لأن تلك المدينة لم تكن كغيرها من المدن التى دمرها، نظرا لكثرة الجنود الذين يمكن ملاحظتهم على الشاطىء(٢٦) .

فهل نتصور وفقا لما ذكره ويلسون ان الامر بتلك السهولة حتى نصدق ما يروجه الاعداء بضعف المقاومة العربية لأعداء الدين الاسلامى والأمة العربية والاسلامية .

لقد استطاع حاكم هرمز ووصيه جمع ما استطاعا من العرب حتى بلغ عدد جندهما ٣٠ الف محارب بينهم ٤٠٠٠ فارس من ذوى الحذق فى رمى السهام، اضافة الى ٤٠٠٠ سفينة منها ٦٠ ذات حجم كبير وعليها ٢٥٠٠ رجل وعدد من قوارب خفر السواحل مليئة بالمدافع الصغيرة(٢٧). وهذه القوات ليست بالهينة على البرتغاليين ولكن الذى خدم البرتغاليين تفوق المدفعية والتدريب المستمر خلال سير حملاتهم البحرية بين الحين والآخر. ورغم ما أصابهم من خسائر جسيمة، ورغم المفاوضات بين الطرفين الا انهم حصلوا على استسلام

* لوريمر فى دليل الخليج الجزء الأول وفارياسوسا يشيران الى تمكن البرتغاليين من فتح مدينة هرمز بيسر وسهولة وكأنها اقل مدينة قاومتهم فى منطقة الخليج ورأيهما تماما عكس الواقع حيث كانت مقاومتها أعظم مما كانوا يتصورون وهى المدينة الوحيدة التى واجه فيها البرتغاليون خسائر جسيمة تغلبوا عليها.

حاكم هرمز، وموافقته على تبعيته لملك البرتغال واعفاء السلع البرتغالية من الضرائب، وان يكون للبرتغاليين الحق في ان لا يدفعوا ضرائب اكثر مما يدفع المواطنون حين يجلب البرتغاليون بضائع اخرى من مناطق غير البرتغال الى ميناء هرمز والثغور التابعة له[٢٨].

وبهذا أصبحت هرمز والمرافىء التابعة لها تحت السيادة البرتغالية، وتحقق لهم الحلم الذى يستطيعون بواسطته ضرب الامة الاسلامية دينيا واقتصاديا. وتمكن البرتغاليون من السيطرة على الملاحة في الخليج العربي بعد استيلائهم على هرمز ذلك الميناء العريق والطريق الموصل لكل تجارة الخليج التى تدفع لى البلاد العربية بمنتجات الهند وأندونيسيا وغيرهما من بلاد الشرق.

ورغم تطلع حاكم هرمز الى القوى المملوكية في المساعدة والمقاومة لأعدائه الا ان ذلك لم يتحقق للأسباب التالية: لقد كانت الدولة المملوكة تعيش صراعا سياسيا داخليا ساهم في ضعف قوتها الدفاعية كما كانت كذلك تعيش الصراع والحرب بين فترة واخرى مع الدولة العثمانية والدولة الصفوية على مناطق الحدود، وكانت بالمقارنة مع البرتغال لا تملك الوسائل الدفاعية البحرية المتطورة[٢٩]. اضافة الى ذلك البعد المكانى لمناطق الخليج عن مراكز القوى المملوكية وتفشى وباء الطاعون[٣٠]. كل ذلك جعل الموانىء الخليجية تعانى الأزمة وتعتمد على بسالة وتضحية المواطنين أمام الحملات الصليبية الاستعمارية الظالمة.

ولكن ذلك لا يعنى ان المماليك تحت حكم السلطان قانصوة الغورى لم يفعلوا شيئا، فقد كان هناك عدد من المناورات بين البرتغاليين والمماليك في البحر الهندى على أمل ان يحقق المماليك بعض الانتصارات لايقاف التقدم البرتغالى نحو الخليج. من ذلك ما أعده قانصوه الغورى من قوة بحرية عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م بقيادة حسين الكردى الذى اشتبك مع البرتغاليين في معركة شول وانتصر عليهم،. ولكنه في معركة ديو عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م لم يحالفه النصر وعاد أدراجه الى البحر الاحمر لحماية الأماكن المقدسة. [٣١] ولعل ذلك من الأسباب التى جعلت حاكم هرمز يتطلع الى قوة اسلامية أخرى تسانده، فلجأ الى الصفويين الذين كانوا في نفس الوقت من ألد أعداء الدولة المملوكية والدولة العثمانية نتيجة لاختلاف المذهب الدينى. وبهذا لم يتحقق التأييد الصادق من قبل الصفويين مما جعل هرمز تعانى الأزمة الاستعمارية بنفسها.

لقد خضعت هرمز للقوة البرتغالية رغم ما قام به الاهالى من تضحية وطنية صادقة، وقد يكون سبب اخفاقهم في النصر اختلال ميزان القوى اضافة الى عدم توفر دعم من الدول الاسلامية المجاورة. ويمكن القول بأن البرتغاليين كانوا يعرفون حقا ما يعيشه العالم الاسلامى أنذاك من حروب وتفكك سياسى، فانتهزوا فرصتهم للتقدم نحو المناطق الخليجية، فكانت هرمز، درة المدائن في العصور الوسطى كما يقولون، هى كبش الفداء في النهاية[٣٢].

ورغم تذمر الاهالى وعدم تسليم حاكم

المدينة بالاحتلال البرتغالى ورغم مغادرة البوكيرك ـ لاشباع أطماعه الاستعمارية ـ نحو عدن وفشله فى الاستيلاء عليها (كما سيأتى ذكره). رغم كل ذلك فقد واصل البرتغاليون اهتماماتهم باحكام قبضتهم على هرمز آخذين فى اعتبارهم عدم اتاحة الفرصة لجارهم في الشمال (الشاه) ليصبح البديل عنهم فى المنطقة. وكان مما عمله البوكيرك انه استقبل مبعوث الشاه اسماعيل الصفوى وعرض عليه صداقته[٣٣].وهو يعلم تماما ما يدور من مناوشات عسكرية على الحدود بين العثمانيين والصفويين. وليس ادل على نوايا البوكيرك من تلك الرسالة التى أرسلها الى الشاه مع مبعوثه روى جوميز يقول فيها :

« انى أقدر لك احترامك للمسيحيين فى بلادك، وأعرض عليك الاسطول والجند والاسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك فى الهند. واذا اردت ان تنقض على بلاد العرب او ان تهاجم مكة فستجدنى بجانبك فى البحر الاحمر امام جدة او فى عدن او فى البحرين او فى القطيف او فى البصرة وسيجدنى الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسى وسأنفذ له كل ما يريده[٣٤]».

لقد قام البوكيرك بهذه المناورات السياسية على أمل اضعاف المقاومة العربية والاسلامية سواء من جانب المواطنين فى الخليج العربى او الدولة المملوكية، ولكنه على الرغم من ذلك كان يشك فى نوايا الفرس فأرسل ابن اخيه بيرو فى حملة استطلاعية لمناطق الخليج كان من نتائجها ان قدم تقريرا لم يكن مطمئنا للبوكيرك حيث ان هرمز اعترفت بسيادة الفرس ولم تدفع له الضريبة السنوية المفروضة عليهم عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م[٣٥].

عند ذلك صمم البوكيرك ـ بعد مفاوضات مع ملك البرتغال ـ على الذهاب بنفسه، فأبحر سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م على رأس قوة بحرية تتألف من ٢٦ قطعة عليها ١٥٠٠ جندى برتغالى و٧٠٠ ما لابارى حتى وصل الى قريات ومسقط ومن ثم الى هرمز حيث اعاد احتلالها واستسلمت له القلعة وتم له رفع العلم البرتغالى من جديد عليها[٣٦]. وهناك بدأت المفاوضات مع الشاه اسماعيل فتوصلوا الى اتفاق يقضى بالتعاون العسكرى فى مواجهة الدولة العثمانية. وأصبح بموجبها حاكم هرمز من اتباع الملك البرتغالى. ومن ثم عاد البوكيرك الى الهند وهو فى حالة غير جيدة بعد ان عين ابن اخيه قائدا للقلعه، وبعد وصوله الى جوا وافته المنية هناك[٣٧].

ورغم هذه الأعمال الوحشية من القائد البرتغالى لأهالى هرمز والمرافىء الخليجية، ورغم خيانة الفرس وانشغال الدولة المملوكية بمشاكلها مع الدولة العثمانية فقد واجه الاهالى فى المناطق الخليجية مصيرهم معتمدين على انفسهم، فهاجم المواطنون الحاميات البرتغالية فى كل مكان فى هرمز ومسقط والبحرين وقريات وصحار ولكن دون جدوى لاختلاف ميزان القوى ووفاة حاكم هرمز سيف الدين عام ١٥٢٢ م. وفى عهد خلفه (ابنه محمود) عقد البرتغاليون معه معاهدة زادت بموجبها قبضتهم على هرمز حتى أنهم فى عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م أسندوا حكمها الى فاسكودى جاما لتظل

تحت تبعيتهم لمدة قرن من الزمان (٣٨).

أما فيما يتعلق بعدن وباب المندب مفتاح الجزيرة العربية من الجنوب فقد تقدم البرتغاليون نحوها عام ٩١٩هـ/١٥١٣ م في ثمانية عشر مركبا تحت امرة البوكيرك(٣٩). ورغم محاولاتهم العنيدة في اقتحامها فانهم اخفقوا في تحقيق مآربهم لحصانة المدينة ومساعدة دول كبيرة لها مثل دولة آل طاهر في عدن واليمن ومن ورائهم دولة المماليك، اضافة الى ان عدن تولاها حكام عرفوا كيف يدرأون عنها الخطر البرتغالي مثل مرجان الظافري(٤٠). ونظرا لانهم لم يحققوا استيلائهم على عدن، فقد احرقوا السفن الموجودة في الميناء ثم اتجهوا بعد ذلك نحو الشمال الى المخا والحديدة، ولكن المسلمين قاوموهم أشد مقاومة حتى ردوهم على اعقابهم، فوجد البرتغاليون فرصتهم في الاستيلاء على جزيرة كمران، ومنها حاولوا اعادة التجربة مرة اخرى للاستيلاء على عدن الا انهم باءوا بالفشل ثانية فوجهوا حملتهم نحو الهند(٤١).

ولكن ما هو الموقف الفعلي لدولة المماليك مع التوسع البرتغالي وتهديد جنوب الجزيرة ؟

لقد ذكرنا سابقا ما كان يعانيه السلطان المملوكي قانصوه الغوري من المشاكل الداخلية في مصر، ومشاكل الحدود بينه وبين العثمانيين والصفويين، وكذلك ضعف الموارد الاقتصادية اللازمة لبناء السفن للمواجهة وبسبب ما تعانيه بلاده من تحول الطريق التجاري بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح. اضافة الى ذلك ما كانت تعانيه مصر من نشاط الفرسان الاسبتارية في المياه الشرقية للبحر المتوسط وقيامهم بشن سلسلة من الغارات على السفن المصرية وهي محملة بالبضائع والاخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن(٤٢). ولكنه مع ذلك كانت المسئولية تملي عليه وجوب المجابهة للأعداء البرتغاليين الذين تمكنوا من الوصول الى جنوب الجزيرة العربية ودخلوا مياه البحر الاحمر واستولوا على كمران وهددوا ميناء جدة الاسلامي(٤٣).

ولو استعرضنا دور المماليك في مواجهة البرتغاليين منذ البداية والمراحل التي مرت بها دولتهم في تكوين قوتها البحرية لتلك المواجهة لادركنا أنهم بذلوا جهدا يشكرون عليه رغم ضعف الامكانيات لتفادي ما يمكن تفاديه من الاخطار البرتغالية التي كانت تهدف الى تدمير الدولة الاسلامية والوصول الى الاماكن المقدسة.

فبينما كان المماليك يحاولون بناء اسطولهم البحري استولى البرتغاليون على سقطرة عام ٩١٣هـ/١٥٠٧ م كما اشرنا الى ذلك سابقا، واستطاعوا بهذا العمل التحكم في طريق السفن الى باب المندب (٤٤). ومع ذلك تمكن قانصوه الغوري من ارسال حملة بحرية مكونة من ثلاث عشرة سفينة وألف وخمسمائة رجل تحت امرة حسين الكردي، حيث انتهى به المطاف الى جزيرة ديو. ومنها توجه الى شول Chaul لمجابهة الاسطول البرتغالي بقيادة لورنزو دي الميدا Lorenze de Almeyda، ابن نائب الملك وكان ذلك عام ٩١٤هـ/١٥٠٨ م، وكان النصر حليف القائد العربي المسلم حيث قتل ابن نائب الملك(٤٥). ولكن انتصار المسلمين لم يدم طويلا فقد عزز البرتغاليون قوتهم وتحت

قيادة نونو فاز بيريرا Nunno Vaz Pereira تمكن الاعداء من مهاجمة الاسطول الاسلامى سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩ م فى معركة ديو واوقعوا بالجيش الاسلامى الهزيمة وأغرقوا سفنهم وعاد القائد المسلم حسين الكردى الى مصر حيث تم تعيينه نائبا على جدة[٤٦].

زيادة على ذلك فان البرتغاليين خططوا بعد هزيمة المماليك فى معركة ديو للاستيلاء على ملقا ومنافذ البحر والخليج العربى. فتم لهم الوصول الى ملقا عام ١٥١١ م ومهاجمة عدن والاستيلاء على كمران عام ١٥١٢م [٤٧].

ولكن السؤال الذى يتبادر الى الذهن هو هل كان ذلك العمل الذى أثر بدون شك على تحويل المنتجات الشرقية عن الطرق القديمة المألوفة له اثر على الدولة المملوكية بمفردها ام شاركهم فى ذلك بعض الدول الاخرى ؟ وفى الجواب على هذا السؤال يجب الاشارة الى ان المدن الايطالية جنوه والبندقية صاحبتى الامتيازات التجارية في المناطق العربية انذاك كانتا من اهم البلدان التى تأثرت بالاكتشاف البرتغالى الجديد. فما هو موقف المماليك من تلك المدن وخاصة مدينة البندقية ؟ .

لقد كان تجار البندقية من اعظم المتأثرين اقتصاديا من تحول الطريق التجارى إلى المسار الجديد. ففى اوروبا كانت البندقية قبل ذلك الاكتشاف فى قمة ازدهارها الاقتصادى، وقد اثراها احتكار تجارة الشرق والغرب. وكان وصول فاسكو دى جاما الى الهند هو الضربة القاصمة لتجارتها. حتى انها سنة ١٥٧٢م بدأت تغلق اسواقها[٤٨] لذلك عمل تجار البندقية على بذل كل جهد مع المماليك لايقاف النشاط البرتغالى ففى عام ٩٠٨ هـ ديسمبر سنة ١٥٠٢م اجتمع ١٥ من وجهائها لدراسة هذه الحالة التى وصلت اليها مواردهم الاقتصادية بسبب البرتغال. فأرسلوا وفدا الى مصر برئاسة بندتو سانوتو Benedetto Sanuto لتحذير الغورى من عواقب سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندى وكذلك تخفيض اثمان التوابل فى الموانىء المصرية لكى يساعدهم على الوقوف امام ارتفاع اسعارها فى الاسواق الاوروبية[٤٩] وكان الغورى من جانبه قد ارسل الى البابا يوليوس الثاني Julius والى بعض الدول الاوروبية متظلما من التصرفات البرتغالية وانه فى حالة عدم الاعتبار واتخاذ القرار المناسب فانه سيعامل المسيحيين القاطنين فى بلاده أسوأ معاملة، كما سيقوم باغلاق كنيسة القيامة [٥٠] .

لم يكتف البنادقة بالبعثة الاولى فأرسلوا عام ٩١٠ هـ/١٥٠٤م بعثة اخرى لنفس الغرض، ولكن الغورى اجابهم بأنه لا يستطيع ان يعمل شيئا بدون مساعدة عسكرية يستطيع بواسطتها مواجهة البرتغاليين في المحيط الهندى [٥١].

وعندما لم يجدوا الوسيلة الفعالة ضد البرتغال وعجزا منهم لأن الكلب لا يعض اذن أخيه كما يقول المثل. اقترح البنادقة على الغورى حفر قناة السويس [٥٢] ولكن الغورى لمشاغله الكثيرة لم يحقق لهم ذلك واتجه نحو الدولة العثمانية لطلب المساعدة فى انشاء اسطول بحرى ولان الدولة العثمانية كانت تعرف ابعاد الخطر البرتغالى

على العالم الاسلامي فلم تتردد في المساعدة وسرعان ما أرسل السلطان بايزيد الثاني الى ميناء بولاق عام ٩١٧هـ/١٥١١م ثلاثين سفينة محملة بالاخشاب والحديد والبارود والبنادق والمجاديف والسهام وغيرها من أنواع العتاد الحربي دون ثمن [٥٣]. ولكن العداء الصليبي المتأصل ضد الاسلام والمسلمين دفع حاكم رودس وقبارصتها لمهاجمة السفن المصرية في خليج اياس والاستيلاء عليها واخذها الى رودس. فما كان من الغوري الا ان امر بالقبض على الاوروبيين في الاسكندرية ودمياط وكذلك رجال الدين المسيحي في القدس، وامرهم بالكتابة الى الحكومات الاوروبية باعادة السفن بأسلحتها. ويصف ابن اياس تأثر الغوري من اعمال الاوروبيين بقوله : (فلما بلغ ذلك السلطان تنكد الى الغاية وامتنع عن الأكل يومين). [٥٤].

بعد ذلك استعد الغوري لمنازلة البرتغاليين ، فأرسل عام ١٥١٤م تحت قيادة حسين الكردي وسلمان العثماني حملة بحرية اخذت طريقها الى جدة ومن ثم الى اليمن ثم الهند. ولكن الحملة لم تحقق الغرض الذي ارسلت من اجله فعادت الى جدة سنة ١٥١٦م [٥٥] وقد يكون سبب اخفاقها ما حدث من تطورات جديدة على الدولة المملوكية، هذه التطورات تتعلق بالتقدم العثماني نحو مصر وانتهاء دور المماليك كدولة مستقلة عام ٩٢٣ هـ/١٥١٧م .

وبانتهاء حكم المماليك لمصر انتقلت مسئولية الدفاع عن الاراضي العربية والاسلامية الى الدولة العثمانية التي قدر لها ان تعمل بجهد واخلاص على حماية الاماكن المقدسة وبقية اجزاء العالم الاسلامي من اخطار الاستعمار البرتغالي، ورغم تمكن الدولة العثمانية من تحقيق الانتصارات العظيمة على القوى البرتغالية في جنوب الجزيرة العربية ومناطق الخليج، الا ان القوى البرتغالية بسبب ما كان يصلها من تعزيزات - كانت تظهر بين الحين والآخر لاستعادة بعض المناطق الخليجية. غير انه بفضل القوى الوطنية ودخول بعض الدول الاوروبية في حلبة الصراع مثل فرنسا وبريطانيا، فانه لم يقدر لهم البقاء في المناطق الخليجية بعد ان سقطت مدينة مسقط سنة ١٦٥٠م اخر موقع حصين لهم في منطقة الخليج - على يد الامام ناصر بن رشيد من يعاربة عمان[٥٦] .

ولا يسعني في ختام هذا البحث الموجز الا القول بأن ما قام به المماليك ودول الخليج من مقاومة - على الرغم من قلة الامكانيات - خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن يمثل المنهج الراسخ في نفوس ابناء الأمة العربية والاسلامية ، ذلك المنهج الذي ساروا عليه جيلا بعد جيل في كفاحهم المستمر ضد الاستعمار والروح الصليبية . فدولة المماليك لا يمكن بأي حال من الاحوال التقليل من شأنها فيما بذلته من جهد ومقاومة تمثلت بوضوح في حماية الاماكن المقدسة التي كان البرتغاليون يصرحون بأهدافهم علنا في الوصول اليها واطفاء نور الاسلام في منابعه. وفي اعتقادي انه لولا تعرض هذه الدولة (المماليك) لبعض العوامل الخارجة عن ارادتها - كما اشرنا الى ذلك في سياق البحث - لما تحقق للبرتغال الوصول والاستقرار في المناطق العربية الخليجية .

والدول الخليجية الابية بذلت كل ما فى وسعها، وعمل ابناؤها جاهدين مثابرين ضد الاستعمار البرتغالى، وجندوا ارواحهم واموالهم حفاظا على كرامتهم واستبقاء لشرف امتهم العربية الاسلامية. وكانت الوقائع الدامية بين المستعمر وابناء الخليج شهادة صادقة لاثبات روح الوطنية

الصادقة التى لا تعرف الكلل والملل والاستسلام.

المراجع

المراجع العربية

* ابن اياس، محمد بن احمد. بدائع الزهور في وقائع الدهور القاهرة مطابع الشعب، ١٩٦٠م .
* أحمد العناني . البرتغاليون في البحرين وما حولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. «مجلة الوثيقة» الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، العدد الرابع .
* احمد دراج : مقالة بعنوان «ايضاحات جديدة» «مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية»، العدد ٦٧/٦٨ .
* احمد دراج والسيد رجب حراز : دراسات في التاريخ المصرى. القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٦م .
* احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية. القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ط٣ ، ١٩٧٧م .
* الموسوعة العربية الميسرة . ط٢ ، دار الشعب، ١٩٧٢م
* المقريزى، تقي الدين احمد : السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٠م .
* بانيكار : أسيا والسيطرة الغربية . ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٦٢م .
* رجب حراز : عصر النهضة، القاهرة : ١٩٧٤م .
* سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، بيروت دار النهضة العربية، ١٩٧٢م .
* سعيد عبدالفتاح عاشور : اوروبا العصور الوسطى، الجزء الثانى، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠م .

* صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة : المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٤م .
* عبدالعزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية، بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٧٣م .
* عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم : علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، الرياض، مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م .
* غسان علي محمد رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر جده : مطابع دار العلم ، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٥م
* محمد رزق سليم : الاشرف قانصوه الغوري . القاهرة : الدار المصرية .
* محمد عبدالله عنان : دولة الاسلام في الاندلس، القسم الاول ط٤ ، القاهرة، مطبعة لجنة التاليف ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٩م .
* محمد عبدالله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ط٣ ، القاهرة مطبعة لجنة التاليف ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .
* نوال صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، الرياض : مطبوعات دار الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
* ويلسون السير ارنولد : الخليج العربي، ترجمة الدكتور عبدالقادر يوسف، الكويت : مؤسسة فهد المرزوق الصحفية .

المراجع الاجنبية

* Alboquerque Afonso, The Commentaries of the Great Afonso Alboquerque Vol III. Translated from the Portuguese edition by Walter de Gray Birch London, printed for the Hakluyte Society, 1880.
* Bailey, W. Diffie and Winius George, D. Foundation of the Portuguese Empire, 1415-1580, Minneapolis: University of Minnesota, press, 1977.
* Coupland, R. East Africa and Its Invaders. Oxford: The Clarendon Press, 2nd ed. 1958.
* Faria Sousa. The History of the Discovery and Conquests of India by the Portuguese. Translated into English by John Stevens, London: 1894.
* Fisher, S.N. The Middle East A History. New York: Alfred A. Knop, Inc, 2nd Ed. 1968.

* Gordon, D. Historical Geography of Europe. London: 2nd Ed. Mathen and Co. Ltd. 1943.
* Grane Briton, and others. A History of Civilization, Vol. I, 2nd Ed. New Jersey: Prentice-Hall, inc. 1960.
* Hess Andrew, S. The Evolution of the Seaborn Empire in the Age of Oceanic Discoveries. "American Historical Review," 1970.
* Jeudwine, J. W. Studies in Empire and Trade. London: Longmans, Green and Co. 1923.
* Kertesz, D.S. and Fitzsimins, M.A. Diplomacy in Changing World. University of Notre Dame, Press 1959.
* Miles, S.B. The Countries and Tribes of the Persian Gulf London: 1966.
* Solomon Modell. A History of the western world, Vo. I. New Jersey: Prentice-Hall, Inc. 1974.
* Stripling, G.W.F. The Ottoman Turks and The Arabs. Urbana: The University of Illinois Press, 1942.
* Torayah Sharaf, A. A short History of Geographical Discovery. London: George, G. Harrap and Co. Ltd, 1967.

الهوامش

(١) محمد عبدالله عنان «نهاية الاندلس» ، ص ٣٢٢
(٢) بانيكار ، آسيا والسيطرة العربية ، ص ٢٤
(٣) محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، القسم الأول ، ص ٢٤
(٤) بانيكار. آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢٥
(٥) بانيكار. آسيا والسيطرة الغربية ، ص ١٠
(٦) بانيكار. آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٨ .
(٧) Solomon Modell. A History of the Western World, Vol,1,p. 605.
Kertesz, S.D and Fitzsimons, M.A Diplomacy in A changing World, P. 5.
(٨) .Fisher, S.N. The middle East A. History, P. 144
سعيد عبدالفتاح عاشور. اوربا العصور الوسطى ، جـ ٢/٣٠٣.
(٩) Fisher, S.N, The Middle East history, P. 145.
(١٠) أحمد دراج ، مقالة بعنوان «ايضاحات جديدة» مجلة «الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» ، عدد ٦٧/٦٨، ص ٢٢٠
(١١) احمد دراج. دراسات في التاريخ المصري ، ص ١٠٩ .
(١٢) بانيكار . اسيا والسيطرة الغربية ، ص ١١٠/١١ .
(١٣) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، ص ٢٣٣ .
سعيد عبدالفتاح عاشور ، العصر المملوكي في مصر والشام ، ص ٣٠٠ .
(١٤) السيد رجب حراز ، عصر النهضة ، ص ٣١٦ .
(١٥) عبدالعزيز سليمان نوار ، الشعوب الاسلامية ، ص ١٣١ .
(١٦) عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم ، علاقة ساحل عمان ببريطانيا. دراسة وثائقية ، ص ١٩
(١٧) نفس المصدر ، ص ٢٥ .
(١٨) السير ارنولد ولسون ، الخليج العربي ، ترجمة عبدالقادر يوسف ، ص ١٠٤ .
(١٩) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، ص ١٥ .
(٢٠) نفس المصدر ونفس الصفحة .
(٢١) نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، ص ١١٨ .
(٢٢) أرنولد ويلسون، الخليج العربي، ص ٢٠٥ .
(٢٣) ويلسون، الخليج العربي، ص ٢٠٦ . احمد العناني، « البرتغاليون في البحرين وما حولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر » مجلة « الوثيقة » الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، العدد الرابع، ص ٨٦ .

(٢٤) Faria Sousa. The History of the Discovery and conquest of India by Portuguese. Thanslated into English by John Steven, Vol. I, P. 128.

(٢٥) ويلسون، الخليج العربى، ص ٢٠٨ . نوال صيرفى، النفوذ البرتغالى فى الخليج، ص ١٢٤ .

(٢٦) ويلسون، الخليج العربى، ص ٢٠٨ .

(٢٧) ويلسون، الخليج العربى، ص ٢٠٨. عبدالعزيز سليمان نوار، الشعوب الاسلامية، ص ١٣٢ .

(٢٨) عبدالعزيز ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية ص ٣٠. صلاح العقاد، التيارات السياسية فى الخليج العربى، ص ١٦ . ويلسون ص ٢٠٩ .

(٢٩) East Gordon Historical Geography of Europe.P.320.Crane Briton Jhone,B Christopher, Robert Lee Wolff. A History of Civilization P.519-21

(٣٠) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١/ص ٥٠٧. ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ٣/ص ٢٨٧، ٣٣٥ .

(٣١) J.W. Jeuwine. Studies In Empire and trade. p. 130. R. Coupland. East Africa and Its Invaders, P. 47.

(٣٢) احمد العنانى. البرتغاليون فى البحرين وحولها. مجلة الوثيقة، العدد الرابع. ص ٧٩ .

(٣٣) ويلسون، الخليج العربى، ص ٢١٣ .

(٣٤) صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى، ص ١٧ .

(٣٥) ويسلون : ص ٢١٣ .

(٣٦) نفس المصدر ـ ونفس الصفحة .

(٣٧) عبدالعزيز ابراهيم، وعلاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، ص ٣٢. ويلسون، ص ٢١٤ .

Miles, S.B. The Countries and Tribes Of The Persian Gulf, P. 154 .

(٣٨) ويلسون، ص ٢١٨.

(٣٩) Afonso, Alboquerque. The commentaries of the Great Afonso Alboquerque. Vol. III Translated from the Portuguese Edition of 1774 by Walter de Gray Birch. P. 126, 28.

(٤٠) عبدالعزيز نوار، الشعوب الاسلامية، ص ١٣١. صلاح العقاد، التيارات السياسية فى الخليج العربى، ص ١٨ .

(٤١) غسان محمد رمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الاحمر، ص ١٤٢ .

(٤٢) احمد سيد دراج، دراسات فى التاريخ المصرى، ص ١١٤ .

(٤٣) المصدر السابق، ص ١٢٦. أنظر ايضا :

G.W.F. Stripling The Ottoman Turks and the Arabs. p. 30.

(٤٤) Atorayah Sharaf. A short History of Geographical Discovery, P. 170. Andrew c. Hess "The Evolution of the Uttoman Seaborne in the Age of the Oceanic discoveries 1455 - 1525. American historical reveiu, 1970, P. 1905.

(٤٥) J. W. Jeudwine. Studies in Empire and trade. P. 130. Sir John Glubb. Soldiers of fortune, The story of the Mamluks. P. 418.

كذلك انظر ابن اياس بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ٤/١٤٢. وايضا : احمد دراج. دراسات في التاريخ المصرى، ص ١١٣ .

(٤٦) ابن اياس. بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ٤/٣٠٨. ايضا : احمد دراج. دراسات في التاريخ المصرى، ص ١١٣ .

(٤٧) Afonso, Alboquerque. The Commentaries of the Great Afonso Alboquerque. Vol. III. P. 126-28.

كذلك انظر. غسان رمال. صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ص ٩٩/١٨٧ .

(٤٨) عبدالعزيز ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية. ص٢٣/٢٤ . سعيد عبدالفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، ص٣٧٥ .

(٤٩) احمد دراج، دراسات في التاريخ المصرى، ص١٠٩/١١٠ . انظر كذلك : Bailey W. Diffie and George D . Winius. Foundations of the Portugues Empire. p.230/31 —

(٥٠) المصدر الانجليزى السابق : ص ٢٣١ .

(٥١) احمد دراج، دراسات في التاريخ المصرى، ص ١١٠ .

(٥٢) نفس المصدر

(٥٣) ابن اياس ص ٧٨٧ . احمد دراج: دراسات في التاريخ المصرى، ص ١٢١ .

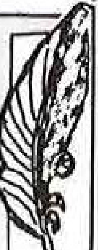
(٥٤) المصدر السابق: ص ١١٧ .

(٥٥) محمد رزق سليم «الاشرف قانصوه الغورى» ص ١١٧ . ابن اياس، بدائع الزهور ج٤/٤٥٨ .

(٥٦) احمد العناني : البرتغاليون في البحرين وحولها. مجلة الوثيقة العدد الرابع ، ص ١١٤ .

قراءة في المنهج السياسي





هذه دراسة سياسية تحليلية موجزة يراد بها تسليط الضوء على المنهج السياسي للملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود والذي تم التعبير عنه في مجموعة من المنجزات السياسية التي قام هذا العاهل السعودي بتحقيقها في طريقه الحثيث نحو تأسيس المملكة العربية السعودية . ولأن تلك الانجازات من الكثرة بحيث يصعب تغطيتها في دراسة كهذه ، فان كاتب هذه الدراسة سيحاول أن يعطي بعضا منها والذي يمكن من خلاله ابراز الأوجه المتعددة للمنهج السياسي الذي سار عليه الملك عبدالعزيز .

ان توحيد الأجزاء المترامية من شبه الجزيرة العربية التي تعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية يعتبر من أهم منجزات الملك الراحل . فتوحد المملكة ـ بالصورة التي تمت وبالنظر الى اعتبارات الزمان والظروف السياسية التي مر بها هذا الجزء من

الدكتور/ عبداللطيف حسن الرميحي (البحرين)

للملك عَبد العزيز آل سُعود



العالم في الفترة محل الدراسة - يعد انجازا سياسيا من الطراز الأول[١] . وهذه حقيقة يتفق عليها محللو الشرق والغرب ، بل ويذهب بعض هؤلاء المحللين الى القول بأن الخطوات التوحيدية التي قام بها الملك عبدالعزيز والتي انتهت بانشاء المملكة العربية السعودية كانت اجراء تقدميا يستحق الاطراء والثناء . بيد أن هذه الخطوات الجبارة التي تحققت بصورة فعلية وعملية بضم اقليم الحجاز[٢] الى الأقاليم الأخرى التي كانت تخضع لسيطرة الملك ما كان لها أن تتم ما لم نضع في الاعتبار التجارب السياسية العميقة التي كانت نتاج سنوات طويلة من الغربة والمعاناة . وبهذا يصبح من الضروري أن نتحدث عن المراحل المختلفة التي مرت بها حياة الملك عبدالعزيز لكي نتفهم بصورة أدق قيمة الانجازات التي تحققت على يديه والدروس السياسية العديدة التي أفاد منها خلال مروره بهذه المراحل .

نافذة على السياسة المحلية والدولية قصة الكويت:

ولد الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود في مدينة الرياض في الثاني من ديسمبر من عام ١٨٨٠ ميلادية[٣] . وبعد حوالي اثنين وعشرين عاما (في يناير من عام ١٩٠٢) عاد الى مسقط رأسه ليحررها من أسرة آل رشيد بعد سنوات طوال قضاها في منفاه بالكويت في ضيافة أسرة آل صباح . ولعل سنوات المنفى التي قضاها الأمير عبدالعزيز في الكويت تصلح كمدخل هام لفهم المنهج السياسي الذي تبناه في مرحلة لاحقة من حياته . فمما لا شك فيه أن آل سعود قد استفادوا استفادة كبيرة ومتعددة الجوانب من فترة وجودهم في الكويت . فبالاضافة الى كون الكويت قد أعطت الفرصة لآل سعود لكي يعيدوا بناء أنفسهم وأعطتهم الحرية التامة لتدارس أوضاعهم وأوضاع خصومهم وهيأت لهم الفرصة للاتصال بكافة القوى التي أرادوا الاتصال بها دون قيود أو موانع ، فان مرحلة الكويت تعتبر مرحلة هامة من مراحل النضج السياسي التي مرت بها حياة الملك عبدالعزيز . ويعود ذلك الى أسباب عديدة .

ففي الكويت عايش الأمير الشاب حدثا ودرسا سياسيا هاما وقد تمثل ذلك في الاسلوب الذي عالج به الشيخ مبارك الانقلاب أو المشكلة الداخلية الكبيرة التي حدثت عام ١٨٩٦[٤] والمتمثلة في النزاع على الحكم وبغض النظر عن أسباب هذا الانقلاب السياسي الهام ودونما الحاجة الى الخوض في تفاصيل هذه المرحلة[٥] فاننا نستطيع أن نؤكد بان هذه التطورات - وما صاحبها من تكتيكات سياسية مارسها الشيخ مبارك بهدف

كسب العامة الى جانبه وبهدف وضع حد لمؤامرات خصومه ـ قد عمقت المفاهيم السياسية لدى الشاب ذي الستة عشر ربيعا .

ولا شك أن الأمير عبدالعزيز قد استفاد كثيرا من الاسلوب الذي عولج به الصراع على الحكم . فقبل عام ١٨٩٦ كان عبدالعزيز يراقب تطور الصراع الداخلي(٦) وقد امتنع الأمير عبدالعزيز وأسرته عن التدخل في هذه الصراعات حيث أنها من الشئون الداخلية للبلد المضيف .

وفي الكويت أيضا انتقل الأمير عبدالعزيز من مرحلة السياسة النظرية الى مرحلة التطبيق العملي ، وهي المرحلة التي أقام فيها تحالفا سياسيا صلبا مع الشيخ مبارك الصباح . أما أسس هذا التحالف فتنطلق من المقولة السياسية القديمة «عدو عدوى صديقي» . ولا شك أن إبن الصباح وابن السعود قد وجدا في الأمير عبدالعزيز بن متعب آل رشيد عميد أسرة آل رشيد وأمير حائل عدوا مشتركا . ففي حين كان آل رشيد مسئولين مسئولية مباشرة عن نفي الأمير عبدالعزيز آل سعود ووالده الامام عبدالرحمن وباقي أسرته(٧) ، كان آل رشيد أيضا يحتفظون بطموح سياسي عتيق نحو الكويت ذات الموقع الاستراتيجي الهام والميناء العميق(٨) . ولهذا فقد اقتضت المصلحة العليا لأسرتي الصباح وسعود قيام تحالف استراتيجي بينهما للاطاحة بنفوذ آل رشيد أو على الأقل زعزعة استقرار سادة حائل واضعاف قوتهم . ولذلك جاءت المساعدات التي قدمها آل سعود للكويت في مرحلة لاحقة لان المصلحة العليا لآل سعود كانت تقتضي شد أزر آل صباح ـ بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى . ولعل معركة الصريف التي وقعت في فبراير من عام ١٩٠١ كانت تتويجا لتحالف آل صباح وآل سعود ضد عدوهم المشترك(٩) . ففي هذه المعركة نجد الامام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود يشترك في قيادة القوات الكويتية السعودية التي اتجهت للقاء قوات ابن الرشيد ويقف على رأس قوة أمير رئيسية هامة من القوتين اللتين اشتركتا في المعركة ضد قوات أمير حائل . أما نجله الأمير عبدالعزيز فكما تشير المصادر استغل فرصة انشغال ابن الرشيد في حربه الطاحنة ليتجه على رأس قوة الى الرياض (حلمه القديم) حيث اتصل بأهلها وتعرف على ظروفها وحرض سكانها على الثورة على آل رشيد وطمأنهم الى أن آل سعود قادمون اليها من جديد وكان على أبواب فرض سيطرته عليها لولا أن وصلته أنباء انكسار قوات والده وقوات ابن الصباح في المعركة المذكورة(١٠) .

وهناك أبعاد أخرى لا تقل أهمية ترتبط بتواجد أسرة آل سعود في الكويت . فبالاضافة الى التجارب التي استفادها الأمير عبدالعزيز من جراء الصراع الداخلي الذي كان يدور هناك والتحالف السياسي الذي أقامه آل صباح مع آل سعود ، فان الأمير عبدالعزيز كان ولا شك قد استفاد من الصراع الدولي الذي كانت الكويت محوره والذي يتلخص في رغبة محمومة من قبل بعض القوى الأوربية للحصول على موطىء قدم في هذا الجزء الاستراتيجي من الخليج العربي(١١) .

وبالنظر الى ما اكتسبته الكويت من مكانة دولية خاصة في تلك الفترة فاننا نجد أن الصدفة التاريخية - التي جعلت من هذه الامارة مقاماً لآل سعود بعد رحيلهم من نجد - كانت على المدى الطويل في صالح هذه الأسرة . ففي الكويت رأى عبدالعزيز التنافس على أشده بين العثمانيين والانجليز للسيطرة على شئونها كما شهد محاولات العثمانيين المتكررة لبسط نفوذهم على الكويت وقد ظلوا على حال من الكر والفر في مواجهة حاكم حاول جاهدا المحافظة على استقلال بلاده . الا أن الشيخ مبارك الصباح أذعن أخيرا للصراع الدولي الذي كانت الكويت محوره(١٢) وارتبط مع الحكومة البريطانية باتفاقية ٢٣ يناير من عام ١٨٩٩ ميلادية ، والتي ظلت سارية المفعول حتى استقلال الكويت في مطلع الستينات من القرن الحالي . ولعل الأهم من ذلك أن الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود قد شهد جانبا آخر من الصراع الدولي حول الكويت غير ذاك الدائر بين الانجليز والعثمانيين . فقد كانت الكويت محورا لمشروع طموح تقدمت به الحكومة الروسية عبر أحد مواطنيها المدعو فلاديمير كانبست ، وهو المشروع الذي كان يرمي الى ربط ميناء طرابلس على البحر المتوسط بالكويت المطلة على الخليج العربي وربما كان ذلك لبسط نفوذها السياسي(١٣) . أضف الى ذلك المشروع الطموح الآخر الذي تقدمت به ألمانيا لربط الكويت بخط السكة الحديد الشهير برلين - بغداد(١٤) . ان المشروعين المذكورين يقعان خارج اطار هذا البحث ولذلك لن يتسنى لنا مناقشتهما بالتفصيل الذي نطمح اليه ولكن غاية الأمر أن وجود الأمير عبدالعزيز آل سعود في الكويت وفي هذه الظروف بالذات قد ساهم ولا شك في تعميق ادراكه للمسائل المتعلقة بالسياسة الدولية حيث أن عبدالعزيز قد عايش هذه التجارب ونظر اليها نظرة المراقب المتفحص وهي تجربة فذة للأمير الشاب عمقت من خبراته السياسية وهيأته ليتبوأ مكانة سياسية عالية عندما أصبح رجل دولة بعد استلام زمام الحكم(١٥) . وهكذا

فان هذا البعد لاستقرار آل سعود يجب الا يغيب عن أذهان محللي سياسة الملك عبدالعزيز آل سعود .

وتبقى حقيقة هامة ترتبط بتواجد الأمير عبدالعزيز في الكويت يجب أن لا نقلل من أهميتها على الاطلاق . فبالاضافة الى أن عبدالعزيز استفاد تجارب سياسية كبيرة من معايشته للظروف التي مرت بها هذه الامارة الصغيرة سواء ما يتعلق منها بالسياسة الداخلية أو بسياساتها الاقليمية والدولية فانه قد تمكن فوق كل ذلك من فهم شخصية الشيخ مبارك الصباح فهما جيدا جعله يمتلك قدرة كبيرة على التعامل معه عندما تمكن من اعادة تأسيس البيت السعودي . لقد كان الشيخ مبارك الصباح شخصا ذا طموح سياسي كبير . وربما الأمير عبدالعزيز قد أدرك أبعاد هذا الطموح لأنه اذا ما نما وترعرع سيصطدم بمصالح جيرانه ومن بينهم آل سعود . وهذا ما أثبتته الأحداث فيما بعد عندما حدث شرخ في العلاقات الكويتية السعودية بدأ باصطدام مصالح البلدين منذ عهد الشيخ مبارك . الا أن وفاة الشيخ مبارك الصباح (المبكرة) قد أبطلت فرص الاصطدام المسلح . ومع ذلك فان عبدالعزيز آل سعود ووالده على الرغم من ادراكهما لطبيعة الشيخ مبارك الا أنهما مضيا قدما في حلفهما معه ضد عدوهما المشترك ابن الرشيد واعتبرا ما سوى ذلك لا يخرج عن دائرة التناقض المشروع .

مبدأ التصميم ... قصة الرياض

بناء الدولة السعودية الحديثة بدأ في ليلة من ليالي شهر سبتمبر من عام ١٩٠١ ميلادية من الكويت . بدأ القصة أربعون فارسا بقيادة الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود[١٦] . ان قصة تحرير الرياض من قبضة آل رشيد تعبر تعبيرا صادقا عن مبدأ التصميم الذي هو من صميم المنهج السياسي للملك عبدالعزيز . وعلى الجانب الآخر لم يكن النهج الذي سار عليه آل رشيد في حكمهم لنجد نهجا محببا لسكان هذه المنطقة[١٧] . الأمر الذي خلق فجوة كبيرة بين الحاكم والمحكوم وجعل مواطني الرياض وغيرها من المدن يبدون تذمرا شديدا ازاء ممارسات آل رشيد ومن كان يحكم باسمهم .

لهذا فقد كان الأمير عبدالعزيز محقا في اعتقاده بأن أية محاولة منظمة للقضاء على حكم آل رشيد سيكتب لها النجاح بمؤازرة السكان المحليين والقبائل الأخرى . وكان الاعتقاد أن تنضم قوات كبيرة موالية للأمير الشاب وهو سائر في طريقه نحو تحرير مدينة الرياض . وهذا ما حدث بالفعل فقد التحقت قوات كبيرة من الهجانة والخيالة المحملة بالذخائر والعتاد الى ركب الأمير عبدالعزيز حين

مروره بالأحساء[١٨] . في هذه المرحلة التي يمكن أن نطلق عليها المرحلة الأولى ـ ارتفعت معنويات ابن سعود لتزايد أعوانه الأمر الذي أدى بالتالي الى زيادة فرصة نجاح المهمة التي خرج من أجلها . الا أن الضغوط التي مارسها آل رشيد من خلال حلفائهم الأتراك على القوات التي انضمت الى عبدالعزيز جعلته في نهاية المطاف ينتهي بستين فارسا فقط[١٩] . وبهذا العدد المحدود تنتهي المرحلة الأولى من مراحل التحرير وكان من المتوقع وقد حكمت الظروف بهذه التطورات أن يتراجع عبدالعزيز عن الهدف الذي خرج من أجله ويلتفت شمالا نحو الكويت حيث كان والده يضغط عليه للعودة بعد أن علم بتخلي معظم أنصاره عنه[٢٠] . ولا شك أن الأمير عبدالعزيز كان يدرك الأبعاد النفسية لهذا الانسحاب الجماعي حيث أن معنويات الجماعة المتبقية يمكن لها أن تتأثر وتهبط . الا أن مبدأ التصميم كان أقوى من أن يقاوم كما أن معنويات الجماعة الموالية كانت أمتن من أن تهتز وهي ترى قائدها يتمتع بهذه الروح المعنوية العالية والتصميم الذي لا ينكسر ولا يلين .

وهكذا تبدأ المرحلة الثانية من مسيرة التحرير بستين فارسا اشترك أربعون منهم فقط في العملية العسكرية المحدودة لتحرير الرياض[٢١] . ولا شك أنها عملية تدعو للاستغراب اذ أنك لا تتوقع أن يتمكن هذا العدد المحدود من الرجال من تحرير مدينة بحجم الرياض . الا أن ما حدث يبرهن على ما ذهبنا اليه من أن مبدأ التصميم يعد ولا شك لبنة أساسية من لبنات أي انتصار أو انجاز حضاري كما أثبتت لنا دروس التاريخ .

ومن الضروري ـ ونحن نتحدث عن تحرير الرياض ـ الاشارة الى ما صاحب هذه الحملة من جوانب ايجابية خدمت الأمير عبدالعزيز بعد أن ركزنا فيما سبق على المعوقات التي واجهته . لقد استفاد عبدالعزيز من فكرة الدعاية في الحروب والتي هي من المبادىء الاساسية في الحروب الحديثة . صحيح أن الأمير عبدالعزيز قد خسر المئات من انصاره بتخليهم عنه في المرحلة الأولى لحملته ولكن تخلي هذا الكم من الأنصار لم يكن سلبيا خالصا كما يبدو لنا من الوهلة الأولى . فنحن نعلم أن أنباء ما حدث قد انتشرت في معظم أنحاء الجزيرة العربية بدليل أن والده الأمير عبدالرحمن آل سعود المقيم في الكويت علم بذلك وأرسل رسولين الى ولده في محاولة لاقناعه بالعدول عن التوجه نحو الرياض والعودة الى الكويت . ومما لا شك فيه أن تلك الأنباء قد وصلت الى أسماع آل رشيد وفي حين أنها ضاعفت من غبطتهم فانها خدمت ابن سعود ذاته . أن

وصول تلك الأخبار الى خصوم ابن سعود قد جعلتهم يتخلون عن جانب الحذر الشديد وربما يرخون من حراستهم الشديدة . وهنا نتساءل ألم تكن هذه الخطوة في صالح الأمير عبدالعزيز اذا ما قورنت بالاحتمال الآخر الذي كان من الممكن أن يتم ويتشكل السيناريو الخاص به على هيئة معركة عسكرية طاحنة بين قوات ابن سعود وقوات ابن الرشيد في منطقة البساتين مثلا أو أي من المناطق القريبة على أساس أن آل رشيد كانوا يعلمون بتوجه قوات كبيرة يقودها ابن سعود نحو معقلهم الرئيسي . أما وان آل رشيد قد علموا بأنه لم يعد هناك وجود لهذه القوات وان رجال ابن سعود في تقهقر دائم فان الأمر أصبح مختلفا جدا . وبقدر ما تأثر ابن سعود سلبا بتخلي رجاله عنه فانه استفاد كثيرا من هذه الخطوة الدعائية التي ضللت خصومه ومكنته من فرض نفوذ أسرته من جديد على مدينة الرياض في عملية عسكرية بارعة كان لها خسائر محدودة .

توطين البدو... البعد العسكري :

ان الحديث عن الانجاز الضخم المتمثل في مشاريع الاستيطان التي عرفت بالهجر والمزايا الكثيرة التي حققتها هذه السياسة بات أمرا عاديا لا يثير الاستغراب . أما عن دوافع الملك عبدالعزيز وراء هذا المشروع فقد كثر الحديث عنها وان كان البعض يميل الى تغليب الدافع الاقتصادي . ومع اننا لا نغفل أهمية هذا الدافع الهام حيث أن استقرار قبيلة أو فخذ من قبيلة في منطقة جغرافية معينة محاذية لمصدر مائي من شأنه أن يسهم في نشر الزراعة وتنمية التجارة ، الا أن الدافع العسكري كان ولا شك من الأسباب الأساسية التي دفعت الملك عبدالعزيز الى التمسك والاصرار على فكرة الهجر[٢٢] . ونحن نعرف بان خطوات التوطين التي بدأت مع حلول عام ١٩١٢ قد جاءت في غمرة العمليات العسكرية الرامية الى بناء المملكة العربية السعودية . وقد ترافقت هذه العمليات مع التدهور الشامل الذي أصاب أوصال الامبراطورية العثمانية . كما كانت هناك قناعة تامة في الأوساط الدولية بان الامبراطورية العثمانية والتي كان يطلق عليها أنذاك الرجل المريض كانت على شفا الانهيار . وكانت الدول الغربية والشرقية على السواء منشغلة بتقسيم أقاليم هذه الامبراطورية فيما بينها .

ويجب أن لا يغيب عن بالنا وقد وصلت الأمور الى هذا الحد ان الدولة العثمانية كانت تحتل جزءا هاما من اجزاء شبه الجزيرة العربية يتمثل في اقليم الأحساء وذلك عقب الحملة الشهيرة التي قادها مدحت باشا في

عام ١٨٧١ لاحتلال هذا الاقليم .

ولهـذه الأسباب فـان الملك عبدالعزيز كان يـدرك ان الوقت سيحين ولا شك لتحرير هذا الجزء من قبضة العثمانيين قبل أن يسقط في أيد غريبة عن هذه المنطقة كما حدث لليبيا مثلا في العام الذي سبق ذلك العام . وفي ظروف كهذه كان الملك عبدالعزيز في حاجة الى تجهيز جيش نظامي يكون متأهبا للقيام بعمليات عسكرية في أي لحظة ، وهذا ما لم تكن تسمح به الظروف وخاصة الظروف المالية . حيث أن بناء جيش متفرغ متكامل كان يتطلب نفقات مالية باهظة أكبر من أن تتحملها سلطنة نجد الفتية ، فقد كانت فكرة اقامة الهجر لتوطين البدو أقصر طريق لاعـداد قوات عسكرية تكون تحت امرة الملك عبدالعزيز متى أرادها والا لأصبحت المهمة غاية في الصعوبة اذا كان الحديث عن قبائل من البدو متناثرة هنا وهناك في أطـراف الصحراء الشاسعة . وهكذا وفر استقرار البدو الفرصة للملك عبدالعزيز لكي يغرس في نفوسهم حب الانتماء لبقعة من الأرض بدل التجوال والترحال اضافة الى منحه الفرصة لإنشاء جيش عقائدي يرتبط بالدين والوطن[٢٣] . وهذا ما تم تحقيقه بالفعل اذ تم تكوين جيش عقائدي من الطراز الأول . ولعل أحاديث الملك عبدالعزيز لأمين الريحاني عن عقائدية هذا الجيش والتضحيات الجسيمة التي بذلها في سبيل الدعوة التي آمن بها تثبت صحة ما ذهبنا اليه .

وهكذا تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ منطقة شبه الجزيرة العربية بدأها ابن سعود في «الأرطاوية» واذا بها تزدهـر في «دخنة» و«لينـة» و«خـريشـان» و«الغطغط» وغـيرهـا الكثير[٢٤] . واذا بالآلاف من أبناء القبائل العربية تستوطن هذه الهجر وتعمل على تنميتها وازدهارها . وقد تخرج من هذه الهجر آلاف من المقاتلين الذين أطلق عليهم تسمية الأخوان والذين أسهموا اسهامـا جبارا في العمليات العسكرية التي خطط لها وقادها الملك عبدالعزيز في سبل بناء وتثبيت حكمه .

تحرير الأحساء ... الدوافع والأبعاد :

تمكن الملك عبدالعزيز آل سعود من تحرير اقليم الأحساء في عام ١٩١٣ بعد احتلال عثماني لهذا الاقليم زاد على الأربعين عاما . وكانت عملية استرداد الأحساء التي قادها ابن سعود شخصيا عملية سريعة أشبه ما تكون بعملية تحرير الرياض التي تمت في عام ١٩٠٢ . وقد تم اتباع نفس التكتيك العسكري فيها تقريبا كما كانت الخسائر في الأرواح محـدودة جدا في هـذه العمليـة الخاطفة .

كانت عملية تحرير الأحساء عملية هـامة من النـواحي العسكـريـة والسياسية والاقتصادية لحكم الملك عبدالعزيز آل سعود ولظروف سلطنة نجد على وجه التحديد . فمن المتعارف عليه لدى علماء السياسة ان الدول تحاول قدر الامكان أن تقيم عواصمها بمنأى عن حدود الدول الأخرى القريبة لاعتبارات عسكرية في المقام الأول . وربما لهذا السبب نجد أن معظم عواصم دول العالم تتخذ موقعا متوسطا بالنسبة للدولة أو على أقل تقدير في موقع بعيد عن حدودها لكي يتسنى لها الدفاع عنها في حالة وقوع عدوان مسلح عليها ، واضعين في الاعتبار أن عواصم الدول هي في العادة مركز التخطيط والادارة .

وحتى عام ١٩١٣ كانت الرياض وسلطنة نجد بشكل عام ـ وهي قلب الدولة السعودية التي أنشأها الملك عبدالعزيز ـ مكشوفة لأعدائه الذين كانوا يحيطون به من الشمال والشرق والجنـوب والغرب كـآل رشيد في الشمال والأشراف في الغرب وكانت الدولة العثمانية هي حلقة الوصل بين تلك الأقاليم العدائية اذ أنها كانت أما مسيطرة على شئـون بعض منها (كالاحساء مثلا) أو متحالفة مع القوى الأخرى المسيطرة على الأقاليم المحيطة بنجد . وفي ظروف كهذه كان على عبدالعزيز أن يوسع من رقعة الأراضي الخاضعة لنفوذه لكي يحمي عاصمة ملكه في نجد ولكي يعطي لنجد بعدا استراتيجيا . ولا شك أن تحرير الأحساء أعطى نجد هذا البعد الذي كـانت تفتقده قبـل عـام ١٩١٣ ميلادية(٢٥) .

وبالاضافة الى الاعتبارات التي سبقت الاشارة اليها كانت هناك اعتبارات اقتصـاديـة هـامـة وراء استرداد الأحساء . فقد كان الملك عبدالعزيز قد باشر للتوه مشروعه التوطيني لحث البدو الرحل على الاستقرار في مناطق معينة من شبه الجزيرة العربية كما سبقت الاشارة الى ذلك . ورغم أن هذا المشروع كان مشروعا رائدا الا أنه كان مشروعا مكلفا من النواحي المالية سواء ما يتعلق ببناء الهجر أو ما يرتبط بها من زراعة الأرض وحفر الآبار وغير ذلك . ومن المعروف أن سلطان نجد واجه معوقات اقتصادية كبيرة في السنوات الأولى لهذا المشروع الطموح عندما إنصرف الاخوان الذين استقروا في هذه الهجر الى شئون العبادة والتبصر في شئون الدين وأهملوا العمل والقيام بالتزاماتهم الاقتصادية تجاه «هجرهم» مما ضاعف من أعباء الملك عبدالعزيز المالية . وهذا ما دفعه الى القيام بحملات مكثفة شارك فيها رجال الدين لحث مواطني هذه الهجر على العمل والنهوض بالنشاط الاقتصادي لأن الكسل والخمول ليس من تعاليم

الاسلام بل أن الاخلاص في العمل واجب ديني هام يجب القيام به .

وهكذا نستطيع نفهم الدوافع الاقتصادية لتحرير اقليم الأحساء الذي يعد واحدا من أغنى الأقاليم الزراعية في شبه الجزيرة العربية ان لم يكن أغناها على الاطلاق . وهو أمر يجب أن لا يقلل من شأنه بأي صورة من الصور .

أما الاعتبارات الجغرافية فهي الأخرى أعطت اقليم الأحساء وضعا خاصا وأهمية مميزة لكونه اقليما ساحليا . فلأول مرة يمتلك ابن سعود مخرجا على البحر ويتحكم في عدة موانىء على ساحل الخليج . فلسنوات طويلة كان أهالي نجد يعتمدون على موانىء جيرانهم وخاصة الكويت في تسيير شئونهم التجارية وفي تزويد سوق نجد بكل ما يحتاجه تقريبا . وعلى الرغم من أن الملك عبدالعزيز أقام علاقات ودية مع الكويت في السنوات الأولى لحكمه الا أن الاعتماد على بلد آخر في مسائل تنظر اليها الدول على أنها مسائل حيوية غاية في الأهمية كان أمرا مرفوضا من جانب الملك ناهيك عن الاعتبارات الاقتصادية والتي منها حرمان سلطنة نجد من الضرائب الجمركية التي كان يصعب تحصيلها على الحدود بين الكويت ونجد[٢٦] . وهكذا تتشابك هذه الاعتبارات لنصل الى نتيجة سياسية مؤداها أن الملك عبدالعزيز كان في حاجة ماسة لتحرير اقليم الأحساء نظرا لغنى هذا الاقليم الزراعي وكذلك لاعتبارات الأمن الاقتصادي للدولة التي أنشأها عبدالعزيز والتي تقتضي ضرورة الاعتماد على موانىء تخضع لاشراف هذه الدولة دون سواها ثم لكون هذه الموانىء مصدرا كبيرا للدخل بالنظر لموضوع الرسوم الجمركية التي يتم تحصيلها على السلع الواردة . وربما يعزز من وجهة النظر هذه الاشارة الى أن الخلافات التي نشأت في فترة لاحقة بين الكويت ونجد في عهد الشيخ سالم الصباح كانت ترتكز أساسا على الاعتبارات المشار اليها حيث كان الملك عبدالعزيز يحث تجار نجد على استعمال الموانىء التابعة لبلادهم كالعقير والقطيف وجبيل بدلا من الاعتماد على ميناء الكويت في هذا الخصوص[٢٧] . ولهذه الأسباب فرض الملك عبدالعزيز حصارا اقتصاديا قاسيا كاد أن يدمر الحياة التجارية في هذا القطر الخليجي .

ومن المفيد الاشارة هنا الى أن المنفذ البحري الآخر لسلطنة نجد والمتمثل في اقليم الحجاز كان يخضع لقوة أخرى معادية للملك هي قوة الشريف حسين . ولذلك كان على عبدالعزيز الاختيار بين الاتجاه شرقا أو الاتجاه غربا . وقد اختار الاتجاه

الأول لاعتبارات تتعلق أساسا بالظروف الدولية في الفترة محل الدراسة ولكون القوة التي تسيطر على الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية في طريق الانهيار - كما سنوضح فيما يلي .

وتبقى حقيقتان هامتان في هذا السياق أولاهما أن فتح الأحساء كان سينقل الملك عبدالعزيز نقلة قوية في علاقاته الدولية . فالوصول الى مياه الخليج كان يعني بالضرورة الاحتكاك بالقوى الأوربية الهامة لكون الخليج محطة مواصلات رئيسية بين الشرق والغرب . ويقف الانجليز على رأس تلك القوى التي لها شأن كبير في تسيير شئون الخليج[٢٨] . ويبدو أن فتح الأحساء أضاف بعدا جديدا لقوة ابن سعود اذ سرعان ما توجهت الحكومة البريطانية توجها أقوى نحوه وبدأت تعمل على كسب وده . وترد الاشارة هنا الى أن السير بيرسي كوكس المندوب السامي البريطاني في بغداد كان يحث شركة الملاحة الانجليزية على التعاون مع ابن سعود وعلى استخدام موانىء الأحساء كمحطات تجارية لها . وهذا الاتجاه الجديد من جانب بريطانيا كان يدل من جهة على اعتراف من قبل الانجليز بتبعية الأحساء لحكم ابن سعود ويدل من جهة أخرى على أن بريطانيا كانت حريصة على ارضائه بكافة الصور بعد أن تبين حجم قوته ونفوذه بين القبائل العربية . وقد جاء هذا الاعتراف كمقدمة للاعتراف البريطاني الرسمي بتبعية الاحساء وغيرها من الأقاليم للملك عبدالعزيز في الاتفاقية التي وقعتها معه في ديسمبر من عام ١٩١٥[٢٩] .

أما الحقيقة الأخرى التي لا تقل أهمية فهي أن تحرير الأحساء قد تم التوقيت له بدقة بالغة . فمن جانب كانت الدولة العثمانية منشغلة بجبهات قتال أخرى ، مما كان يحرمها من القدرة على تحريك أي قوات نحو اقليم الاحساء[٣٠] . أما الخطر القادم من آل رشيد فقد تم تحييده مؤقتا وخاصة بعد معركة روضة مهنا التي انتهت بمقتل أمير شمر عبدالعزيز الرشيد والذى فقدت شمر بموته قائد كبيرا من قوادها[٣١] . أما الشريف حسين فقد كان هو الآخر منشغلا بأمور أخرى ترتبط بالحرب العالمية الأولى التي كانت الاستعدادات تجري لها وبدور البيت الهاشمي في السياسة العربية في مرحلة ما بعد الحرب . ومن هنا فقد كان المجال مهيئا للملك عبدالعزيز لكي ينقض على القوات التركية المهلهلة ويحرر اقليم الأحساء من قبضتها .

فتح الحجاز ... خاتمة المطاف :

ابرزت عملية تحرير الرياض مبدأ التصميم والارادة القوية لدى عبدالعزيز كما أعطت اشارة البدء لعملية توحيدية شاقة امتدت لعشرات

السنين . ولا شك أن تحرير الحجاز جاء كخاتمة للمطاف الطويل والذي بموجبه تم وضع اللمسات النهائية للبعد الجغرافي الذي أراده الملك عبدالعزيز لما عرف فيما بعد بالمملكة العربية السعودية .

لقد تحققت لسلطنة نجد باضافة هذا البعد الجديد لحدودها وحدتها الطبيعية كما أضيف دور جديد للملك عبدالعزيز عندما أصبح مسئولا مسئولية مباشرة عن حماية المقدسات الدينية . ولا شك أن هذه المسئولية فتحت الباب على مصراعيه أمام الملك عبدالعزيز ليلعب دورا مميزا في العالم الاسلامي لكون الحجاز قبلة المسلمين الأساسية ولكون موسم الحج موسما هاما للقاء قادة المسلمين تحت رعاية الملك .

ومن المفيد الاشارة الى خلفيات هذا الحدث التاريخي الهام قبل الاسترسال في الحديث عن نتائجه فقد كان من الواضح أن الصدام بين ابن سعود والشريف حسين بن علي حاكم الحجاز آت لا محالة . اذ عرف عن الرجلين طموحهما الشديد كما أن الأحداث اثبتت ان كلا منهما لا يتوانى عن التدخل في الشئون الداخلية للطرف الآخر اذا وجد في ذلك ما يحقق مصلحته . كما أثبتت الأحداث أيضا أن التوصل الى تسوية تفاوضية لحل الخلافات بين الشريف حسين وابن سعود أمر أقرب الى الاستحالة ، اذ فشلت كل محاولات الوساطة بينهما . وفي ظروف كهذه كان لا بد من حل عسكري للخلافات المتراكمة بين زعيمي شبه الجزيرة العربية . وحتم هذا الحل تفاقم الأمور وازديادها سوءا نتيجة المضايقات الشديدة التي كان يتعرض لها الحجاج النجديون والذين كانوا بلا شك يرفعون أصواتهم بالشكوى، كما تشير الى ذلك بعض المصادر التى تناولت الموضوع (٣٢).

كانت الاستراتيجية التي اتبعها الملك عبدالعزيز لتحرير الحجاز تقوم على خطوتين أساسيتين . فقد طلب في بادىء الأمر الشرعية الدينية لتحرير المناطق المقدسة عسكريا ، وهذا ما حققه له مؤتمر الرياض الذي تم بحضور العلماء والمشايخ . وقد كانت مجمل الآراء المتداولة في المؤتمر المذكور تدين جانب الشريف حسين ونظام حكمه وذلك بسبب سياسته المتشددة بشأن الأماكن المقدسة ومعاقبة أهالي سلطنة نجد الموالين لآل سعود عن طريق حرمانهم من أداء فريضة الحج . وبعد أن حصل سلطان نجد على الشرعية الدينية من جانب العلماء وبعد أن أعطى لحملته على الحجاز الصبغة الدينية ، اتجه عبدالعزيز نحو العالم الاسلامي بهدف الحصول على الشرعية الدولية .

وفي هذا السياق نستطيع تفهم البيان الهام الذي أصدره مؤتمر الرياض والذي كان موجها إلى مسلمي العالم . وفي هذا البيان شدد سلطان نجد على أن هدفه من القيام بأي عمل تجاه السلطات في الحجاز ينبع من حرصه على تسهيل اجراءات أداء فريضة الحج على المسلمين وانقاذ الحجاز من الفوضى التي كان يعيشها بسبب سياسات شريف مكة . وقد انتهز سلطان نجد فرصة اصدار هذا النداء الهام ليوجه حديثه لأبناء الأمة العربية يحثهم فيه على العمل في سبيل تحقيق الوحدة العربية . وقد اعتبر البعض ذلك مؤشرا لنوايا السلطان لقيام كيان موحد في شبه الجزيرة العربية . كما شدد السلطان على أهمية الاستقلال الوطني لكل قطر عربي ونوه الى أهمية أبعاد الدول العربية عن أي نفوذ أجنبي(٣٣) . وهكذا التقت الأبعاد الثلاثة المحلية والعربية والاسلامية في مؤتمر وبيان الرياض وأصبح المجال مفتوحا لتنفيذ الحل العسكري ، وهو ما تم بعد ذلك بزمن قصير .

أما الظروف السياسية فقد خدمت هي الأخرى مسعى سلطان نجد . فالشريف حسين كان يعاني من تدهور كبير في شعبيته وخصوصا بعد أن وقع ضحية لمخططات الانجليز وخداعهم بعد سلسلة طويلة من الوعود التي قطعوها له . أما وقد ثبت بان الشريف حسين كان مغررا به من قبل السلطات البريطانية فقد بات واضحا أن مشروع الدولة العربية الموحدة المستقلة أصبح ضربا من الأحلام وبالتالي أصبح موقف الشريف حرجا في اقليم الحجاز . ولقد تجلى ذلك اثناء قيام السلطان عبدالعزيز بحملته العسكرية على الحجاز حيث بدأ أنصار الشريف حسين يتخلون عنه الواحد تلو الآخر وأصبح معزولا بين شعبه(٣٤) مما مهد السبيل لبسط نفوذ سلطان نجد على كافة أنحاء الحجاز ، وقد كان له ما أراد بدخوله مدينة جدة منتصرا في الرابع والعشرين من شهر اكتوبر من عام ١٩٢٥ ميلادية ، حيث تحقق ما أطلق عليه السلطان عبدالعزيز وحدة سلطنة نجد الطبيعية .

خاتمة :

لقد ساهمت التجارب السياسية الثرية التي مر بها الملك عبدالعزيز آل سعود بشكل كبير في بلورة منهجه السياسي المتميز الذي سار عليه نحو انشاء المملكة العربية السعودية . ان تجربة الملك عبدالعزيز السياسية تجربة خصبة بحاجة الى دراسات متعمقة لسبر أغوارها ، فانشاء المملكة العربية السعودية بحدودها الحالية واتساعها الجغرافي الهائل والذي تم في زمن قياسي يزيد على

العشرين عاما بقليل يبرهن بصورة جلية على صدق ما أشرنا اليه عن تميز منهج الملك عبدالعزيز السياسي . ففي الفتـرة المشار اليهـا لجأ الملـك عبدالعزيز الى وسائل متعددة تتفاوت بين الاقناع والحوار الى استخدام القوة بهدف تحقيق الهدف العزيز الذي سعى من أجله والذي بدأه من الكويت مع أربعين من انصاره في احدى ليالي شهر سبتمبر من عام ١٩٠١ .

الهوامش

١ ـ أحمد طربين : الملك عبدالعزيز آل سعود والوحدة العربية (الرياض مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية) ، ١٩٨٥ ، ص ١ .

٢ ـ يضم اقليم الحجاز الأماكن المقدسة (مكة والمدينة المنورة) وهذا ما يعطي لهذا الاقليم أهميته الخاصة ، كما انه بضم هذا الاقليم اخذ الملك عبدالعزيز يتطلع الى اقامة علاقات دبلوماسية منظمة مع كثير من الدول الأجنبية . انظر طارق الحمداني ، الملك عبدالعزيز وسياسة الموازنة بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ١٩٢٦ ـ ١٩٤٥ (الرياض : مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ١٩٨٥) ، ص ١ .

٣ ـ قضى عبدالعزيز فترة صباه متنقلا مع البدو الرحل في اشد بقعة من صحراء شبه الجزيرة العربية وهذا ما أكسبه كما يرى المؤرخون قدرة كبيرة على التحمل والصبر . انظر في ذلك أمين الريحاني ، نجد وملحقاته وسيرة عبدالعزيز (بيروت ، دار الريحاني ، ١٩٦٤) ، ص ١١٤ كذلك بيار روفائيل صقر الصحراء (بيروت : منشورات حمد ومحيو ، ١٩٧٣) ص ١٣٤ .

٤ ـ Abdel- LatifAl- Rumaihi, Dynamics of - Kuwait Foreign Policy Ph, D. Thesis (Exeter (U.K.): University of Exeter,1983) p. 46.

٥ ـ يصف الدكتور حسن الابراهيم : وزير التربية الكويتي السابق حركة الشيخ مبارك بانها اول انقلاب سياسي في تاريخ الكويت ، ارجع الى حسن الابراهيم الكويت دراسة سياسية (الكويت : دار العلوم ، ١٩٧٩ م) ، ص ١٣٨ . وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر عبدالعزيز الرشيد ، تاريخ الكويت (بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٨) .

٦ ـ يناقش الشيخ يوسف بن عيسى القناعى هذا الموضوع بتفصيل مفيد . انظر يوسف القناعى صفحات من تاريخ الكويت (دمشق لا ناشر ١٩٥٤)

٧ ـ فؤاد حمزة : البلاد العربية السعودية (الرياض : مكتبة النصر الحديثة ١٩٦٨) ص ١٦ .

٨ ـ خالد محمد السعدون : العلاقات بين نجد والكويت ١٩٠٢ ـ ١٩٢٢ (الرياض مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ، ١٩٨٣) ص ٤٣ .

٩ ـ فتوح عبدالمحسن الخترش : تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية (الكويت : دار ذات السلاسل ، ١٩٧٤) ص ٥٧ .

١٠- محمد المانع ، توحيد المملكة العربية السعودية ، مترجم (الدمام : مطابع المطوع ١٩٨٢) ص ٣٨ .

١١- Briton Busch, Britain and the Persian Gulf 1894 - 1914 (Los Angles: University of California Press, 1967) P.94

١٢- انظر في ذلك خير الدين الزركلي : الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٧) ص ١٦٧ . ايضا مديحة درويش تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين (جدة : دار الشروق ، ١٩٨٣) ص ٧٩ .

١٣- نجاة عبدالقادر الجاسم : التطور السياسي والاقتصادي للكويت بين الحربين ١٩١٤ - ١٩٣٩ ، (القاهرة : المكتبة الفنية الحديثة ١٩٧٣) ص ١٥

١٤ M.W. Khouja and P.G. Sadler, The Economy of Kuwait, Development and Role in International Finance (London: The Macmillan Press, 1979) P.1

١٥- عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : أثر قوة ارادة الملك عبدالعزيز في تكوين المملكة العربية السعودية ، (الرياض : مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ١٩٨٥) ص ١٥

١٦- حافظ وهبة ، جزيرة العرب في القرن العشرين (القاهرة : مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٦) ص ٢٣٤ ، يؤكد خالد السعدون ان مغادرة الكويت تمت في النصف الثاني من شهر سبتمبرمن عام ١٩٠١ دون تحديد واضح للتاريخ : خالد السعدون ، المرجع السابق ، ٧١

١٧- أمين الريحاني ، المرجع السابق ص ١٣٦

١٨- حافظ وهبه ، جزيرة العرب ، ص ٢٣٥

١٩- انضم عشرون رجلا فقط الى الأربعين رجلا الذين غادروا الكويت في الأصل مع عبدالعزيز ليصل المجموع الى ستين رجلا ، حافظ وهبة ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

٢٠- خالد السعدون ، المصدر السابق ، ص ٧٣

٢١- تمت العملية كما يشير لوريمر في ١٥ يناير ١٩٠٢ ، انظر ج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، الجزء الثالث ، مترجم (الدوحة : ديوان حاكم قطر ١٩٦٧) ص ١٧٠١

٢٢- تخرج من هذه الهجرة ما عرف بقوات الاخوان وهي القوات الرئيسية التي اعتمد عليها ابن سعود في كل تحركاته العسكرية في الداخل والخارج . وقد كانت هذه القوات عقائدية بشكل مطلق وتميزت بالقوة والصلابة والاستبسال في القتال وكانت صيحاتهم القتالية تثير الذعر في نفوس أعدائهم . انظر لذلك
John Habib, Ibn Saud,s Warriors of Islam, (Leiden: E.J Brill, 1978), P.178

٢٣- صالح عبدالله العبود ، الملك عبدالعزيز : من صفاته القيادة العزم والارادة

(الرياض: مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ١٩٨٥) ص ٣٠ - ٣١

٢٤- يذكر الدكتور العبود ان عدد هذه الهجر قد بلغ في عهد عبدالعزيز ١٥٣ هجرة ، صالح العبود ، المرجع السابق ص ٣٠ ، بينما يذكر حافظ وهبة ان عدد الهجر لم يتجاوز الستين هجرة ، حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص ٢٧٣

٢٥- يرى بعض الكتاب ان الملك عبدالعزيز بدأ يهتم باقليم الأحساء بعد ان علم بأن الانجليز كانوا يفكرون جديا في احتلال هذا الاقليم لمنافسة الألمان لقطع الطريق امام مشروعهم الطموح لمد خط حديد برلين - بغداد . انظر لذلك ، محمد حسين زيدان ، عبدالعزيز والكيان الكبير ، (الرياض : منشورات محمد زيدان ، ١٩٨٥) ، ص ٣٦ . أما الدكتور تركي بن محمد بن سعود الكبير فيشير الى أن الملك عبدالعزيز كان يرغب في التعاون مع الانجليز منذ عام ١٩٠٣ بهدف احتلال اقليم الأحساء وقد قام بالفعل بالاتصال بالسلطات الانجليزية ممثلة في المندوب البريطاني في البحرين السيد كاسكين. تركي بن محمد بن سعود الكبير ، علاقة بريطانيا بالملك عبدالعزيز آل سعود ١٩٠٢ - ١٩٢٥ ، (الرياض : مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ١٩٨٥) ص ١

٢٦- Mohammed Al-Roumi, Kuwait and Malta, British Imperial policy 1899-1980, M.A. Dissertation, (Malta: University of Malta, 1980 pp. 69-70

٢٧- Abdel-Latif Al-Rumaihi Ibid, P.87

٢٨- حافظ وهبة ، خمسون عاما في جزيرة العرب ، (القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده) ، ١٩٦٠ ، ص ٨٣

٢٩- انظر نص الاتفاقية في حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧

٣٠- كانت الدولة العثمانية في حالة من التصدع والانهيار كما كانت منهكة بسبب حربها في ليبيا ضد ايطاليا ناهيك عن اضطراب أوضاعها في أوربا ، حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص ٢٣٨

٣١- خالد السعدون ، المصدر السابق ص ١١٧

٣٢- انظر في ذلك عبدالرحيم عبدالرحمن ، المصدر السابق ، ص ١٩ . كذلك بيان الملك عبدالعزيز الذي يتطرق الى هذا الموضوع في حافظ وهبة ، خمسون عام في جزيرة العرب ، ص ٥٧ - ٦٠

٣٣- ارجع الى صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ، المجلد الثاني ، (بيروت دار مكتبة الحياة ، بدون تاريخ) ، ص ٢٨٩ - ٢٩٢ .

ويشير الدكتور أحمد طربين الى أن الملك عبدالعزيز كان يتطلع الى بناء اتحاد عربي يضم اقطارا لا تخضع للنفوذ الأجنبي كما أن عبدالعزيز كان يحرص على جمع شمل العرب في ظروف الحرب والسلام ولم ييأس من قيام وحدة عربية في

شكل ما . أحمد طربين ، المرجع السابق . ص ١ ـ ٣

٣٤ـ اضطر الشريف حسين بعد ازدياد ضغوط الملك عبدالعزيز عليه وتلبية لمطالب سكان الحجاز أن يتنازل عن الحكم لصالح نجله علي . الا ان هذا التنازل لم ينقذ الحجاز من السقوط في قبضة ابن سعود . انظر صلاح الدين المختار ، المرجع السابق ص ٣٠١ ـ ٣٠٤

المراجع

• المصادر العربية

- أحمد طربين ، الملك عبدالعزيز آل سعود والوحدة العربية ، (الرياض : مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ١٩٨٥) .
- أمين الريحاني ، نجد وملحقاته وسيرة عبدالعزيز ، (بيروت : دار الريحاني ، ١٩٦٤)
- بيار روفائيل ، صقر الصحراء ، (بيروت: منشورات حمد ومحيو ، ١٩٧٣)
- تركي بن محمد بن سعود الكبير ، علاقة بريطانيا بالملك عبدالعزيز آل سعود ١٩٠٢ ـ ١٩٢٥ ، (الرياض : مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ١٩٨٥)
- ج . لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي، الجزء الثالث ، مترجم ، (الدوحة ديوان حاكم قطر ، ١٩٦٧)
- حافظ وهبة ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، (القاهرة : مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٦)
- حافظ وهبة ، خمسون عاما في جزيرة العرب ، والقاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاد ، ١٩٦٠)

المصادر الانجليزية

* AL-Roumi, Mohammad, Kuwait and Malta, British Imperial policy 1899-1939, M.A. Dissertation, (Malta: University of Malta, 1980)
* Al-Rumihi, Abdel-Latif, Dynamics of Kuwait: of Foreign policy, ph.D Briton, Thesis, (Exeter «U.K.»: The University of Exeter,1983).
* Bush Briton, Britain and the persian Gulf 1894-1914, (Los Angeles: University of califor nia press, 1967)
* Habib, John, Ibn Saud's Warriors of Islam, (leiden: E.J. Brill,1978)
* Sadler, P.G. and Khouja, M.W. The Economy of Kuwait, Develop-ment and Role in International Finance, (London: The Macmillan press, 1979).